

دراسات إسلامية

- ٨ -

شَهِيدُ الْعِشْقِ وَاللَّهِمَّ

رَابِعَةُ الْعَدْوِيَّةِ

تأليف

عبد الرحمن بدوي

الطبعة الثانية

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلي، بابنا بالقاهرة

١٩٦٢

مؤلفات

الدكتور عبد الرحمن بدوي

(أ) مبهتمكرات

- ١ - الزمان الوجودي .
- ٢ - مفهوم الشباب .
- ٣ - مرآة نفسي (ديوان شعر) .
- ٤ - الحور والنور .
- ٥ - هل يمكن قيام أخلاق وجودية ؟
- ٦ - نشيد الغريب

(ب) دراسة أوروبية

- ١ - الموت والمعبرة .
- ٢ - دراسات في الوجودية .

خلاصة الفكر الأوربي

- ١ - نيتشه
- ٢ - اشينجلر .
- ٣ - شوبنهاور .
- ٤ - أفلاطون .
- ٥ - أرسطو .
- ٦ - ريم الفكر اليوناني .
- ٧ - خريف الفكر اليوناني .
- ٨ - برجسون .

(ج) دراسات إسلامية

- ١ - التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية .
- ٢ - من تاريخ الأحاد في الإسلام
- ٣ - شخصيات قلقة في الإسلام .
- ٤ - الإنسانية والوجودية في الفكر العربي .
- ٥ - أرسطو عند العرب
- ٦ - المثل العقلية الأفلاطونية
- ١٥ - الأصول اليونانية للنظريات السياسية في الإسلام
- ١٦ - في النفس لأرسطو (ومنه الآراء الطبيعية لفيلوخرس الخ)
- ١٧ - ابن سينا : عيون الحكمة
- ١٨ - ابن سينا : البرهان (من الشفا)
- ١٩ - الأفلاطونية المحدثة عند العرب
- ٢٠ - أفلوطين عند العرب .
- ١٢ - الميشرين فاتك : مختار الحكم .
- ٧ - منطق أرسطو في ٣ أجزاء .
- ٨ - شهيدة العشق الإلهي : رابعة العدوية
- ٩ - شطحات الصوفية (أبو يزيد البسطامي)
- ١٠ - روح الحضارة العربية .
- ١١ - الإنسان الكامل في الإسلام .
- ١٢ - الاشارات الإلهية للتوحيدى .
- ١٣ - مسكويه : الحكمة الخالدة
- ١٤ - فن الشعر لأرسطو وشرحه العربية
- ٢٢ - فلهوزن : الحوارج والشيعة .
- ٢٣ - أرسطوطاليس : الخطابة .
- ٢٤ - ابن رشد : تلخيص الخطابة .
- ٢٥ - مؤلفات الغزالي .
- ٢٦ - أرسطوطاليس : الطبيعة .
- ٢٧ - رسائل ابن سبتين
- ٢٨ - أرسطوطاليس في السماء والآثار العلوية
- ٢٩ - مؤلفات ابن خلدون .

(٤) ترجمات

الروائع المائة

- ١ — ايشدورف : من حياة حائر بائر . ٤ — بيرن : أسفار اتشيلد هارولد .
- ٢ — فوكيه : أندين . • — جيته : الأنساب المختارة .
- ٣ — جيته : الديوان المشرق (في جزئين) ٦ — ثرفانتس : دون كيخوته .
- ٧ — رلكه : صحائف مالتى برجه .

فهرس الكتاب

- استهلال : بيئة رابعة : مدينة البصرة
الحب (٦ - ٣) .
- ١ - مصاعب البحث في رابعة
(٧ - ٦) .
- ٢ - نشأتها الأولى محاطة بالأساطير
(٧ - ١٠) ؛ رابعة مولاة فارسية أو
مسيحية الأصل (١٠ - ١١) ؛ بدء
شعورها برسالتها (١٢ - ١٣) ؛ أسرها
وتحريرها (١٤ - ١٥) ؛ رابعة
تتعرف مهنة العزف على الناي (١٦ -
١٧) ؛ حياتها اللاهية (١٧) ثم توبتها
(١٨ - ١٩) .
- ٣ - توبتها بفضل الله (٢٠ -
٢١) ؛ ملامح هذه التوبة ومعالها (٢٢ -
٢٦) ؛ رابعة في طريق المشق لله (٢٦ -
٢٩) .
- ٤ - أدوات العبادة عندها (٢٩
وما يليها) : التهجد وقيام الليل (٢٩ -
٣٣) ؛ استذكار الموت (٣٣ - ٣٥) .
- ٥ - عهد التنقل في حياة رابعة :
الحج لديها : المرحلة الأولى (٣٧) ،
المرحلة الثانية (٣٧ - ٣٨) ، المرحلة
الثالثة (٣٨ - ٣٩) ؛ الحج يتطور
في طريق التنزيه والتجريد (٣٩ - ٤٠) ؛
رفع الظاهر عن معنى الحج وتجريده
(٤٣ - ٤٥) .
- ٦ - الحاط بين رابعة الشامية
ورابعة البصرية (٤٤ وما يليها) ؛
مقياس التمييز بين كليهما (٤٦ - ٤٧) ؛
نقد أخبار رابعة وفقاً لهذا المقياس
(٤٨ - ٥٠) ؛ أخبار زواج رابعة
(٥٠ - ٥٣) ؛ نظرية رابعة في الزواج
ونظرية الصوفية عموماً (٥٣ - ٥٩) .
- ٧ - حبيب رابعة الوحيد هو الله
(٥٩ وما يليها) ؛ رابعة أول من تكلم
- في الحب الإلهي بين الصوفية المسلمين (٦١) ؛
الحب ومنزلة الخلة (٦١ - ٦٤) .
- ٨ - الجانب العاطفي في الحب عنده
رابعة وتمييزها بين نوعين من الحب :
حب الهوى والحب الذي « هو » (= الله)
أهل له (٦٤ وما يتلوها) ؛ الحب
الخالص وحب الهوى (٦٦ - ٦٨) ؛
التوفيق بين كليهما (٦٨ - ٧٠) ؛
روايات آيات رابعة في كلا النوعين من
الحب (٧٠ - ٧٥) .
- ٩ - الجانب الإيجابي في رسالة
رابعة (٧٥ وما يليها) المرض حتى الموت
(٧٦ - ٧٨) .
- ١٠ - رابعة والله وجهاً لوجه
(٧٨ وما يليها) ؛ تجريد الكعبة من
معناها الحسي (٨٠ - ٨٢) ؛ تفهيد
رأى ابن تيمية (٨٢ - ٨٤) ؛ تجريد
الجنة والنار من معناها الحسي (٨٤ -
٨٥) ؛ هل تأثرت رابعة بحركة الزندقة
المعاصرة ؟ (٨٥ - ٨٧) .
- ١١ - الفناء في الله وعبادة الأم
(٨٧ - ٩٠) .
- ١٢ - حلة رابعة على الأخرويات
وإنكارها حقيقة الجنة والنار (٩٠ -
وما يليها) .
- ١٤ - السكرامات المنسوبة إلى رابعة
وصياغتها وفقاً للنموذج العام للصوفي
(٩٢ - ٩٦) .
- ١٤ - أسطورة رابعة : قبرها
(٩٦ - ٩٩) ؛ كراماته الشعبية (٩٩ -
١٠٠) ، القبر المنسوب إلى رابعة في
دمشق (٩٩ - ١٠١) ، رواية المطار
عن قبرها (١٠١) .
- ١٥ - تاريخ وفاة رابعة والاختلاف
جوله (١٠٢ - ١٠٤) .

أخبار رابعة

نصوص منشورة وغير منشورة

رقم مسلسل	
١	الجاحظ (١٠٨) .
٢	السراج (١٠٨) .
٣	الكلاباذي (١٠٩) .
٤	الهجویری (١٠٩) .
٥	أبو سعيد بن أبي الخير (١٠٩) .
٦	ما أوردته ماسينيون (١١٠ - ١١٣) : أبو طالب المسكي ، أبو نعيم ، خشيش ، عين القضاة ، ابن العماد ، ابن تيمية ، الأذلاكي .
٧	أبو القاسم النيسابوري (١١٣ - ١١٧) .
٨	الزبيدي (١١٨ - ١٢٣) .
٩	الرسالة القشيرية (١٢٤) .
١٠	ابن الجوزي : رابعة العدوية (١٢٤ - ١٢٨) .
١١	ابن الجوزي : رابعة الشامية (١٢٨ - ١٣١) .
١٢	ابن تيمية (١٣١ - ١٣٢) .
١٣	ابن شاكر الكتبي (١٣٢ - ١٣٣) .
١٤	السراج (١٣٣ - ١٣٥) .
١٥	المنأوي (١٣٥ - ١٤٢) .
١٦	المطار (١٤٢ - ١٦٠) .
١٧	المشيمخ الحريفيش (١٦٠ - ١٦٣) .
١٨	ابن تفری بردی (١٦٤) .
١٩	بهاء الدين العاملي (١٦٤) .
٢٠	اليافعي (١٦٥ - ١٦٧) .
٢١	حكايات عن رابعة في مخطوطات الفاتيكان (١٦٧ - ١٦٨) .
٢٢	عبد الرحمن الجامي (١٦٨ - ١٦٩) .
٢٣	محرم بن أبي البركات الزيلي (١٦٩ - ١٧٠) .
٢٤	ابن العماد الحنظلي (١٧٠) .
٢٥	أبو الحسين الماطلي (١٧٠ - ١٧٢) .
٢٦	عز الدين بن عبد السلام بن غانم المقدسي (١٨٢ - ١٧٤) .
٢٧	أبو بكر الحصني (١٧٤ - ١٧٨) .
٢٨	سبط ابن الجوزي (١٧٨ - ١٧٩) .
٢٩	عبد الرحمن الجامي (١٨١ - ١٨٢) .
٣٠ - ٣٢	شمس الدين الذهبي (١٣٨ - ١٨٤) .
٣٣	عبد الرحمن بن خلدون (١٨٦) .
٣٤	أبو حامد الغزالي (١٨٦ - ١٨٧) .

شهادة العشق الألهى

محمد بن عبد الله بن عبد المطلب

قنيسيا العربية ترفُّ كالألال الزاخر بالتهاوليل في رؤى الساغبين اللاغبين
 الضاربين إليها من أعماق الفيافي في قلب الجزيرة العربية ؛ حتى إذا بلقوها وأناخوا
 الإبل عند المرَبَد دخلوا المسجد الجامع من باب البادية ، فبهرتهم دقة الأساطين
 وبراعة الفن الذي أضفاه زياد بن أبيه على هذا الأثر الرائع للعمار الإسلامي
 الأوَّل^(١) وجلوا بأبصارهم المخبَّرة برمال البادية إلى هذه التقوى المترفة ، فاستشعروا
 حسًا مما ينتظرم على الجانب الشرقي ناحيتي الشمال والجنوب حيث السفن الزاهية
 تنحدر من الشمال قادمة من بغداد في نهر مَعْقِل ، والجوارى المنشئات في الخليج
 الفارسي تخرُّ عباب نهر الأُبلة متصاعدة من الجنوب في وقار لأنها موقرة بأمن
 السلعة المحملة إليها من الهند والصين .

تلك هي مدينة البصرة^(٢) التي أنشأها عُتْبَةُ بن غَزْوَان سنة ست عشرة هجرية
 (= ٦٣٧ ميلادية) بأمر من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، كما تكون فيها نقلة
 بين البادية والحضر ، بين الخشونة الزاهدة الصلبة القاسية الإيمان وبين الترف
 الناعم الهائم في أوداء القداسة الشهبانية . ولذا جاءت مزيجاً من هذين الطرفين
 المتباعدين في تخطيطها ومساق الحياة فيها ، وكانت روحها مسرحاً لمأساة هذا
 الازدواج المتوتر العنيف في طبيعتها . وبهذا الاستقطاب طبعت نفوس ساكنيها:
 ففي روح كلِّ تسكن طبيعتان متعارضتان : إحداهما تلمس غذاءها من قوت
 الحواس ، والأخرى تستشرف إلى قوت القلوب . ولن تستطيع إحداهما القضاء

(١) راجع ياقوت : « معجم البلدان » ، نشرة فسيفلد ، ج ١ ص ٦٤١ — ص ٦٤٣ .

(٢) راجع : لوستراخ : « بلاد الخلافة الشرقية » ص ٤٤ — ص ٤٥ G. Le Strange :

كبريدج سنة ١٩٠٥ Lands of the Eastern Caliphate ، و « دائرة المعارف
 الإسلامية » ، تحت المادة ؛ وياقوت ، الموضع السالف ، وكتاب « صورة الأرض » لابن حوقل نشرة
 كرامرز J. H. Kramers في لندن سنة ١٩٣٨ ، ج ١ ص ٢٣٥ — ص ٢٣٨ .

على الأخرى ، بل سيظل التعارض قوياً عنيقاً ، وفي عنقه يقوم ذلك التوتر الحى الذى يحمل من حيواتهم مصدراً للتشويق لا يقل فى قيمته عن مذاهبهم . ماذا أقول ! بل فى حياة أكثرهم ما يفوق مذهبهم بمراحل عدّة . ولذا يجب على الباحث أن يتلقى عندهم كلتا الناحيتين المتعارضتين ، وأن يفلسف حيواتهم على أنها لنوات وجودية باطنها زاهر بممكنات التفتّح على ضوء المجهول . والذوات الوجودية التى من هذا القبيل تحيا فى الأسطورة كما تحيا فى التاريخ ، لأن التاريخ يستحيل عندها إلى أسطورة والأسطورة تستحيل إلى تاريخ ، فلا تستطيع أن تميز بين الجاهلانيين بوضوح . وحتى لو استطاع ذلك المؤرخ المتزمت لما أجدى هذا فى التفسير ، لأن حياة هؤلاء بعد وفاتهم أقوى بل وأصدق . لذا يجب أن نعدّ فترة عبورهم فى الدنيا بمثابة زناد يقدهم الشرارة المقدسة التى هى ذاتهم . وتستمر تلك الشرارة تنهى للناس قدراً من الزمان يتوقف على قوة الشرارة الأولى . فمن الخطأ أبين الخطأ فى الفهم التاريخى السليم أن نطرح جانب الأسطورة ، لأن هذه الأسطورة لحمّة التاريخى الحقيقى الحى ليلك النفوس الخارقة .

فإلى جانب الحياة اللاهية التى عمّرت بها القنوت والمتاجر مما كان خير إطار لتقصص « ألف ليلة وليلة » ، هناك الرُبُط التى تشيع فيها الزهادة والقداسة ؛ وإلى جانب الأسواق الضاحية بمشاغل المادة وشئون الدنيا ، كانت للمساجد والمتكئبلت العامة بمثابة معابد للفكر الرفيع . وفى ساحة السوق — حيث ضجيج الأهمال وعقد الصفقات ، واختلاط الأجناس الوافدة من شتى الأصقاع ، وأسباب الترف — كان يقوم المسجد الجامع الثانى الذى كان أخير مساجدها حتى لم يكن له فى العراق بأسره نظير . فإذا ما تزود من بالسوق من أنعم السلع المادية أودى إلى المسجد فطلف على حاقمته : هنا حفة النعورين والنعورين يتخطم فيها الجدال الصارخ حول شاردة من شوارد اللغمة قذف بها فى جمعهم كوفى جاء محملاً بأسلحة أهل بلده ؛

وهناك مجلس الحسن البصرى تسوده رهبة ذلك الزاهد الجليل وهو يلقى مواعظه الضاربة في فيافي الزهد فيستدرء الدمع من مآقي الحاضرين، أو يستحيل إلى مجلس ذكر تتردد فيه الأتكلو اللصافية والأدعية الناضرة، أو تثار فيه مسائل من التوحيد تسرعان ما تُشيع الحرارة في هذا الجو الرقيق . فإذا ما جن الليل وسكن الأحياء ووجست خلال المدينة — شأن الغبراء ذوى النفوس الطَّلعة المغامرة — ترامت إلى مسامك أنعام الله العنيف في نفس الوقت الذى يقرع أذنيك فيه تضرعات المتهجدين المقاتنين . هنا الملاحون يمخرون بزوارقهم الزاهية في مياه تلك القنوات المتشابكة يعرفون ويعربدون ؛ وهناك في زاوية أخرى ترى العابدين سادرين بين المقابر يستاهمون للموت والقبر أفكاراً وموضوعات للتأمل الحزين والعظمة البالغة والعزوف عن الدنيا . هنا أمثال ابن أبي عيينة يقضون الليالى البيض بين أحضان الشهوة الآتمة في إقبال هيف على نغم الحياة^(١) ؛ وهناك أمثال رياح بن عمرو القيسى ممن لا يعرف غير البكاء والتهدج والتضرع والصراخ من أعماق الهاوية إلى الله : تراه دائماً هامئاً بين المقابر ، وفي الليل يضع في عنقه غلاً من حديد ثم يضرع ويبكى حتى الصباح^(٢) : أولها يرتاد منطقة الأبلّة حيث القصور والبساتين والمناظر الأنيقة والبرك الفسيحة المرصوفة وغرائب الملاذ وتحت المتظرفين^(٣) . والآخر لا يرتاح إلا إلى البادية ، أو يتأمل النخيل في الخريف وقد اسودت جميعه بما حط عليه من غربان قواطع ، فكان منظره داعياً إلى التأمل الساجى للبال الكاسف والقلب الهيف .

(١) راجع أشعاره في التشوق إلى لياليه الالهية في البصرة لما أن ارتحل إلى جرجان في ياقوت : « معجم البلدان » ، نشرة فستفد ج ١ ص ٦٥١ .

(٢) راجع : « طبقات الأبرياء » لعبد الرؤوف النواوى ، مخطوطة بالظاهرية برقم ٤١٦٤ عام ١٠٠١ .

(٣) ابن حوقل : « صورة الأرض » ، نشرة كراهرز ، ص ٢٣٦ ، لندن سنة ١٩٣٨ .

فهلثوا معي الآن، أيها السادة، إلى كوخ وضيع ولكنه عامر بالقداسة، تسكنه
عجوز سحلت مريرتها وقد ذرّفت على الثمانين، « كأنها الشن تكاد تسقط »^(١) .
كل ما في البيت قطعة من البوريّ الخلق، ■ ومشجبٌ قصبٍ فارسي طوله
من الأرض قدرُ ذراعين، وستر البيت جُلة؛ وليس فيه من الأدوات إلا حب
وكوز؛ ثم « لبدٌ هو فراشها وهو مُصلاًها ». أما المشجب فلم يكن يحوى شيئاً
من الملابس لأنها لا تكاد تملك منها شيئاً، وإنما كان يحمل أكتافها، فكانت
تستخدم هذا المشجب بما عليه من أكتاف كما تضع أمام عيونها موضوعاً للتأمل
أثناء الذكر العقلي، مثلها مثل القديسة تريزا الأبلية — والصوفية المسيحية
عامة — في استخدامها نموذج المصلب Calvaire فمصلبها هو مشجبها الجلل
بأكتافها. وما أقوى الشبه — كما سنرى — بين هذه الصوفية المسلمة وبين
تلك الصوفية المسيحية ! وإن في الدراسة المقارنة لكليتهما لما يوضح التصوف
الخاص بهما كما يفسر كثيراً من الظواهر الصوفية عامة.

هذه الصوفية المسلمة هي رابعة العدوية التي قضت عمرها منذ توبتها
وهي تحترق بنار الحب الإلهي حتى آلت في آخر حياتها إلى تلك الحال التي وصفنا،
فكانت شهيدة العشق الإلهي حقاً .

وليس لنا، وبالأسف! عن حياتها من الوثائق ما يسمح بتاريخ تطورها الروحي
على نحو مفصل أو شبه مفصل، كما هي الحال بالنسبة إلى القديسة تريزا الأبلية
مثلاً. ولئن كان المؤرخون للتصوف المسيحي يشكون من فقر الوثائق عن الفترة.

(١) ابن الجوزي: « صفة الصوفية »، ج ٤ ص ٥٧ ب، مخطوط بالظاهرة بدمشق.
رقم ٦٧ تاريخ؛ وابن شاكر الكنتي: « عيون التواريخ »، ج ٣ ورقة ٧ ب (عن سنة
١١٣٥) مخطوط بالظاهرة بدمشق برقم ٤٤ تاريخ .

الأولى من حياة القديسة تريزا، مع أن لها ما لها من الترجمة الذاتية والمؤلفات الخاصة التي تشير فيها إلى شواردمن حياتها « فإذا يقول مؤرخ التصوف الإسلامي لآعن الفترة الأولى من سيرة رابعة فحسب ، بل عن حياتها كلها وهو لا يكاد يملك وثيقة واحدة يستطيع الاطمئنان إليها ! وحتى هذه الوثائق المتهمة الضاربة في نطاق الأسطورة ضئيلة تافهة قد اختلط الأمر فيها إلى أبعد حدّ لعدة أسباب أهمها أن لها سميّة أخرى تدعى بنفس الاسم أو على الأقل باسم لا يكاد يفترق عن اسمها إلا بنقطة ، مما كان مثاراً للخلط الفاحش في إيراد أخبارها . وأشهد عن نفسى أنني كنت كلما توغلتُ في دراستها وتكشفت لي المخطوطات عن وثائق جديدة « شعرت بشخصيتها تتراجع إلى كهف الأساطير أو تتحلل أخبارها بين يديّ حتى كدت أياس نهائياً من الظفر بشيء عن حياتها وأقوالها يمكن المؤرخ المتثبت أن يقرره وهو مطمئن الضمير . فكل ما يروى عنها ينساب كالماء بين فروج أنامل الباحث الذي يريد أن يتخذ منهجاً نقدياً سليماً في البحث العلمى . على أنى قد حاولت جهدى مع ذلك أن أميز في الوثائق نفسها بين ما ينسب إليها وما ينسب إلى رابعة الأخرى « معتمداً هنا على تمييز الأسانيد في سلسلة الرواة من ناحية ، وعلى التخلفات التاريخيّة anachronismes الصارخة من ناحية أخرى .

فإنحاول هنا — معتمدين على هذا المنهج — أن تقدم صورة إجمالية عن تطورها الروحى .

لا نكاد نعلم — وفقاً لما بين أيدينا من وثائق — عن حياة رابعة الأولى ونشأتها إلا ما رواه فريد الدين العطار « فى تذكرة الأولياء » (١) . والعطار

(١) نيفرة نيكولسون « ج ١ ص ٥٩ — ص ٦١ ، لندن ولندن سنة ١٩٠٥ — سنة ١٩٠٧ . وراجع ترجمة ياقبه دى كورتى عن الترجمة الأيوبيورية ، ص ٥٤ وما يليها ، باريس سنة ١٨٨٩ A. Pavet de Courteille : Le Mémorial des Saints

رجل جامع الخيال لا يمكن أن يُطمأن إلى أقواله إلا بعد أن تتأيد عن طريق المصادر الأخرى . ومما يؤسف له أن المصادر التي عثرنا عليها حتى الآن لم تُشر إلى هذه الفترة من حياتها . لكننا لا نستطيع مع ذلك أن نرفض ما قاله العطار في هذا الصدد جملةً ، لأن الوثائق الجديدة التي تتكشف لنا يوماً بعد يوم تؤيد كثيراً من الروايات التي أوردها العطار وكنا نظن أنه وحده الذي آتى بها . وهذا يحملنا على الاقتصاد في اتهام أقواله ؛ فلعل وثائق جديدة أن تؤيد رواياته التي لا نجدها حتى الآن في المصادر الأخرى . فمن الإسراف الظالم في التشكك والتقد أن نفترض أنها من اختراعه . وإنما نقدمها حذرين ونسوقها على أنها لا تزال بمعزل عن التأييد الكافي .

على أن رواية العطار عن طفولتها وتنشئتها والفترة إلى ما قبل توبتها يمكن أن تقبل في عين المؤرخ إذا ما اطرحنا منها جانب الخوارق والكرامات . فهو يقول إنها حين ولدت ، ولدت في بيت فقير كل الفقر ، فلم يكن لدى أبويها قطرة سمن حتى يذوّبونها موضع خلاصها ، ولم يكن ثمت مصباح ولا خرق لف الوليد . فدعته زوجته إلى الذهاب إلى الجيران للحصول على زيت لإضاءة القنديل . وإرضاء لزوجه — على الرغم من أنه عاهد الله على ألا يطلب من عبد من عباد الله شيئاً — ذهب وطرق باب الجيران فلم يفتح له . فأنبأها بما حدث فبكت . هنالك أطرق على ركبتيه ونام ، فرأى النبي فقال له النبي : لا تحزن ! فهذه البنت الوليدة سيدة جليلة القدر ، وإن سبعين ألفاً من أمي ايرجون شفاعتها ؛ ثم أمره بالذهاب صبيحة الغد إلى عيسى زاذان أمير البصرة . ويكتب له ورقة يقول فيها إن النبي زاره في المنام وقال له أن يتوجه إليه ويقول : إنك تصلى مائة ركعة . وفي ليلة الجمعة أربعاء ، لكنك في يوم الجمعة الأخير نسيتني . ألا فتدفع أربعاً دينار حلال لهذا الشخص (والد رابعة) كفارة عن هذا النسيان . « فلما أفاق

والد رابعة من نومه كتب الرسالة التي أمر بكتابتها ودفعها عن طريق الحاجب إلى الأمير؛ فلما قرأها الأمير أمر بإعطائه أربعائة دينار؛ وقال لهم: انتوني به لأراه. ثم راجع نفسه وقال في الحال: لا أرى من الموافق أن يأتى إلى، بل سأذهب أنا بنفسى إليه، وأمسح بلحيتى على أعتابه، وأسمى لأحصل على كل ما تشهيه هذه البنت الجليلة.

تلك رواية العطار عن مولدها. والشىء الوحيد الذى يمكن المؤرخ أن يثق به فيها هو أن رابعة نشأت فى بيت فقير كل الفقر. ونحن نعلم من المصادر الأخرى أنها مولاة آل عتيك^(١)، وآل عتيك بطن من بطون قيس؛ ولهذا أطلق عليها الجاحظ^(٢). وهو أقدم مصادرنا عنها، اسم رابعة القيسية. ومن آل عتيك بنو عدوة ولهذا تسمى أيضاً رابعة العدوية^(٣). أما كنيته فهى أم الخير. وهنا تبدى أماننا

(١) ابن خلكان « وفيات الأعيان » ج ١ ص ٢٥٦ . القاهرة سنة ١٢٧٥ هـ = ١٨٥٨ م؛ ابن تفرى بردى ، « التجوم الزاهرة » ج ١ ص ٣٣ . طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٩ .

(٢) « البيان والتبيين » ج ٣ ص ٨٥ . القاهرة سنة ١٣٣٢ هـ؛ « الحيوان » ، ج ١ ، ص ٧٨ ، القاهرة سنة ١٩٠٧ .

(٣) عتيك هو بطن من الأزد ، وهو عتيك بن النضر بن الأزد بن الفوث بن بنت صالک ابن كهلان بن عامر بن شالح بن ارغشيد بن سام بن نوح . والمشهور بالانتساب إليها أبو أسماء سلمة بن منيب العتكي من أهل مرو ، ويروى عن سيف بن سبيعة عن ابن عمر ، روى عنه الفضل بن موسى الشيبانى وأبو بسطام شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي — مولى بى عتيك من أهل واسط ، سكن البصرة ، يروى عن قتادة وأبى إسحق . روى عنه الثورى وجماد بن سامة والصريون . كان مولده سنة ٨٣ بهريان — قرية أسفل من واسط — ومات سنة ستين ومائة فى أولها ... وعباس بن ستان العتكي الصيرفى من أهل البصرة يروى عن أبى نصره وأبى الحلال ... وأبو الليث عميد الله بن عبد الله العتكي من أهل مرو ... والمشهور من المنتسبين إلى هؤلاء يوسف بن عبد العتكي مولى يزيد بن المهلب من أهل البصرة راجع (« الأنساب » للسمعانى . نشرة مروجولوث ، لندن سنة ١٩١٢ ورقم ٣٨٣ ب - ح ١٣٨٤) .

ويمكن أن نفترض من هذا أن آل عتيك كانوا فى مرو ، ومن ثم انتقلوا إلى البصرة . ثم ومواليهم . فهل تكون رابعة أصلها من مرو ؟ لا بد حينئذ أن نفترض أنها من أصل إيرانى . وقد يؤيد هذا اشتغالها بالزحف على الناي . وهى حرقه كادت تقتصر ممارستها على الفرس .

مشاكل عدة خاصة بهذا الولاء : فهل كان ولاؤها لآل عتيك لما أن أسرت في صفرها وهي تهيم على وجهها وببعت كما يحدثنا العطار ؟ أم كان الولاء من جانب أبيها وأسرتها ؟ نرجح أن يكون الولاء من جانب أسرتها ، لأن نسبتها بالولاء إلى قيس ترد في نسبها ونسب أبيها . ومشكلة أخرى : متى تم تحريرها ؟ أمن ذلك السيد الذي تحدث عنه العطار وسنذكره عما قليل . أم تم بالنسبة إلى أبيها من قبل وبقيت النسبة في الاسم محسب ؟ نرجح أيضاً الرأي الثاني لأن العطار نفسه لا يذكر أن أباهما كان عبداً . ومشكلة ثالثة هي أصل أسرتها : أكان أبوها فارسياً أم من عنصر آخر ؟ ومتى أسلم ؟ وعلى أية ديانة كان قبل إسلامه ؟ ألا يكون في الأصل مسيحياً وأسلم ، أم الذي أسلم هو رابعة بعد أن عانت الرق ؟ أسئلة يمكن أن تثار وتتوارد على الخاطر دون أن يجد لها حلاًّ وعنهما جواباً ؛ وإنها لعلی أخطر درجة من الأهمية بالنسبة إلى الباحث ، لأنها تتصل بمشكلة بالغة الخطورة . هي مشكلة نشأة التصوف الإسلامي لأن رابعة تنتسب إلى الجيل الأول من الصوفية المسلمين الحقيقيين الذين أشاعوا في التصوف روحاً جديدة كل الجدة على التطور العام للحياة الروحية في الإسلام . والنفمة الجديدة التي أدخلتها رابعة في التصوف الإسلامي من العسير ألا نفترض فيها أصولاً سابقة صدرت عنها ، أصولاً كانت على شعور بها أولم تكن ، سواء ؛ فالشعور واللاشعور هاهنا يتساويان في إحداث الأثر . ونعني بهذه النفمة فكرة الحب الإلهي بمعناه الكامل الذي ينطوي على كل معاني الحب الشهوانى متسامياً إلى موضوع غير حسى . فالاختلاف هنا في الموضوع لا في العاطفة والطريقة . ولسنا نعلم في الروحية الفارسية قبيل الإسلام بوجود مثل هذه النفمة ، ولهذا فنحن أميل إلى استبعاد العنصر الفارسي في المذهب الروحي الذي كانت تدين به أسرتها قبل إسلامها : فإذا كان لا بد من تلمس مصدر للتأثير الواعى أو اللاواعى ، فيجب أن يتجه البحث خصوصاً إلى التأثير

المسيحي لأنه تنلب عليه هذه الفكرة « فكرة المحبة الإلهية . على أن هذا مجرد افتراض مُزججه دون توكيد على أى وجه، أولاً لأننا نجمل كل شئ عن ديانته أسرتها . وثانياً لأن البحث — حتى فى المدى الذى وصل إليه التصوف المسيحي فى تلك المنطقة — لا يزال بعيداً عن أن يسمدنا فى إيضاح هذه النواحي الموغلة فى الغموض . ولنا عودٌ إلى هذه المسألة بعد حين .

أما أبوها فيذكر ابن خلكان^(١) أن اسمه إسماعيل، وعليه جرى الزبيدي^(٢) . أما المناوى^(٣) فلا يذكره ويكتفى بنعتها بالقيسية ؛ ولكنه يذكر بعدها رابعة بهذا الاسم : « رابعة بنت إسماعيل العدوية » وهى رابعة الأخرى أو رابعة التى اختلطت بها ؛ وكذلك فعل الشعراى^(٤) : ميزين « رابعة العدوية » و « رابعة بنت إسماعيل » ؛ وبقية المصادر تغفل ذكر اسم أبيها ، مثل العطار وابن الجوزى ؛ أو تنقل ما أورده ابن خلكان^(٥) . فإذا كان لنا أن نستخلص شيئاً من هذا فهو أن كون أبيها اسمه إسماعيل أمر مشكوك فيه كل الشك؛ ونرجح كل الترجيح أن يكون قد اختلط الأمر على ابن خلكان فى هذا الموضوع كما اختلط عليه فى مواضع أخرى سنفصلها بعد حين ، فمزج بين رابعة العدوية أو القيسية وبين رابعة زوج أحمد بن أبى الخوارى . وهذا هو السر فى أن المصادر الأقدم مثل ابن الجوزى لم تذكره . ومعنى هذا إذن أن اسم أبيها لا يزال لدينا مجهولاً ، مما له أثره فى الجواب أيضاً عن الأسئلة التى أثارناها منذ حين ، وبخاصة ما يتصل بديانة أسرتها .

(١) الموضوع نفسه . (٢) « تحاف السادة المتقين » ، ج ٩ ص ٥٧٦ ، ص ٦٨١ .

(٣) « طبقات الأولياء » ، مخطوط الظاهرية رقم ٤١٦٤ ص ١١٠٤ ، ص ١٠٦ .

(عن رابعة بنت إسماعيل العدوية) .

(٤) « الطبقات الكبرى » ، ج ١ ص ٨٦ ، القاهرة .

(٥) مثل ابن شاكر الكتبي فى « عيون التواريخ » ص ٥٧ (مخطوط الظاهرية رقم .

٤٤ تاريخ) .

ولدت رابعة إذن في أسرة فقيرة كانت تدين بالولاء لآل عتيك من بني قيس
لهذا كان أمرُ نَشْتِهَا؟ يقول لنا العطار إنها لما كبرت وتوفى والدها وهي لا تزال
في ريعان الصبا حدث في البصرة قحط، فتفرقت وأخواتها الثلاث يهن على
وجوههن. فرآها ظالمٌ أمَّرها وباعها بستة دراهم لرجل أثقل عليها العمل.

وهنا يذكر لنا العطار كيف هبطت عليها رسالتها الروحية. فيقول إنها كانت
تسير ذات يوم فشاهدت رجلاً غريباً ظلَّ يرميها بنظره مضمراً لها الشر، فهربت
وسارت في طريق دمشقها هي الأخرى، ثم ارتمت على التراب وظلت تناجي ربها:
« إلهي! أنا غريبة يتيمة، أُرْسَف في قيود الرق، لكن غمِّي الكبير هو أن أعرف:
أراض أنت غمِّي أم غير راضٍ؟ » فسمعت صوتاً يقول: « لا تحزني! ففي يوم الحساب
يتطلع المقرَّبون في السماء إليك ويحسدونك على ما ستكونين فيه ». فلما سمعت
هذا الصوت عادت إلى بيت سيدها، وصارت تصوم وتخدم سيدها وتصلي لربها
متهجدة طوال الليل.

تلك هي الفترة الحاسمة في حياة رابعة وفقاً لهذه الرواية. فلو أخذنا بها لقلنا
إن الانصراف إلى الزهد وابتداء الرسالة الروحية إنما هيأ له ما كانت تعانيه في رقبها
وما احتملته إبان ذلك من آلام وذل ومهانة. فلم تجد خلاصاً أو بالأحرى عزاء لها
عن تلك الحال إلا في الإيمان والثقة بالله والتعزى بالآخرة عما تلقاه في الدنيا.
وهي ظاهرة طالما حدثت في النفوس النبيلة التي قضى عليها بالعبودية. نراها
في الجيل الأول للمسيحية ونراها كذلك عند الرعيل الأول في الإسلام لدى
بلال بن رباح وصهيب الرومي وسلمان الفارسي. فالنفس النبيلة إن أرغمت الحياة
الخارجية بقرها المادى على العبودية انطوت على نفسها كما تحررها في الباطن؛
وهذا التحرير الباطن لا بد أن يتم في عالم آخر غير العالم المادى الواقعي الذي لا تجد
فيه غير الاستعباد؛ ومن هنا تنصرف إلى تطلُّب الملكوت الأعلى. حتى إذا

استشمرت شيئاً منه انطلقت بحرية تزداد بعمّة كلما ازدادت النفوس ثمة بذاتها ، ولن تقف حتى تبلغ اللانهاية . وإن تفلوتت النفوس في درجة الشعور بها وفقاً لمرتبها في معراج السمو الروحي : فإن كانت ذات مكانٍ عليّ رأيتها هائمة تحلق في سماء الألوهية إلى درجة الاتحاد بل الهوية فيما بينها وبين الله ! وإن كانت من تلك النفوس التي لم تسعدها الثقافة الروحية الرفيعة ، اعتصمت بالتوكل المذعن والرضا الساجي الذي يطوّف أحياناً بجنيات الملكوت أو يزوّب بصره إلى أعتاب الحضرة عند حفاف العرش الجيد . فمن النوع الأول سلمان الفارسي ، تلك النفس الهائمة في منطقة الألوهية المستورة . ومن هنا كان تأويل الشيعة لدور سلمان خير فهمٍ لحقيقته وإن تبدي لنا علي أنه من تهاويل الغنوص الشيعي^(١) . ومن النوع الثاني بلال بن رباح مؤذن الرسول ، الذي يجب أن يدرس علي ضوء هذه الظاهرة ، ويفسر تماقه بالأذان علي أنه وجد فيه نوعاً من الخطاب المباشر لله . فكان أذانه بمثابة ذكر للتواجد . يشيع في نفسه تلك الجذبة الروحية التي تأتي به بين أحضان الألوهية ، وكان ارتقاؤه المتدنة — مهما يبلغ طولها — مثار شعور بالعلاء في معراج السلوك إلى الحضرة .

إن الذات النبيلة المبتارة إذا لم تجد مخرجاً لممكناتها في الخارج ، في العالم ، بين الأشياء الظاهرة ، انفجر باطنها الزاخر بالممكنات فاستحل عالماً آخر سرعان ما يصبح عند صاحبه كأنه العلم الحقيقي الوحيد وتكل شيء خلاه بالجل . واتصاره الأكبر إنما يتم نهائياً بالتضاء على الوجود — في — للعالم ، على العالم ذي الأدوات — على التبرية ولاجروى ، على هذه المعنات التي تقف في سبيل النمو الكامل للممكنات غير المتحققة . والطريق إلى هذا يتفاوت بين النفوس النبيلة بعضها بعضاً وفقاً

(١) راجع بحث ماسينيون عن « سلمان الفارسي » في كتابنا « شخصيات قلقة في الإسلام » ص ٣٢ — من ٤٢ . القاهرة سنة ١٩٤٦ .

لمزاجها الروحي الخاص . فالذين كانوا يريدون أن يظفروا بالدينا ، بالوجود - في - العالم عن طريق السلطة والقهر يسلكون إلى الأوهية أيضاً « طريق القهر » ، بأنواع التعذيب والزهادة القاسية ؛ والذين كانوا يبتغون الظفر عن طريق الحب ، والتأثير الشخصي بالجازبية التي للشخصية الممتازة ، يتخذون إلى الرب « طريق الحب » . ورابعة العدوية ، وهي المرأة ، هل لها أن تسلك غير السبيل الثانية ؟ ! لهذا سنهاها تتخذ طريق الحب للاستيلاء على الأوهية ، بعد أن لم تفلح في الوصول عن طريق الحب في الدنيا إلى الاستيلاء على الناسوتية .

ففي هذه النادرة التي رواها العطار ما يكشف لنا عن طريق دمشق لدى رابعة . ومعناها أنها أفكرت في طريق الخلاص فوجدته في الانكاف على باطنها ؛ لكنها كانت في حاجة إلى صوت يقويها ويشد أزرها فيؤكد لها أن تلك الطريق التي ستسلكها ستفضي بها إلى غايتها الجديدة المنشودة وهي الخلاص عن طريق الحب للأوهية حتى تظفر بالحضرة فيها . فليس بعجب في واقع الأحوال النفسية لأمثال هؤلاء أن يخيّل إليهم أن طائفاً رحمانياً قد طاف بنفوسهم ، وهي في الصراع مع أحوالها في العالم للظفر بالنجاة ، فشد أزرها ومناهم ببحر المنقلب وعظم الغاية ونبل النهاية . فهذا يحدث لكل منا في أبسط أحوال مهامه ومشاغله ، فما بالك ونحن بإزاء المهم الأكبر في حياة الشخص ؟ ! فتلاميذ عمّاس ، وطريق دمشق عند القديس بولس ، ورويا أوستيا عند القديس أوغسطين ، ووحى دأف لدى سقراط ، ووحى حرّاء عند النبي محمد - كلها أمور لا تتأني على منهج البحث النفساني العلى إذا ما فهمت على أنها أحوال يعنى الكلام النفسي الصادر عن ازدواج النفس حيناً قبل غيرها المهمات .

هذه اللحظة في حياة رابعة يجب أن تعد نقطة التطور الحاسمة في حياتها الروحية ، شأنها شأن تلك الأحوال التي أتينا على ذكرها عند أضرابها من كبار

الشخصيات الروحية في العالم . لكنها لاتزال في الأسر المادى لدى ذلك السيد القاسى الذى أرقها وأعتها فكان لهذا الإرهاق والإعنت فضل انفجار روحها الباطنة النبيلة . فكيف تنجو من هذا الأسر ؟

هنا يلجأ المطار مرة أخرى إلى الخوارق ؛ فيزعم أن سيدها استيقظ ذات ليلة ، ونظر من خوذة أو خصاص في الباب ، فرأى رابعة ساجدة تصلى وتقول « إلهى ! أنت تعلم أن قلبى يتمنى طاعتك ، ونور عيني فى خدمة عبتك ؛ ولو كان الأمر بيدي لما انقطعت لحظة عن خدمتك ، لكنك تركتني تحت رحمة هذا المخلوق القاسى من عبديتك » . وخلال دعائها وصلاتها شاهد قنديلاً فوق رأسها يخلق وهو بسلسلة غير معلق ، وله ضياء يملأ البيت كله . فلما أبصر هذا النور العجيب فرغ وهض من مكانه وظل ساهداً مفكراً حتى طلع النهار . هنالك دعا رابعة وقال : « أى رابعة ! وهبتك الحرية . فإن شئت بقيت هنا ونحن جميعاً فى خدمتك ؛ وإن شئت رحلت أنى رغبت ا » ما أجملها فرصة إذن بالنسبة إلى رابعة ! فما كان منها إلا أن ودعته وأرتحلت ، ثم انقطعت للعبادة والتقوى .

نلك أسطورة تحريرها من الرق ؛ ولن يستطيع المؤرخ إلا أن ينعها بنعت الأسطورة ؛ والشئ الوحيد الذى يمكن أن نأخذ به منها هو أن رابعة أعتقت ؛ أما كيف ؟ ولماذا ؟ فهذا مالا تستطيع الوثائق التى بين أيدينا أن تضىفى النور عليه ؛ فلندعه نقطة غامضة إلى جانب النقط الغامضة التى لا حصر لها فى حياة رابعة .

ثم من كان هذا السيد ؟ أكان من آل عتيك ، ما دامت رابعة تسمى مولاة آل عتيك ؟ هذا أيضاً مما لا نستطيع الإدلاء فيه برأى قاطع بآلة راجح . صارت رابعة إذن حرة ؛ فلها أن تسلك سبيلها فى الحياة أنى شاءت . وهنا نلقى رواية لم يذكرها غير المطار « راوينا الوحيد عن تلك الفترة ، وهى تقول

إثارة تخطت مهنة العزف على الناي^(١) زمنًا ما ، ثم ثابت من بعد ذلك وأصلحت وابتنت لنفسها خلة انقطعت فيها العبادة .

هذه الرواية التي ذكرها العطار ومرة بهامراً سريعاً لأنها لا تتفق مع الصورة الخيالية التي يريد أن يرسمها لرابعة وهو الشاعر الجامع الخيال ، نريد نحن أن نقف عندها مَلِيًّا لما لها من أهمية خاصة . ونحن نقطع بصحتها لأنه ما كان للعطار أو غيره أن يذكرها لو لم تكن صحيحة ، لأنها ليست مما يشرف به قدرها ؛ وهو وغيره من رواة أخبار الصالحين كانوا حريصين كل الحرص على أن يزوتوا ما استطاعوا في ترجماتهم لحياة أولئك الصالحين .

فنحن نفترض ما يلي : أن رابعة لما أعتقت اندفعت بفضل الحزبة التي وهبتها إلي المشاركة في حياة الدنيا ؛ ومثل هذه الفترة من حياتها مثل تلك الفترة التي أمضتها القديسة تريزا الآبلية منذ أن غادرت دير التجسد في آبله إلى سنة ١٥٥٥ حين بدأت حياتها الثانية . فانطلقت رابعة تسعى لرزقها فلم تجد غير حرفة العزف على الناي والإطراب . وهذا يجعلنا نفترض أنها كانت على حظ من الجمال . ولعل هذا أن يفسر لنا ما روى من أخبار — لعلها أسطورية — عن تقدم الكثيرين للاقتان بها . ودعاها إلى اتخاذ هذه المهنة خاصة أنها كانت ذات مزاج فني ممتاز بحكم طبيعتها الروحية العالية ، فلم تجد في غير الفن مجالاً للظهور في الدنيا والمشاركة في الحياة . والمشاهد عامة في حياة النسوة اللاتي وهبن قدراً من سمو الروح أنهن يحترفن الفن إذا ما قضى عليهن بتلس أسباب الرزق بوسائلهن الخاصة . ويحتمل كذلك أنها إبان هذه الحياة الفنية بما تقتضيه من ملابسات قد اندفعت في طريق الشهوات إلى مدى بعيد . فهذه المهنة في ذلك العصر كان من غير الممكن

(١) « وكرومي كونددر مطرب افتاد » (العطار ، « تذكرة الأولياء » ، نشره نيغولسون ، ج ١ ص ٦١)

أن تستقل بنفسها ، ولا أن تكون بمنجاة عن ألوان الإغراء بأنواع الأحابيل التي تنصب لمثيلاتها في هذا المضمار. ويحتملُ إلينا أنها قطعت شوطاً طويلاً في طريق الإيم وغرقت في بحر الشهوات واقتاتت بقوت الحواس حتى الثمالة ، لأنها ثابت من بعد ذلك. فهذه التوبة نفسها هي أصدق دليل لدينا على اندفاعها إلى أبعاد حد في طريق الشهوة . فالأطراف في تماسٍ كما يقولون، والاعتدال لا يمكن مطلقاً أن يؤدي إلى التحول الحاسم conversion. فهذه الانقلابات الروحية الكبرى إنما تقع دائماً نتيجة لعنف وإفراط ومبالغة في الطرف الأول المنقلب عنه . فنصف إيمان القديس بولس كان نتيجة لعنف إنكاره للمسيحية ، وعنف الحياة التقيّة لدى القديس أوغسطين كان لازماً طبيعياً لعنف الحياة الشهوانية الحسية التي حياها قبل تحوله إلى الإيمان. إن الاعتدال من شأن الضعفاء والتافهين ، أما التطرف فمن شيمة الممتازين الذين يبدعون ويخلفون التاريخ . وما كان يمكن رابعة أن تتطرف في إيمانها وحبها لله إلا إذا كانت قد تطرفت من قبل في فجورها وحبها للدنيا. من أعماق الشهوة العنيفة تنبثق الشرارة المقدسة للطهارة ، ومن عمائق الإنكار والتجديف تنطلق الموجة التي تنشر الإيمان في الدنيا بأسرها . لهذا أدعو إلى التطرف المطلق كل من يريد أن يكون خالقا للقيم .

أوغلت رابعة إذن في طريق الشهوة الجامحة ما وسعها الإيفال . ثم ثابت . فكيف ثابت ، وماذا دعاها إلى تغيير طريقها ؟

قانا إن رابعة قبيل إعتاقها قد استشعرت رسالتها الروحية وهي تحت أعباء الرق المهين . لكنها نسيتها لما أن انطلقت إلى الدنيا الواسعة . لهذا نستطيع أن نفترض أنها إبّان انتهاجها للذات كانت بين الحين والحين تخلو إلى نفسها وتذكّر تلك الرسالة التي ألهمتها . فكان يطوف بها إذاً بين الفينة والفينة طائف من التائب والتذكير بالطريق السوي . وهذه الفينات خصوصاً هي تلك التي تشعر (م — شهيدة)

فيها إما باليأس من عاطفة اندفعت فيها نحو شخص ثم خاب رجاؤها فيه ؛ وإما بأنها قد اندفعت في طريق الإثم إلى حد بالغ الإفراط . فلا شك في أن هذه التنبيهات المتوالية قد آثرت في منطقة اللاشعور لديها . لكننا لا نستطيع أن نقول إنها كانت كافية لإحداث الانقلاب الروحي . وقضارى أمرها أن تكون حالها تلك التي وصفتها القديسة تريزا الأبلية إبان محنة صراع الدنيا والدين في داخل نفسها ، فقالت : «من ناحية كان الله يدعوني، ومن أخرى كنت أشارك في الدنيا. أجل! لقد كنت أجد في الأمور الإلهية نعيماً كبيراً، بيد أن قيود الدنيا كانت لا تزال تأخذ بمُخَنَّتِي ، حتى ليبدو لي أني قد أردت أن أحالف بين هذين الضدين برغم ما بينهما من عداوة : الحياة الروحية بتنعّماتها ، وحياة الحواس بشهواتها^(١) » .

وثمة عوامل أخرى يمكن إدخالها في تقديرنا : منها إمكان غشيانها بمجالس الوعاظ في مساجد البصرة ، وبخاصة مجلس الحسن البصري ، فضلاً عما عاها أن تكون لقيته، حتى إبان عملها ، من صوفية وزهاد. وهنا تتجاسر على الإدلاء بفرض لا ندري بعد مبلغ الصحة فيه، وهو أن تكون قد التقت يوماً برياح بن عمرو القيسي الصوفي الكبير ؛ ولعله أن يكون قد توّسم فيها ميلاً إلى الحياة الطاهرة ، فحملها على أطراح حياتها اللاهية ؛ ولعل في هذا ما قد يفسر الصلة القوية التي قامت بين كليهما . فقد يكون العطف قد أخذه عليها ، فتمنى لها—وهو صاحب الطبيعة الممتازة—أن تسلك السبيل الذي سلكه هو . ولئن كانت للمصادر لا يتحدثنا عن وقوع هذا الحادث بالذات ، فإنها تشير إلى صلاتهما الوثيقة إلى أبعد حد : كانوا يقضيان الليل معاً في بيتها انقطاعاً للتمجّد والعبادة . ومثل هذه الأحداث كثيراً

(١) القديسة تريزا الأبلية : « حياة » ص ٦٨ ، ترجمة فرنسية ، باريس ، ليكوفر سنة ١٩٠٤ Ste Thérèse, Vie (trad. Bouix)

ها تقع في حياتنا : فذو النفس النبيلة إذا ما توسم في إحدى بنات الهوى روحاً سامية سرعان ما يفكر في إنقاذها مما هي فيه . فمن يدرى ؟! لعل هذا هو ما وقع بين رياح بن عمرو القيسي وصاحبتنا رابعة .

على أن هذا كذلك ليس كافياً في تفسير الانقلاب الروحي عندها ، على الرغم من قوة هذه العوامل . بل لا بد أن يكون قد واكب هذا كله تجربة يائسة من دنيا الناس . ولا بد أن نفترض هنا خصوصاً تجربة حبٍ مخفق يستشرف إلى سراب زواج أو ما إليه . فذكريات الماضي الداعي إلى التقوى والمواعظ مهما يبلغ تأثيرها عن طريق المثل الحى الصديق لا تكف لتفسير ما حدث لديها . فلانماض إذن من افتراض هذا العامل الثالث الحاسم .

فهذه الأسباب الثلاثة مجتمعةً إذن هي التي أدت إلى الانقلاب الحاسم ، بأن عادت إلى نفسها تستلهمها الطريق الذي بدأته ثم تركته لما أن استشعرت نعم الحرية في الدنيا . وإذا بها عما قليل أسيرة شهوات مدمرة وفريسة خبيات أمل تكسرت على روحها العالية فأشاعت قنوطاً لا يبلغ مداه التعبير . هنالك أحست بأن الحرية التي نشدتها ليست في الانطلاق بين ملاذ الدنيا ، فهذه عبودية لعلها أعنف وأشد إرهاباً من تلك التي كانت فيها . ولعلها سمعت آنذاك قول معاصرها الأكبر منها — وقد كانت قداسته تملأ الدنيا في ذلك الحين — ألا وهو إبراهيم بن أدهم لما أن قال : « الحر من خرج عن الدنيا قبل أن يخرج منها ^(١) » . فالحرية هي « في اصطلاح أهل الحقيقة ، الخروج عن رق الكائنات وفرادتها وقطع جميع العلاقات ... وعلامة الحر سقوط التمييز عن قلبه بين أمور الدنيا والآخرة » فلا يسترقه عاجل دنياه ولا آجل عقباه ^(١) . نقول : لعل رابعة بتأثير هذا كله قد

(١) أحمد ضياء الدين الكشغاني : « جامع الأصول في الأولياء وأنواعهم » ، ص ٢٢٠ .

أفكرت في الحرية الموهومة التي اندفعت فيها ، وما كانت إلا أسراً جديداً لمن له مثل روحها ، أسراً أشد هولاً وقسوة . فلا بد أنها ضاقت ذرعاً بتلك العبودية الجديدة وراحت تتلمس سبيل الخلاص نحو الحرية المنشودة « الحرية الحقيقية التي تخرجها نهائياً عن رق الكائنات .

وتلك هي السنة الحاسمة النهائية في حياتها ؛ فعندها يتحول الطريق فيتخذ الاتجاه الكامل المضاد . ومثل هذه اللحظات مليئة بألوان القلق والعذاب ؛ إنها الليالي الظلماء الحقيقية في تلك النفوس الكبيرة . فكأني من عودات وتقلبات وترجحات تتوالى فيها ، أحياناً بسرعة البرق الخاطف ! فكانت تتذبذب بين العود إلى الشرارة المقدسة التي أضاعت فترة قليلة « وبين الاستمرار في هذه الحياة اللاهية الناعمة . ولا بد أن يكون التوتر قد كان في نفسها شديداً كل الشدة في ذلك الحين : لأن الحياة في مدينة البصرة كما عرضناها في أول هذا الحديث كانت تجمع بين الطرفين المتباعدين إلى حد هائل : النعيم الصارخ البالغ أوج الشهوات « والزهد القائم القاسي المفقر خذّه بالتراب ؛ الفرحة الزاهية تملأ جوانب الأحياء اللاهية « والحزن الباكي الدامي بين أشباح المقابر . فلم يكن الانتقال إذاً يسيراً بين الطرفين ، إذ لا مجال للانزلاق الطبيعي اليسور بين الواحد والآخر ؛ بل كان لا بد من حدوث انقلاب مفاجيء سريع يعود فيه الوجود الذاتي على وجوده الأصيل فيمتزج نفسه بكل قسوة من السقوط — في — العالم .

فارتدت رابعة إلى نقطة ابتداء خدفتها ، ولسان حالها يقول :

تركت هوى ليل وسعدى بمعزل وعُدتُ إلى مصحوب أوّل منزل

ونادت بي الأشواق : مهلاً ! فهذه منازل من تهوى رؤيدك فانزل

هنا حدثت للتوبة . والتوبة عند رابعة لا تتم بالجهود بقدر ما تتم بالفضل

من الله . روى القشيري^(١) : « قال رجل لرابعة : إني قد أكرت من الذنوب والمعاصي ؛ فلو تبت ، هل يتوب علي ؟ فقالت : لا ، بل لو تاب عليك كتبت . »
 فهي كانت لا تثق في قدرتها على الظفر بالتوبة لمجرد استغفارها وإقلاعها عن ذنوبها ، بل كان لابد لها من رضا الله : فهو وحده الذي يتوب على الناس المخطئين ؛ فلو لم يتب ، لم تتحقق لديهم التوبة . وهي نظرية نجد لها نظائر عدة في التصوف المسيحي ، خصوصاً في كل ما يتصل بفكرة فضل الله *la grâce divine* .
 ومن هنا يظهر الجانب السلبي القابل في كل طبيعتها ، مما ستره ظاهراً لديها بكل وضوح . ومن شأن هذا الطابع السلبي أن يزيد من قلقها على نتائج أعمالها . فهي لا تدرى مطلقاً ما إذا كانت توبتها مقبولة عند الله أو غير مقبولة . لأن التوبة ليست فعلاً أَوْحالاً تحصله بنفسها ، بل توهبه هبةً . وبهذا نفس أقوالها التي تدور حول هذا المعنى ، مثل قولها : « أستغفر الله من قلة صدق في قولي : أستغفر الله^(٢) » ،
 وأقولها مرة أخرى : « استغفارنا يحتاج إلى استغفار لعدم الصدق فيه^(٣) » . ففي القول الأول تعبير عن شدة قلقها — وقد أُرْهِقَتْ حَسَاسَتُهَا في شعورها بالخيطية — على ما سيكون مآل استغفارها . وفي القول الثاني تؤكد لهذا المعنى مع ذكر الجانب الإيجابي وهو الاستمرار في الاستغفار دائماً ، لأن التوبة ليست حالة ثبات يمكن بلوغها مرة واحدة . بل هي في حركة مستمرة ولن يستطيع المرء أن يبلغها طالما كان حياً . وفي هذا يدخل جانب حركي يجعل أحوالها الصوفية في سورة دأمة :

(١) « الرسالة القشيرية » ، باب التوبة ، ص ٤٨ القاهرة سنة ١٣٣٠ هـ = سنة ١٩١٢ م .

(٢) أبو بكر محمد بن إسحاق السكلاباذي (المتوفى سنة ٣٨٠ هـ = سنة ٩٩٠ م) :

« التعرف لمذهب أهل التصوف » ص ٦٤ ، نشرة آربري ، القاهرة سنة ١٣٥٢ هـ = ١٩٣٣ م .

(٣) عبد الرؤوف المناوي : « طبقات الصوفية » ، مخطوط رقم ٤١٦٤ بالظاهرية بدمشق

ورقة ١٠٤ ب ، وقد أورده ابن الجوزي من قبل في « صفة الصفوة » ص ٤ ورقة ٥٧ ب

مخطوط الظاهرية برقم ٦٧ تاريخ . كما أورده ابن شاكر الكتبي في « عيون التواريخ » ج ٣

مخطوطة الظاهرية رقم ٤٤ تاريخ ، ورقة ٧ ب تحت أخبار سنة ١٣٥ هـ .

وطابع النقص هذا هو الذى يشعرها بالزمانية المتجددة مما يضى على أحوالها طابعاً وجودياً بارزاً . إن التوبة ليست حالة سكونية *statique* ، بل هي حركية قُووية *dynamique* . وهذا يزيدنا وضوحاً في فهم ذلك الجانب السلبي الذى أبرزنا معناه من قبل . فهو لم يقصد به مجرد السلب والقابلية « بقدر ما قصد به أن يكون مدعاة لإشاعة الحركة عن طريق الصيرورة والتجدد لفعل الاستغفار » . وإدخال الزمانية بواسطة فكرة النقص الملازم لهذه الأفعال . وبهذا ننقذ أحوال رابعة من طابع القابلية المطامة *quietisme* كما نفسرها على نحو ديناميكي يمتاز بالحركة والصيرورة .

والصوفي الحق ، الصوفي بالمعنى الوجودي ، هو ذلك الذى يعزف عن الرضا لأنه ينطوى على فكرة سلبية خالصة ، فتراه دائماً في خوفٍ على أعماله . وهذا ما أكدته رابعة مرة أخرى حين « قيل لها : أعلت عملاتين أن يقبل منك ؟ » (ف) قالت : إن كان « نخوفى أن يُردَّ عليّ »^(١) .

ولهذا فتوبة رابعة لم تتم دفعة واحدة ، بل كانت طوال حياتها في توبة مستمرة ؛ فمن التقصير في الفهم إذن أن نعدَّ هذه مرحلة في تطورها الروحي . وكل ما يحق لنا قوله هو التحدث عن ابتداء فعل التوبة « وإلا فحياتها كلها كانت توبة متصلة .

أما كيف بدأت فعل التوبة وعلى أية صورة ، فهذا مالا تتكفل النصوص ببيانه تفصيلاً « لأن من السير تأريخ أقوالها بحيث نسبها إلى هذه الفترة أو تلك . بيد أننا نستطيع معالجة هذا النقص باتخاذ المعيار التالي : وهو درجة حرارة النبرة في شكاتها وتضرعها إلى الله أن يفرلها . والصورة الأولى — وفقاً لهذا المعيار — نجدها في تلك الشكاة التي تفوهت بها رابعة لما أن رآها ذلك الغريب وفرت منه ، فيما حكاها العطار^(٢) وأشرنا إليه من قبل .

(١) المناوى . المرجع نفسه ورقة ١٠٥ .

(٢) « تذكرة الأذلياء » من ٦٠ و ٦١ ، نشرة نيكلسون .

ثم تملو هذه النبرة. وتتخذ صورة من بقايا حياتها التي تريد أن تكفر عنها بعد أن بدأت التوبة. فلو لم تمرّ رابعة بفترة الضلال ، تلك التي انصرفت فيها إلى الدنيا ، وكانت عازقة على الناي تشارك في شهوات الجسد بكل فورتها وعرامتها ، لما رأينا هذه النبرة الجديدة في شكاتها . فالعبارات التي رواها العطار في تلك الصورة الأولى قد خلت من فكرة الحب ؛ ولكن لما أن بدأت التوبة ، كان عليها ، وهي الخارجة من دنيا الشهوات ، أن تدخل عنصر العاطفة الغرامية الحارة . لهذا فنحن نفترض أن عنصر الحب بمضاه الحسى مرفوعاً إلى الألوهية قد أدخلته رابعة في حياتها الروحية نتيجة لفترة الضلال واللهم الآثم التي مرت بها . ومن هنا كان توكيدنا لأهمية تلك الفترة التي مرّ عليها الباحثون مع أنها في نظرنا العامل الأكبر في تكيف النظرة الصوفية عند رابعة . إن لم تكن بمثابة العامل الأوحد .

فمن هذه اللحظة اصطبغت الشكوى إلى الله بصيغة الحب والرغبة في الاتصال بهذا المحبوب الأعلى . ومن الأقوال التي تخلفت لنا عن تلك اللحظة ما رواه صاحب « الروض الفائق في المواعظ والرقائق »^(١) فقال : « حكى عن رابعة العدوية رحمة الله تعالى أنها كانت إذا صامت المشاء قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخارها ثم قالت : « إلهي ! أنارت النجوم » ونامت العيون » وغلقت الملوك أبوابها ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقام بين يديك ! - ثم تُقبل على صلاتها ؛ فإذا كان وقت السحر وطلع الفجر قالت : « إلهي ! هذا الليل قد أدبر ؛ وهذا النهار قد أسفر ؛ فليت شعري ! أقبليت مني ليلتي فأهنا . أم رددتها عليّ فأعزى ؟ فوعزتك هذا دأبي ما أحييتني وأعدتني .

(١) الشيخ الحريفيش « الروض الفائق في المواعظ والرقائق » ، ص ١١٧ ، طبع

وعزَّتْكَ لو طردتني عن بابك ما برحتُ عنه لما وقع في قلبي من محبتك . . .
 وهذا نصٌّ ثمينٌ يَصور لنا دقائق أحوالها في تلك الفترة . ويلاحظ عليه أولاً
 أنه قد صيغ في عبارة بديعة يسرى فيها عرقُ شعري ظاهر، مما كان نتيجة طبيعية
 لاشتغالها بالفن عازفة على الناي . فنحن نظن أن العرق الشعري إنما يَبضُّ عندها
 لما أن اشتغلت بالعرف ، خصوصاً لما يستلزمه من غناء وإنشاد . فالملكة الشعرية
 كانت كامنة فيها ، فلما قضى عليها أن تصبح عازفة انبثقت تلك الملكة ، خصوصاً
 إذا لاحظنا أنه من غير الميسور أن تقتصر على العزف دون الغناء ؛ فروحنا الشرقية
 لم تكن لتستسيع الموسيقى المجردة لما فيها من تعبير عن اللانهاي ، فضلاً عما للكلمة
 في الحضارة العربية من مكانة مقدسة ، لهذا فنحن حتى اليوم لم نستطع في موسيقانا
 أن نجعلها مجردة عن كل صوت إنساني ، وهذه ظاهرة لا تحتاج إلى فضل تأييد .
 لهذا نرجح إذن أن ابتداء قولها الشعر إنما وقع نتيجة لاحترافها العزف على الناي .
 فتدفق منها منذ ذلك الحين ينبوع الشعر . ولهذا نرى هذا النص يروى بعد
 ذلك مباشرة أنها أنشدت :

يا سروري ومُنيتي وعمادي	وأنيسى وعُدتي ومُرادي
أنت روحُ الفؤاد ، أنت رجائي	أنت لي مؤنسٌ ، وشوقك زادي
أنت لولاك ، يا حياتي وأنسى !	ما تشئتُ في فسيح البلاد
كم بدتُ مِنَّةً ، وكم لك عندي	من عطاء ونعمة وأيادي
حبُّك الآنُ بِنيتي ونعيمي	وجلاء لَمَينِ قَلي الصادي
ليس لي عنك - ما حيدتُ - براحٌ	أنت مِنِّي مُمكنٌ في السواد
إن تكن راضياً طَلِيَّ فإني	يا مُنى القلب ! قد بدا إسعادي ^(١)

والطابع الحسي ظاهر بكل جلاء في هذه الأبيات ، ويُلوح منها أن الأمر

(١) الشيخ الحرفيش ■ الروض الفائق ■ ص ١١٧ . طبع القاهرة سنة ١٣٠٤ هـ =

كان لا يزال مختلطاً عليها لأن الخطاب هنا يصلح أن يتجه إلى شخص حتى كما يصلح — بصعوبة — أن يتجه إلى الله . ماذا أقول ! بل هي في هذا الشعر قد تناست أو نسيت أنها تحاطب الله ، فتحدثت عن حبيب لها يلوح أنه كان متنقلاً فاضطرت هي — تحت ستار الترحل لكسب العيش بالعزف ، كما هي الحال بالنسبة إلى الموسيقيين عامة في تجوالهم لإحياء حفلات في مختلف البلدان — أن تلاحقه في الأماكن التي كان ينتقل بينها ، لهذا اضطرت إلى التشتت في فسيح البلاد . فلعل ذكرى هذا الحبيب — الذي يمكن افتراض أنه كان العلة في إحداث خيبة الأمل عندها في الحب والناس — قد اختلطت في ذهنها آنذاك . فعبرت بهذه الكلمات المشبوبة الحسية عن تجربتها معه وإن كان الخطاب موجهاً إلى الله . ذلك أنها لن تستطيع أن تتحدث عن حبها لله إلا إذا صدر ذلك عن تجربة حية عاتها . وتلك كانت تجربتها العنيفة الحية . فحدثت هنا ظاهرة القلب الموضوع . مما يحدث دائماً في أمثال هذه الأحوال . إذا كانت العبارة مخصصة وليست مجرد صياغة لفظية خالية من كل حياة . ولهذا فإذا صادف المؤرخ إخلاصاً في التعبير عند الصوفي ، فيجب عليه دائماً أن يفترض وجوب تجارب حية صدر عنها ، فقلبَ موضوعها من المحسوس الإنساني إلى الكائن الأعلى الإلهي . ويمكن تأريخ ما يدخل في هذا الباب وفقاً لتضاول التعبير الحسي الظاهر وتزايد التعبير المجرد الباطن ، ولهذا فنحن لا نرى مانعاً أولاً من أن يكون هذا الشعر صحيح النسبة إلى رابعة — فليس ثمة استحالة مادية تقف دون هذا ؛ ونرى ثانياً أنه لا بد أن ينسب إلى فترة الانتقال المباشرة بين عهد الضلال وعهد الإنابة والتوبة .

كل هذا من حيث الصورة . والأمر من حيث المادة يؤكد تلك النتائج : فهي تذكر الإطار الغرامي الملائم : هدوء الليل وضياء النجوم ونوم العيون ، لأنها طالما ألقت هذا الإطار الشعري الرائع في أيام غرامها الآثم ؛ وهذا يدلنا على أنها

حديثه عهد به ، وأنها لا تزال تمنح إليه في أعماق نفسها ، ولعالمها تذكرت لياليها
أحمرَ بين مخارف التخيل على ضفاف الأبله ، وقد غفّلت عيونُ الرقباء من الناس
ومن الشرطه خاصة كلابيتين في عبارتها ذات الدلالة السكيرة هذه : « وغلقت
الموكنُ أبوابها » . أى اختفى سلطان الحاكم ، ففي وسعها أن تحتل بحبيبه تساقيه
ما تود من اللذات المحرمة . وتأمل خصوصاً الشوق المتحتم في قولها : « وخلا
كلُّ حبيبٍ بحبيبه ! » فيه قشوريرة قلب طالما نَمِمَ بهذه اللحظات العالية !
أتراها نادمة في قولها هذا ؟ كلا . بل هي قلقة لا تزال موزعة الأهواء بين
الدنيا والآخرة . وحبيبه الجديد لا يزال بمنأى عنها لأن الطريق إليه شاقه طويلة ؛
وها هي ذى تتضرع إليه فتقول : « وهذا مقامى بين يديك ! » أية لوعة في هذه
العبارة النارية ! وأية صورة فائنة تستثيرها في الخيال !

لقد بدأت رابعة تستشعر الحب لله ؛ وإنه لينمو وتواكب مشاعر مختلفة لعل
من بينها ومن أقواها الشعور بأنها نذرت نفسها لهذا الحب الأسمى ، وعماقليل ستمعان
خطبتها إليه ، ولعل ذلك أن يفضى في النهاية إلى الزواج الروحي بينها وبين الله .
إنها لم تبلغ بعد تلك المرحلة من التفكير في الاقتران بالله ؛ ولا بد أن تأتى
حَيُونَة - صديقته الهائمة في أودية العشق الأتمَّ *consommé* - فتنبها إلى هذا
المعنى . ذكر أبو القاسم الحسن بن حبيب النيسابورى ^(١) أن رابعة زارت حَيُونَة ؛
« فلما كان جوف الليل حمل النوم على رابعة ؛ فقامت إليها حَيُونَة فركلتها برجلها
وهي تقول : قومي ! قد جاء عرسُ المهتمدين . يا من زين عرائس الليل بنور التهجُّد ! »
وهذا نص على أكبر درجة من الخطورة لأنه يتحدث عن وجود فكرة
الزواج من الله والاقتران به لدى الصوفيات المسلمات حتى منذ القرن الثانى الهجرى

(١) أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابورى : « عقلاء المجانين » ، نشرة وجيه
الفيكلاننى ، ص ١٢٨ ، دمشق سنة ١٩٢٤ م .

أى الثامن الميلادى ، وهى الفكرة التى لعبت دوراً خطيراً فى التصوف المسيحى ابتداءً من القديسة تريزا الأبلية التى عاشت فى القرن السادس عشر الميلادى ، أى بعد أولئك الصوفيات المسلمات بثمانية قرون. وإذا كنا لا نستطيع أن نتحدث عن تأثير مباشر لهؤلاء الصوفيات المسلمات فى القديسة تريزا ، فإننا نترك هذه المسألة مفتوحة أمام الباحثين .

وندع هذا النص جانباً الآن ، ونعود إلى النص السالف ، فراها بعد أن تقبل على صلاتها حتى مطلع الفجر تسأل الله هل قبل منها ليلتها فتهنأ ، أم ردها عليها فتأسى . وإنها لتعاهد الله على أن تكون راضية بكلتا الحصلتين : فسواء لديها أقبل الله أعمالها أم لم يقبلها ، فستلح وتناضل ، لأنها تجد فى هذا الجهاد النفسى وحده معنى حياتها . ولا عليها إن كُتل بالقبول أو لم يكَلَل . ولذا تقول بعبارة تم عن إخلاص لا حد له فى العبادة : « وعزتك ! لو طردتنى عن بابك ، ما برحتُ عنه ، لما وقع فى قلبى من محبتك » . وهنا يتجلى التواضع عندها بأجلى صورته . وما أبعد الفارق بينها وبين الحلاج مثلاً لما أن قال : « يا أهل الإسلام ! أغيثونى ! فليس (أى الله) يتركنى ونفسى فأنسى بها ، وليس يأخذنى من نفسى فأستريح منها . وهذا دلال لا أطيعه^(١) » . فى هذه النبذة من الأدعاء والكبرياء ما لا يتفق وروح رابعة ، على الأقل فى الفترة التى لا تزال بصدها . فالدلال فى هذه العبارة الحلاجية هو بالأحرى من جانب الحلاج على الله ، أما رابعة فأنه هو الذى يتدلل عليها ، لذا تدعوه وترجوه بكل خشوع وذلل وضراعة . وتلك هى الدرجة العليا فى الصلة بين العبد والرب . فى صلة الحب الحقيقية التى لا تستلزم تبادلًا وإلصارت إلى حال من السكون هو والموت سواء . إنما الحب الحق هو ذلك الذى يتألم فيه أحد الطرفين دون أن ينال شيئاً ، لأنه إذا تم التبادل فسد معنى الحب . وهذا

(١) ماسينيون وكراوس : « أخبار الحلاج » . تحت رقم ٣٨ . باريس سنة ١٩٣٦ -

أمر قد فصلنا القول فيه في موضع^(١) آخر فلا مجال بعد لفضل بيان . ورابعة هنا تريد أن تؤكد هذا المعنى بكل قوة ، وفي توكيدها له تريد أن تدل على معنيين : الأول النزاهة المطلقة في صلة الحب بحيث لا يُقصد من ورائه جزاء . ولا حتى مجرد التبادل فيه ؛ الثاني أن الحب الصحيح هو ذلك الذي يستبعد كل تبادل . وكأنها كانت تريد من الله أن يقول لها ما قالته فيلين في « فلهم ميستر » لجيته : « إذا كنت أحبك ، فهل هذا يعينك ؟ »

ولكى نزيد هذا المعنى في نص رابعة إيضاحاً و بروزاً نود أن نضع إلى جواره نصاً آخر لصوفي كبير هو أبو سليمان الداراني (المتوفى سنة ٢١٥ هـ = سنة ٨٣٠ م) يكاد أن يتشابه مع نص رابعة في بعض حروفه ، لكن لستان ما بين المقصود في كل منها | قال القشيري : « حدث أحمد بن أبي الخوارى قال : دخلت على أبي سليمان الداراني وهو يبكي ، فقلت له : ما يبكيك ؟ فقال : يا أحمد ! ولم لا أبكي ، وإذا جنّ الليلُ ونامت العيون وخلا كل حبيب بحبيبه واقترش أهل الحبة أقدامهم وجرّت دموعهم وتقطرت في محاريبهم ، أشرف الجليلُ سبحانه وتعالى — فنادى : يا جبريل ! بعيني من تلذذ بكلامي واستراح إلى ذكري ، وإني لمُطَّلِع عليهم في خلوتهم أسمع أنينهم وأرى بكاءهم ؛ فلم لا تنادى فيهم يا جبريل : ما هذا البكاء ؟ هل رأيتم حبيبا يعذب أعباءه ؟ أم كيف يؤملُ بي أن آخذ قوماً إذا جنّهم الليلُ تماقوا لي ؟ فبي حلفتُ أنهم إذا وردوا على القيامة لأكشفن لهم عن وجهي الكريم حتى ينظروا إليّ وأنظر إليهم »^(٢) . فهنا نرى الداراني يلجأ إلى أمثال هذه الأحاديث القدسية التي بدأ الصوفية في إذاعتها على أنها من وحي الله لهم^(٣) كما يجد عزاءً في تبادل الحب بين الله وبينه هو ومن

(١) راجع كتابنا : « الزمان الوجودي » ، ص ١٦٤ . القاهرة سنة ١٩٤٥ .

(٢) « الرسالة القشيرية » ص ١٥ . القاهرة ١٣٣٠ .

(٣) راجع : ماسينيون : « بحث في نشأة المصطلح الفني للصوفية في الإسلام » ، باريس سنة ١٩٢٢ .

على شاكلته من أهل المحبة . وفي هذا نجد تراجعاً عن ذلك المعنى الجليل الصافي
الذي أعطته رابعةٌ للحب الإلهي .

وهذا كله فضلاً عن معاني القلق والاضطراب واللهفة التي تشيع في عبارات
رابعة في ذلك النص ، مما يصف حال العاشق القلق أدق وصف . على أن فكرة
الحب لم تكن بعد قد اتضحت في نفس رابعة ، إنما هي معاني امتلأت بها نفسها
ولما تَمَتَّحِلْ إلى صورة عقلية بادية الأسارير .

— ٤ —

بدأت رابعة إذنب في التوبة ، وفتحت صفحة جديدة من حياتها
الروحية هي مزيج من القلق والاستغفار والشوق إلى المحبوب الجديد الذي
اتخذته لنفسها .

فإذا حاولنا تعرّف العناصر الجديدة في حياتها وما اتخذته من وسائل للسير
في الطريق إلى الله لم نعرث إلا على أخبار متناثرة ، سنحاول مع ذلك ، جهدنا ، أن
نستخلص منها ما قد يجلو هذا الجانب .

أما الأدوات التي اصطنعتها فهي التهجّد وقيام الليل : تصلى وتدعو وتقرأ
ما تيسر من آي القرآن . ثم استذكار الموت .

فكل المصادر تجمع على أنها كانت تقوم الليل كله . قال ابن الجوزي
في « صفة الصفوة » بعد سلسلة من الأسانيد تنتهي عند عبدة بنت أبي شوال ،
وكانت من خير إماء الله تعالى ، وكانت تخدم رابعة ، قالت : « كانت رابعة
تصلي الليل كله ، فإذا طلع الفجر ، هجت في مصلاتها جمعة خفيفة حتى يسفر الفجر
فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها ذلك وهي فرزة : يا نفس ! كم تنامين !
وإلى كم تقومين ! يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور -

عالت : فكان هذا دأبها ، دهرها ، حتى ماتت ^(١) . ويلوح أنها كانت حريصة
كل الحرص على التهجيد . ويدل على هذا أنها ما كانت تنقطع لحظة عنه حتى
تسهر بالزواج تترى عليها لتردها إلى سالف سُنَّتِها . ولعل أبلغ دلالة على هذا
ما رواه صاحب « مصارع العشاق » ^(٢) من أنها كانت قد انقطعت عن قيام
الليل إثر علة ، فرأت في منامها حليماً مفزاه أنها بانقطاعها عن الليل قد جرّت
عليها غضب السماء وكادت تفقد بهذا ما حصلته من قبل بتهجدها . ولهذا
أقبلت عليها الحورية التي رافقتها في تجوالها في الجنة إبان هذه الرؤيا وقد رأت
انصراف الوصفاء عنها تؤنبها بهذه الأبيات :

صلاتك نورٌ والعباد رقود . ونومك ضد للصلاة عنيد

وَعَمْرُكَ عُمٌّْ إِنْ عَقَلْتَ وَمَهْلُهُ يَسِيرٌ وَيَفْنَى دَائِمًا وَيَبِيدُ

ثم غابت عن بين عيني ؛ واستيقظتُ حين تبدى الفجر . فوالله ما ذكرتها
فتوهمتها إلا طاش عقلي وأنكرتُ نفسي . قال : ثم سقطت رابعةً مغشياً عليها .
ورابعة في هذا لم تكن تفعل غير ما سنه القرآن وأنت به الشئنة وسار عليه
الصحابة والتابعون . فالآيات التي تحث على قيام الليل عديدة منها : « والذين
يبيتون لربهم سجداً وقياماً » (الفرقان : ٦٥) ؛ « تتجافى جنوبهم عن المضاجع »
(السجدة : ١٦) ؛ والأحاديث لاتكاد تحصى مثل : « عليكم بقيام الليل فإنه مرضاة
لربكم » وهو دأب الصالحين قبلكم ؛ ومنهاة عن الإسهم ؛ وملغاة للوزر ؛ ومذهب
كيد الشيطان ؛ ومطرّدة للداء عن الجسد . وبالغ التابعون في هذا حتى ليزكر

(١) ابن الجوزي : « هفة الصفوة » ج ٤ ص ٥٨ ب « مخطوط الظاهرية برقم ٦٧ تاريخ .
وأورده ابن خلكان : « وفيات الأعيان » ج ١ ص ٢٥٦ ، القاهرة سنة ١٢٧٥ هـ .
سنة ١٨٥٨ م ، وابن تغري بردي : « النجوم الزاهرة » ، ج ١ ص ٣٣٠ ، طبع دار الكتب
المصرية بالقاهرة سنة ١٩٢٩ .

(٢) أبو محمد جعفر بن أحمد بن حسين السراج القارى : « مصارع العشاق » ، ص ١٣٦ .
طبع الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٣٠١ هـ = ١٨٨٣ م .

عن أربعين منهم أنهم كانوا يُصَلُّونَ الغداة بوضوء للعشاء ، منهم سعيد بن المسيَّب
رواه الفضيل بن عياض وهيب بن الورد وأبو سليمان الداراني وأبو خنيفة ، وهم جميعاً
ينتسبون إلى عصر رابعة ؛ فعادة قيام الليل إذن كانت منتشرة عند كل الصالحين
سواء أكانوا من أهل الطريق فعلاً أم لم يكونوا . وإنا لنجد كثيراً من المؤلفين
في التصوف يكرسون فصولاً طويلاً لمسألة قيام الليل ، ولنذكر على سبيل المثال
صاحب « عوارف المعارف » الذي عقد أربعة أبواب لقيام الليل ^(١) .

وكان قيامها الليل إما مفردة وحيدة أو مع أصحابها وصواحبها . أما أصحابها
فمن بينهم سفيان الثوري فيما رواه العطار فقال : « قال سفيان الثوري : كنت
عند رابعة ذات ليلة . فصأت حتى مطلع الفجر ؛ وصلت أنا كذلك . وفي الصبح
قالت : علينا أن نصوم اليوم شكراً على هذه الصلوات التي أقمناها الليلة ^(٢) » .
وهو يروى كذلك حدثاً مشابهاً مع الحسن البصري يقول فيه : « يروى أن الحسن
البصري قال : بقيت يوماً وليلة عند رابعة تتحدث عن الطريق وأسرار الحق
بحرارة بلغت حدّاً نسينا معه أنني رجل وأنا امرأة . فلما فرغنا من الحديث
شعرت بأنني لم أكن إلا فقيراً » بينما هي كانت غنية بالإخلاص ^(٣) . وهذه الرواية
لا يمكن أن تكون صادقة من الناحية التاريخية في نظرنا لأنها تجمع بين الحسن
البصري ورابعة ، ونحن ممن يرجحون أن تكون وفاتها سنة ١٨٠ هـ أو سنة ١٨٥ هـ
لا سنة ١٣٥ هـ كما يود أولئك الذين يريدون أن يجمعوا بينهما حتى يفسروا ورود
أخبارها مع الحسن البصري — وسنرى أدلة ترجيح رأينا بعد حين . ولذا
سنرفض كل ما يروى من أخبار لرابعة مع الحسن البصري . وإنما صيغت هذه
الرواية ، كما صيغ أمثالها ، من أجل التمجيد لسكتها هاتين الشخصيتين الكبيرتين .

(١) من ٤٥ إلى ٤٨ ، ص ٢٥٠ إلى ص ٢٦٣ ، القاهرة سنة ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٩ م .

(٢) فريد الدين العطار : « تذكرة الأولياء » ، (راجعه بعد) نعمة نيكولسون .

(٣) المرجع السالف .

على أننا نستطيع مع ذلك أن نستخلص من هذا الخبر أنها كانت تمشي الليل أحياناً بصحبة بعض الصالحين . أما الصواب فقد روت لنا المصادر من يبنين حيونة^(١) — كما أشرنا إلى هذا من قبل — وهي التي يذكر عنها في هذا الخبر أنها كانت أقدر على قيام الليل من رابعة .

على أنه يلوح أن رابعة لم تكن تقوى على الاستمرار في هذا التهجذ ، خصوصاً لما بالغت في الزهادة فهزل بدنها وضعفت مُنتها فلم تعد تقوى على السهر الدائم . وآية ذلك ما روى عن أخبار بعض اللصوص معها ؛ هذا إن صحت هذه الأخبار . وإن كان الأرجح أنها من نسج خيال القصاص استنباطاً للعبرة في هذه الأحداث التي جرت لها معهم أو بياناً لكرامات لها أرادوا نسبة وقوعها إليها .

ذلك فيما يتصل بالتهجد الذي كان يُقضى في قراءة القرآن وذكر الله . لكننا لانستطيع أن نعرف بالتفصيل من أي شيء كان يتكون هذا الذكر . فالسمع بالمعنى المعروف بعد ذلك عند الصوفية لم يكن قد نظم على هيئة حلقات . إذ أن أول حلقة للسمع أنشأها صديق للسري السقطي (المتوفى سنة ٢٥٣ هـ) في بغداد ، وهو على التنوخي . أما مجالس الذكر فكانت قد أنشئت ، منها مجلس الحسن في مسجد البصرة الجامع ، ومنها مجلس الذكر الذي أقامه عيسى بن زاذان في الأبلّة حوالي سنة ١٢٠ هـ . ولا بد أن يكون الذكر قد تطور في هذه المجالس فلم يعد يقتصر على مجرد تكرار اسم الله وما يشابهه من الصيغ البسيطة ، خصوصاً ونحن نعلم أنه قد بدى بإقامة ربط ، فكان أول رباط أنشئ حوالي سنة ١٥٠ هـ في عبادان على يد تلامذة عبد الواحد بن زيد ، صديق رابعة ، وهو الرباط الذي ظفر بشهرة واسعة حتى كانت للصلاة فيه فضيلة وميزة . ويلوح أن الزنج في ثورتهم هم الذين

(١) أبو القاسم النيسابوري : « عقلاء المجانين » ، ص ١٢٨ ، دمشق سنة ١٩٢٤ .

هدمونه سنة ٢٦٠ هـ^(١) فلا بد أن تكون قواعد الذكر ، ولو في صورة أولية ، قد صيغت وتطورت في هذا الرباط . ولا بد أن تكون رابعة على صلة بما يجرى فيه : أولاً لصلتها بعبد الواحد بن زيد شيخ الذين أنشأوه . وثانياً لكونه في عبادان أى في ضواحي البصرة ، فمن الطبيعي أن تكون على صلة به ، وإن كانت لم تدخله مرابطة . لأن الأخبار لا تحدثنا عن نزولها به ، ولعل وصفها امرأة لم يكن يجوز لها الاتصال به ، كما أن الأخبار لم تحدثنا عن نزولها بغير بيتها الذى أتينا على وصفه في مستهل هذا الحديث ، اللهم إلا أن نفترض في هذا « الكوخ » نوعاً من الصومعة أو الدويرة . وهو افتراض لا ينهض لأن صلاتها العديدة برجال عصرها تنفي عنه هذه الصفة ، فضلاً عن أن أخبارها تتحدث عن جيرة لها ؛ فمن المستبعد أن يكون « كوخها » هذا صومعة أو دويرة بالمعنى الحقيقى . إنما عكفت على نسكها واتقطعت للعبادة في بيتها بالبصرة ؛ ونمىل إلى تحديد مكانه في القسم الغربى من المدينة ، بعيداً عن الحى اللامهى الذى هجرته مادامت هجرت نوع الحياة فيه .

أما الأداة الأخرى التى كانت تستخدمها للتواجد فهى كما قلنا استذكار الموت . ولهذا اتخذت مشجب قصبٍ طوله من الأرض قدر ذراعين عليه أكنافها كىما تتأمله على الدوام فتتغظ بكل المعانى التى تتضمنها فكرته ، وتجتلب أحوال الخوف والفرع والإغماء والبكاء التى كانت تستدعيها إمعاناً في الضراعة . ويلاحظ أنه كان له أثر شديد في نفسها : فبه كانت تستدعى البكاء مبتهلة ومصلىة . قال المناوى : « وكان كنفها لم يزل عندها ، ويجدون محل سجودها كالماء المستنقع من كثرة البكاء^(٢) » . ولقد كان عصرها عصر بكائين ، خصوصاً أصدقاؤها مثل

(١) راجع في هذا كله : ماسينيون ، « بحث في نشأة المصطلح الفنى للتصوف في الإسلام »

ص ١٣١ و ١٣٦ . باريس سنة ١٩٢٢ .

(٢) عبد الرؤوف المناوى : « طبقات الصوفية » ورقة ١٠٥ — ب ، مخطوط

بالمظاهرة برقم ٤١٦٤ عام

رياح بن عمرو القيسي الذي « كان إذا دخل المسجد بكى » وإذا دخل بيته بكى ،
وإذا دخل الجبانة بكى . فيقال له : أنت دهرآك في مآثم ؟ فيقول : يحق لأهل
المصائب والذنوب أن يكونوا هكذا ^(١) . ولعل الحسن البصرى قد كان من
أول الذين بدأوا هذه السلسلة الحافلة من البكائين الذين زخر بهم القرن الثانى
للهجرة فى مدينة البصرة . وي لوح أن انتشار هذا البِدْع إلى أبعد حد هو الذى حال
بين رابعة وبين التجديد فى هذا المضمار . فلقد كان ينتظر منها — وقد كانت
عازفة — أن تستعين فى التواجد بأدوات السماع ، لكن يظهر أن طبيعة العصر —
بما طبع عليه من قسوة وميل إلى الحزن والبكاء والصراخ والإغماء وبالجملة كل
ما يتصل بالأحزان والغم — قد فرض عليها فرضاً أن تتابع السُّنمة الجارية والعادة
المتبعة ، وإلا كانت فى خطر ألا ينظر إلى أعمالها على أنها تدرج فى باب التقوى .
ويبدو كذلك أنها لم تكتفِ باتخاذ ما كان جارياً ، بل بالفت فيه كما تفيض بهذا
أخبارها وأحكامها على زهاد عصرها . فهى كانت تسمى عبد العزيز بن سليمان
الراسبى ، من الطبقة السادسة من تابعى أهل البصرة ، باسم سيد العابدين ، وهو
قد « كان إذا ذكّر القيامة والموت صرّخ كما تصرخ الثكلى ويصرّخ الحاضرون
من جوانب المسجد » وربما وقع الميِّت والميتان من جوانب المسجد ^(٢) . فيشبه
أن يكون تقديرها له كل هذا التقدير إنما كان لإفراطه فى البكاء والصراخ
والفرع من الموت .

على أننا لا ندرى إلى أى مدى أثر تأمل الموت هذا فى تكييف حياتها وتصوير
نظرتها فى الوجود . إذ ي لوح أن الأمر لم يكن يتجاوز الجانب العاطفى دون أن

(١) النابوى : المرجع السابق ، ورقة ١٠١ ب .

(٢) راجع : ابن تفرى بردى : « النجوم الزاهرة » ، ج ٢ ص ١٥ س ١٤ — س ١٥ ،
طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٢٩ . تحت سنة ١٥٠ . التى توفى فيها عبد العزيز
الراسبى . هذا . وهو ينقل هذا الخبر عن أبى المظفر عبد الرحمن ابن الجوزى فى « مرآة الزمان » .

يتحول إلى تفكير نظري فيما ينطوي عليه معنى الموت ، أو على الأقل ليس لدينا
من الأقوال ما يبين لنا عن نتائج تأملها في الموت والبقاء . فكانت تستعينه مجرد
استدعاء الأحوال الوجدانية ، مما كان يولد في نفسها خوفاً هائلاً . وإلى هذه
الفترة يجب أن نعزو ما ينسب إليها من أوصاف وأقوال تتصل بالخوف وخشية
النار والشعور بالعدم . قال المناوي : « وكانت شديدة الخوف جداً . فإذا سمعت
ذكر النار أغمى عليها^(١) » . وهي أقوال لا تتفق مع الأقوال الأخرى التي
تنسب إليها عن نظريتها في النار . ومعنى هذا أننا الآن بإزاء مرحلة التكوين
في نظريتها الجديدة في الحياة الصوفية .

ومرحلة التكوين هذه في هذه النقطة كما في السابقة (أى في التهجيد وقيام
الليل وفي تأمل الموت) ، إنما كانت لا تزال فيها تسير على سُنَّة العصر ، بل والجيل
الذي قبله ، فعند الخوارج كما عند بقية الصالحين نجد هذه الأحوال كلها . إن
رابعة لم تكتشف بعدُ طريقها الحقيقي . ذلك عهد الطلب عندها .

أما عهد التقل قد بدأ لما أن ذهبت إلى الحج . متى تم هذا ولم كان عمرها ؟
هذا ما لا تكشف الوثائق عنه . على أنه لا يمكن أن يتعدى هذه المرحلة المباشرة
الوقت التوبة ، لأن فريضة الحج بالنسبة إلى الصوفي من الفرائض الضرورية
في مستهل الحياة الروحية . على أن حجها كان في البدء مجرد إتمام الواجبات
الدينية ؛ ولا يمكن أن نفترض في حجها الأولى أنه وقعت لها تلك الكرامات
المرغومة التي تنسب إليها في عدة روايات .

إنما يلوح أن معنى الحج قد تطور في نفسها شيئاً فشيئاً سنة بعد سنة .

فتضاهل الجانب المادى وازداد الجانب الروحى المجرى . ولن تستطيع أن تتابع مراحل هذا التطور وترسم له المنحنى بالدقة ، خصوصاً لأن الروايات الخاصة بحجها توغل في أعماق الأساطير ، لأنها تتعلق بكرامات وقعت على يديها ، مثل ما رواه العطار^(١) من أنها ارتحلت ذات يوم إلى الكعبة ومعها حمار يحمل متاعها . فنفق الحمار في الطريق ، فقال أصحاب القافلة : سنحمل متاعك على دوابنا . فقالت رابعة : ما كان اتكالى عليكم لما أن رحلت ؛ بل ثقى بالله تعالى . فارحلوا إذن وهدموا فلما ارتحلت القافلة دعت رابعة الله وهى تقول : « إلهى ! أ كذا يفعل الملوك بعبيدهم الضعفاء العاجزين ؟ لقد دعوتنى إلى زيارة بيتك ، وها أنت ذاتدع حمارى ينفق في الطريق وتدعى في الفياق وحيدة ! » فما آتمت هذه الكلمات حتى نهض الحمار مليئاً بالحياة . فوضعت عليه متاعها واستمرت في طريقها ولحقت بالقافلة .

تلك وأمثالها من الروايات القائمة على الكرامات لا يمكن أن نقيم لها وزناً . لكن يمكن أن نأخذ منها أن رابعة كانت لا تزال تغدو إلى الحج على دابة . وثمت روايات أخرى تقول إنها ذهبت وهى تتقلب على أضالعها . قال العطار^(٢) أيضاً : « روى الشيخ أبو على الفارمذى^(٣) أنه لما جاء موسم الحج ، توجهت رابعة نائمة الصخراء ، وتقلبت على أضالعها حتى بلغت التكبية فى سبعة أعوام . » ولهذا يجب أن نفترض على صحة هذه الرواية — أنها قد انصرفت عن اتخاذ المظليا وهى غادية إلى الحج . لكن هذا يجب أن ينسب إلى دور متأخر لما أن دخلت فى دور الزهادة الكاملة .

وتتابع فى هذا الموضوع تطور معنى الحج عندها حتى آخر حياتها على افتراض

(١) فريد الدين العطار : « تذكرة الأولياء » ، ج ١ ص ٦١ نشرة نيكولسون .

(٢) المرجع السابق ، ج ١ ص ٦٢ .

(٣) هو أبو على الفضل بن محمد الفارمذى تلميذ أبى القاسم القشبرى وأستاذ الغزالي .

راجع عنه ما ورد فى كتابنا : « شخصيات قلقة فى الإسلام » ، ص ١٤٠ تعليق .

أن ذلك كان في توازٍ مع تطور حياتها الروحية نحو زيادة التجريد والتنزّه والعزوف عن الدنيا والتجرد عن كل ما فيها . ونستطيع أن نقسم هذا التطور إلى ثلاث مراحل :
فالمرحلة الأولى كانت فيها تؤدي تلك الفريضة كما يؤديها بقية الناس . ولا تكاد ترى في الحج إلا ما يراه المسلم العادي من التبرك بزيارة البيت العتيق وقبر الرسول واستعادة آثار الإسلام الأول وإحياء معاني الإيمان الوليد ليزيد المرء إيمانا وتقى ، فضلاً عن فوائد الاجتماع بالناس . وما إلى هذا مما يعرفه الناس العاديون للحج من فوائد . وهي إذن لم تكن تفعل إلا ما يفعله بقية الناس ولم تهَبْ الحج بعد معنى روحياً خاصاً . ولهذا تقع هذه المرحلة في العهد التالي لتوتبها مباشرة ؛ ويجوز أن تكون هذه المرحلة قد امتدت سنوات يقدر عددها بمقدار تعاقبها بعد بالأوضاع الحسية في الدنيا ، أي أنها تقع في عهد الطلب والتنقل الأول . وهي كانت لا تزال ترى أن للقيام بالحج ثواباً شرعياً كبقية أركان الدين . ولعل مما يمكن نسبتته إلى هذا الدور قولها : « إلهي ! وعدت بجزاءين لأمرين : القيام بالحج والصبر على الشدائد . فإن لم يكن حجّي صحيحاً مقبولاً عندك » فياويلتاه وما أشد هذه المصيبة عندي ! لكن ما جزاء هذه المصيبة ؟ » (١) . فهذه صرخة من أعماقها تدل على أنها لا تزال تحرص على المعنى الحسي المادي في الحج .

ثم كانت المرحلة الثانية لما أن بدأت تؤدي الحج على قدميها أو متقلبة على أضلاعها وما إلى هذا من أنواع التعذيب التي يري الصوفي أنها ضرورية لمضغفة ثواب الحج . فيأبراهيم بن آدم يحكي عنه أنه أمضى أربعين سنة في حجة واحدة لأنه كان في كل خطوة يصلي ركعتين . وكان يقول : « غيري يسلك هذا الطريق على قدميه ، أما أنا فأسلكه على رأسي » (٢) . ومع إسقاط عنصر المبالغة الضرورية

(١) العطار : « تذكرة الأولياء » ج ١ ص ٦٢ .

(٢) العطار : المرجع نفسه ، ج ١ ص ٦١ .

في مثل هذه الأحوال — طبقاً في هذه الرواية ! — فإنها يمكن أن تشير مع ذلك إلى أن الصوفية كانوا يَفْتَنُونَ في التعذيب لأنفسهم وهم يسبيل الحج حتى يزداد الأجر ويضاعف الثواب . والطار يروى هذا الخبر ليربطه بكرامة أخرى لرابعة وهي أن الكعبة قد ذهبت بنفسها للقاء رابعة واستقبالها ، ولهذا لم يجدها إبراهيم بن أدهم في مكانها بعد هذا الجهد الشاق كله !

أما وقد ارتفعت حرارة إيمانها وازدادت شعوراً بنفسها بفضل هذه المجاهدات التي فرضتها على نفسها وهي بسبيل الحج، فقد كان من الطبيعي أن يعلو معنى الحج في نفسها . فبعد أن كانت في المرحلة الأولى تطلب الكعبة لرؤية الكعبة ، صارت تداعبها الآن فكرة طلب الكعبة لرؤية رب الكعبة . روى الطار^(١) فقال : كانت رابعة في طريقها إلى الكعبة ذات يوم ، فبقيت وحدها في الصحراء ، وشعرت الوحشة فصاحت : « إلهي ! إن قلبي ليضطرب في هذه الوحشة . أنا لَبِينَةُ والكعبة حجر . وما أريده هو أن أشاهد وجهك الكريم ! » فناداها صوت من عند الله تعالى يقول : « يارابعة ! أتطلبين وحدك ما يقتضى دم الدنيا بأسرها؟ إن موسى حين رام أن يشاهد وجهنا ، لم نُنقِ إلا ذرة من تورنا على جبلٍ نَفَرَ صَعَقاً ! » . في هذه الرواية نرى رابعة تتحدث عن الكعبة على أنها حجر فحسب ، أي أنها بدأت تتخلص من التلبس بالمعنى الحسي في الحج . والرواية الأخرى التي يرويها الطار نقلاً عن الشيخ أبي علي الفارمذي فيما يتصل بتقليها على أضلاعها سبعة أعوام يمكن أن تندرج تحت هذا المعنى عينه . فهي في هذه المرحلة الثانية إذاً قد جردت الكعبة عن مادتها وأبقت لها معناها . وهي لا تزال تؤمن بفائدة الحج إليها . أما في المرحلة الثالثة والأخيرة فقد زال كل معناها وعادت لا ترى للكعبة معنى . ذكر الطار قال : « يروى أن رابعة كانت بسبيل الحج فرأت الكعبة قادمة

نحوها عبر الصحراء ، فقالت : « لأريد الكعبة ، بل رب الكعبة ، أما الكعبة فماذا أفعل بها؟! » ولم تشأ أن تنظر إليها^(١) . هذه فكرة على أكبر درجة من الخطورة ، إن صحت الرواية التي أوردها العطار ، وليس بمستبعد أن تكون صحيحة ، فهي نفس الفكرة التي لعبت دوراً خطيراً في مذهب الحلاج وكانت من بين أسباب تكفيره ثم صلبه . ذلك أن الحلاج بعد أن حج للمرة الثالثة والأخيرة اعتقد « أن شوقنا إلى الله يجب أن يمحو عقلياً في نفوسنا صورة الكعبة كما نجد « من » أقامها ، وأن نحطم معبد بدننا كما نبلغ « من » جاء إليه ليتحدث إلى بنى الإنسان »^(٢) .

فها هي ذى رابعة قد أحتت في نفسها صورة الكعبة لأنها تريد أن تجد من أقامها . وبهذا تطور المعنى الحسى للحج فأصبح مجرد مناسبة لرؤية الله ، بل صار في وسعها أن تستغنى نهائياً عن هذه الفريضة لأنها ستجد الله في نفسها ، فما حاجتها بعد إلى مشاهدته عند الكعبة ! وهذا كله كانت تواكبه عملية التنزيه المستمر والتجريد المتصل في فهمها لسائر معانى الحياة الروحية .

ولعل هذا التطور في التنزيه والتجريد قد أبلغ أوجه فيما رواه ابن تيمية قال : « قال على الحريري : قيل عن رابعة إنها حجّت فقالت : هذا (أى البيت الحرام) الصنم المعبود في الأرض ، وإنه ما وُلجّه الله ولا خلا منه »^(٣) . وهذا يؤيد الرواية التي ذكرها العطار ، وفيه من الجرأة في التعبير قدر هائل يدل على مدى بلغه فكر رابعة من جسارة لا نجد لها نظيراً في هذا القرن ولا في الذي يليه عند الصوفية ؛ ولعله لم يظهر بوضوح لأول مرة إلا ابتداءً من الحلاج . كيف لا ، وهي ترى في

(١) فريد الدين العطار : « تذكرة الأولياء » ج ١ ص ٦١ .

(٢) ماسينيون : « المنحى الشخصى لحياة الحلاج » في كتابنا « شخصيات قلقة في الإسلام »

ص ٦٨ ، القاهرة سنة ١٩٤٦ .

(٣) ابن تيمية : « الرد على الحريرية » (أوردته ماسينيون في : « مجموع نصوص

غير منشورة خاصة بالصوف الإسلامي » ص ٨ برقم ٨) .

فيه أبلغ دلالة على مرتبة التجريد والتنزيه التي بلغتها، إن صحت هذه الرواية؛ أو التي ظن الكتاب المؤرخون للصوفية أنها بلغتها بالنسبة إلى إبراهيم بن آدم وهو من هو زهداً وعلو كعب في الطريق— إن لم تصدق هذه الرواية. ذلك أنها تقصد من قولها إنه جاء الكعبة ومؤهلته الصلاة: أنه لا يملك إلا هذه الشعائر الدينية والمراسم والطقوس يؤديها بمعناها الظاهر دون أن يجردها ويرفعها إلى المعنى الباطن؛ أما رابعة فقد ارتفعت فوق هذه الدرجة التي تقوم على الظاهر المحسوس، إلى درجة عليا استحال فيها المرسم الديني إلى رمز، وآضت فيها الشعيرة من شعائر الإيمان إلى معنى مجرد. « فالفقر » هنا هو « الفقر من المادة » أي التجرد عنها نتيجةً للتجرد عن الدنيا، هو التروحن المستمر، هو الشفوف الذي يطلع على النور الأعلى. ورد في « جامع الأصول » أن الفقر أصله رجوع العبد « إلى عدمه الأصلي بحكم سبق الأزلي، حتى يرى وجوده وعمله وماله ومقامه كلها فضلاً من الله وامتناناً محضاً^(١) » فيشعر بارتداده إلى حال العدم الأصيل لما أن كان إمكاناً محضاً، ويفنى في صفات الألوهية، ويطمس في عين الجمع الأحادية فيكون على أتم إعداد لقبول الاتحاد بالألوهية — وهذا هو معنى مشاهدة الله وجهاً لوجه: فهو امتزاج الواحد بالآخر إبان لحظات تطول وتقص وتقل وتكثر وفقاً لما يهبه الله من لطف من لدنه بالعبد المتجرد في حضرته. إن إبراهيم كان لا يزال يرسف في قيود الشعائر لأنه يرى الغاية في أداء التكاليف، أما هي فقد تجاوزت نطاق المراسم إلى المعاني الثابتة في ملكوت الأزل قبل الخلق الزماني، وتجردت عن الأعيان الزائلة كما تحيا في الأعيان الثابتة وهي حقائق الممكنات في علم الحق تعالى هي الوجود الماهوي (Existenz) الذي تسوده الطهارة والبركارة.

(١) الشيخ أحمد ضياء الدين الكمشخاني: « جامع الأصول في الأولياء » ص ٣٥١.

لتستغن عن الكعبة إذاً : فالحضرة تنشد في أى مكان . لقد كان هذا البيت العتيق « هذا الصم المعبود على الأرض » ، بمثابة أداة تعينها على السباحة فى بحر الأوهية الزاخر « وجناح صناعى تدرعت به ربمأ نبت فى جناحيها الطييعين البريش . أما الآن وقد بلغت ما بلغت ، فلتطرحه . وهذا معنى إقبال الكعبة إليها ، أى أنها لم تعد فى حاجة إلى الانتقال كما تنعم بالحضرة ، بل ستفقدتها أياً كانت هى .

لقد بلغت مرحلة التبادل بين الحضرة وبينها . كانت تقبل على الكعبة ، وإذا بالكعبة هى التى صارت تقبل عليها . أقبلت عليها فى ذلك العام « فعليها أن ترد لها الزيارة . قال العطار بعد ذلك مباشرة : « وفى السنة التالية قالت : لما كانت الكعبة قد أقبلت إلىّ فى العام المنقضى « فسأقبل أنا عليها هذا العام » . إنها صلة متبادلة « لأنها صلة صداقة ومحبة بين أربعة وبين الحضرة الإلهية التى ترمز إليها الكعبة . ومن شأن هذه الصلة أن يكون ثمت تراور دون ما تكلف . لهذا قالت تلك العبارة وفيها من البساطة وعدم الكلفة ما يكشف عن الصلة الجديدة التى عقدها مع الله .

ومن الواضح طبعاً فى هذا كله أن انتقال الكعبة هنا وانتقالها هى يجب ألا يفهما بمعنى حسى « بل بمعنى مجرد هو سعى رابعة إلى بلوغ الحضرة الإلهية للفناء فيها والامتزاج بها ، وسعى الحضرة نفسها لمبادلتها هذا السعى وذلك بتلطفها ورضاها وقبولها فى داخل الحضرة .

لهذا نحسب أن معنى الحج قد رقّ ولطّف وتروحن فى نفس رابعة إلى حدّ أنها لم تعد تشعر بالحاجة إلى أداء فريضة الحج بالمعنى المادى ، فانقطعت عنه فى سنواتها الأخيرة بعد أن امتلأت بهذا المعنى الجديد للحج ، وهذا هو ما يفسر قولها لما رأت الكعبة — بمعناها الحسى — قادمة نحوها : « لأريد الكعبة ، بل رب

الكعبة . أما الكعبة فإذا أفلح بها ! « ولم تشأ أن تنظر إليها^(١) فغنى هذا أنها لم تعد ترغب في النظر إلى الكعبة ، الكعبة المحسوسة ، البيت الذي بَبَكَّة ، أى أنها ، بصريح العبارة ، لن تحج بعد ذلك اليوم ، وستأوى إلى بيتها وتنقطع فيه ، فإنه هو الآخر أيضاً تستطيع أن ترى وجه الله وأن تنعم بالحضرة ، فالإقتصار على البيت العتيق الذى بمكة وثنية ، شأنها شأن أولئك الذين اقتصروا على أصنامهم فرأوا فيها وحدها آلهة . لقد قال تعالى : « فأينما تولوا فثم وجه الله » .. إذاً فما معنى الإقتصار على البيت الحرام !

وتلك أعلى مراتب التنزيه ، بلغتها رابعة فودعت التنقل وأوت إلى بيتها هي الحرام .

— ٦ —

أوت رابعة إذن إلى بيتها واستغرقت في انقطاعها لله . فماذا كان من أمر حياتها الدنيوية ؟

هنا يجب أن نبدد أولاً خطأ وقع فيه المؤرخون القدماء وجاراهم عليه المحدثون الذين كتبوا عن رابعة ، وبخاصة مارجرت اسمث في كتابها عن « رابعة وزميلاتها المتصوفات في الإسلام »^(٢) مع أن كثيراً من أولئك الأقدمين أنفسهم قد نبهوا عليه ، وبخاصة عبد الرؤوف المناوى في كتابه الجيد « طبقات الأولياء »^(٣) « كما سنرى عما قليل ، ومن قبله ابن الجوزى في « صفة الصفوة »^(٤) ؛ وقد رأينا من قبل آثاراً لهذا الخلط نبهنا عليها .

(١) الططار : المرجع نفسه ، ج ١ ص ٦١ .

(٢) Margaret Smith ; Rabi,a the Mystic and her Fellow-saints in Islam. Cambridge, 1928.

(٣) مخطوطة الظاهرية بدمشق رقم ٤١٦٤ ورقة ١٠٦ — ١٠٦ ب .

(٤) ج ٤ ص ٢٠٢ أ برقم ٦٧ تاريخ بالظاهرية بدمشق .

ذلك هو الخلط بين رابعة الشامية وبين رابعة البصرية صاحبتنا . أما رابعة الشامية فهي التي قال عنها المناوي إنها « رابعة بنت إسماعيل العدوية : ورابعة هذه بمشاة تحتية ، وهي شامية ، والتي قبلها بموحدة [١٠٦ ب] تحتية ، وهي بصرية فافتراقاً » ، والغريب في هذا أن المناوي يقول عنها إنها تسمى « العدوية » أيضاً وهو ما لا نجد في المصادر الأخرى . فهل اختلط عليه الأمر هنا في هذه الدقيقة ؟ لانستطيع الجواب حتى نظفر بمصدر آخر مستقل ، لأن حجة الصمت لا تصلح كثيراً في البحث التاريخي . والغريب أن ابن الجوزي في « صفة الصفوة » لم يشير إلى نسبها هذا . لذا لو كان لنا أن نرجح لقلنا إننا ننجح إلى أن يكون هنا عدم تنبه من جانب المناوي أو غفلة من جانب الناسخ . والمناوي على كل حال إنما يردد هنا ما قاله ابن الجوزي من قبل في « صفة الصفوة » في تفرقة بين كليهما . قال ابن الجوزي : « رابعة زوجة أحمد بن أبي الخوارى » كذا نسبها أبو بكر بن أبي الدنيا . وقد ذكر أبو عبد الرحمن السلمي أن رابعة العدوية تشارك هذه في اسمها واسم أبيها . وعموم ما يأتي في الحديث عن زوجة أحمد أنها رابعة بالياء ، والعدوية بصرية ، وهذه شامية » ، وليس من شك في أن هذا يدلنا على أن الخلط قد حدث منذ عهد مبكر جداً مادام السلمي (ولد سنة ٣٣٠ هـ — ٩٤١ م وتوفي سنة ٤١٣ هـ — سنة ١٠٢١ م) قد نبه إليه . وقد يكون في قول ابن الجوزي هنا « والعدوية بصرية ، وهذه شامية » ما قد يزيد في تأييد ما رجحناه من غفلة المناوي (أو الناسخ) بذكره رابعة الشامية على أنها « عدوية » أيضاً . مادام ابن الجوزي في معرض التفرقة يكتفي بقوله « العدوية » ، فلو كانت رابعة الشامية عدوية هي الأخرى لما لجأ إلى هذا التمييز فاقصر على هذه النسبة . خصوصاً أنه من المحتمل جداً أن يكون ابن الجوزي هو مصدر المناوي في هذه التفرقة ، كما هو مصدره في غالب ما يورد من أخبار في هذا الكتاب .

ثم يؤكد ابن الجوزي هذه التفرقة بعد ذلك مباشرة عن راوٍ آخر فيقول: « وقد أخبرنا أبو ناصر قال: أنبأنا أبو الفنائم بن النسي قال: رابعة بالباء بنقطة في تحتها بصرية، ورابعة بألفين من تحتها شامية^(١) ». »

هناك إذن رابعتان، إحداهما رابعة العدوية البصرية، والأخرى رابعة أو رابعة بنت إسماعيل الشامية زوجة أحمد بن أبي الحواري. وهذا الأخير هو أبو الحسن أحمد بن أبي الحواري. « واسم أبي الحواري ميمون. من أهل دمشق. صحب أبا سليمان الداراني وسفيان بن عيينة ومروان بن معاوية الفزاري وبشر بن السري وأبا عبد الله النباجي وغيرهم من المشايخ — رضى الله عنهم أجمع! — وله أخ يقال له المولى بن أبي الحواري يجرى مجراه في الزهد والورع؛ وابنه عبد الله من الزهاد؛ وأبوه أبي الحواري... كان من العارفين والورعين. فيتهم بيت الورع والزهد. مات سنة ثلاثين ومائتين^(٢) ». أما زوجه، رابعة الشامية، فإنها ماتت سنة خمس وثلاثين ومائتين « ودفنت برأس زينا بيت المقدس »، كما يقول المناوي^(٣). إلا أنه ورد في مخطوطة المناوي هذه أنها توفيت سنة « خمس وثلاثين ومائة ». وليس من شك في أن هاهنا تحريفاً، والأصل « ومائتين »، لأنها وهي زوج أحمد بن أبي الحواري المتوفى سنة ثلاثين ومائتين لا يمكن أن تكون قد توفيت سنة خمس وثلاثين ومائة. فهل يكون المناوي قد وقع في هذا الخطأ الفاحش وهو الذي حرص على التنبيه على هذه التفرقة وقال بصراحة إن رابعة بنت إسماعيل الشامية هذه هي زوجة أحمد بن أبي الحواري — من أجل أن يتقذ التاريخ

(١) ابن الجوزي: « صفة الصفوة »، مخطوط الظاهرية بدمشق برقم ٦٧ تاريخ

مبني ٤ من ٢٠٢. أبو عبد الحسين بن نصر الجهني: « مناقب الأبرار وشعار الأخيار ». مخطوط

في مجموع بالظاهرية برقم ٤١ تصوف، ورقة ٧٢.

(٢) المرجع نفسه، ورقة ٦٠٦.

مبني ٤

الأخر — وهو سنة ١٣٥ هـ — الذي ينسب في بعض المصادر — كما سنرى — أن رابعة توفيت فيه ؟ لو كان هذا هو ما قصد ، فيالسوء ما قصد ! فقد أفسد كل ما فعله في مستهل حديثه حينما ميز بين كلتا الرابعتين . وليس ببعيد أن يكون قد وقع فعلا فيه — ولم يكن عن تحريف النسخ — إذاما تذكرنا أنه اكتفى في بيانه لوفاة رابعة العدوية البصرية بذكر سنة ثمانين ومائة ؛ وإذا مات ذكرنا كذلك أنه كان متردداً في إيراد أخباره ، فتردد كذلك في الحديث عن القبر القائم بقرب بيت المقدس : فقال : « ودفنت برأس زيتا بيت المقدس . وقيل [١٠٧] المدفونة هناك إنما هي الأولى » أي البصرية . ومع هذا فقد افترضنا أن تكون هنا سقطت قلم والأصل هو « سنة خمس وثلاثين ومائتين » أي بعد وفاة زوجها أحمد بخمس سنين . فهي لا شك توفيت في ذلك العهد أو قريباً منه زيادة أو نقصاً بقليل .

ونحن نفترض أن ابن الجوزي كان المصدر لمن جاء بعده من المؤرخين الذين تحدثوا عن رابعة . وإنا لنراه في كل ما أورده من أخبار عن رابعة الشامية يذكر سلسلة من الرواة تنتهي كلها دائماً باسم أحمد بن أبي الحواري . فهو إذن الراوي للباشر . وهذا يعطينا مفتاح المشكلة في كل الأخبار التي وردت باسم رابعة — بدون تمييز — مشفوعة بأسماء الرواة . فكل سند يرد فيه ذكر أحمد بن أبي الحواري يجب أن نقدر أنه يتحدث عن رابعة الشامية ، لا عن رابعة العدوية البصرية صاحبتنا في هذا البحث .

لهذا يجب علينا اتخاذ هاتين القاعدتين :

(الأولى) أن نستبعد كل رواية وردت سند رواها ومن بينهم أحمد بن أبي الحواري . لأن هذا ما كان له أن يحدث إلا عن رابعة الشامية ، وزوجها ؛ وهو شامي ولا نعلم أنه أتى البصرة ؛ وفضلاً عن هذا فإن موته سنة ٢٣٠ يجعل من المستبعد جداً أن يكون قد عرف رابعة البصرية حتى لو كان قد ارتحل إلى البصرة

لأنه لا بد أن يكون ذلك في سن مبكرة كثيراً ، اللهم إلا إذا افترضنا أنه عُمر طويلاً جداً وبدأ التصوف مبكراً . كل هذا على افتراض أن رابعة البصرية توفيت حتى في أبعد سنة تفترض لها وهي سنة خمس وثمانين ومائة . وإذن فكل ما يزوي عن ابن أبي الحواري يختص برابعة أو رابعة الشامية وحدها ، زوجته .

(الثانية) أن كل الأخبار التي ثبتت سند روايتها وفيهم أحمد بن أبي الحواري يجب أن نسقطها من حساب رابعة البصرية إذا نسبت إليها عُقلاً من كل سند . ذلك أن بعضاً من الراوة والمؤرخين لا يأتون بالسند ، أو لا يأتون به كاملاً بحيث يصل إلى الراوي الأخير ، ويذكرون عن رابعة البصرية أخباراً وردت عن مؤرخين آخرين مشفوعة بسند فيه أحمد بن أبي الحواري أى — تبعاً للقاعدة الأولى — مما يجب أن ينسب إلى رابعة الشامية . فهؤلاء إذن تسقط رواياتهم لمجرد ورودها منسوبة في روايتها إلى أحمد بن أبي الحواري في المصادر الأخرى المعنية بسلسلة الرواة .

فبتطبيق هاتين القاعدتين نستطيع أن نميز بين ما يصح رابعة البصرية صاحبتنا ، وما يصح رابعة الشامية زوج أحمد بن أبي الحواري . على أن التمييز — مع ذلك — لن يكون هاهنا كاملاً كما نود ، وذلك لسببين :

(الأول) أن القليلين من المؤرخين هم الذين حرصوا على الإتيان بسلسلة الرواة كاملة ، لأنهم مُحدّثون فيحرصون على ذكر السند تاماً ؛ وخيرهم في هذا من غير شك هو ابن الجوزي في « صفة الصفوة » .

(الثاني) أن تمت أخباراً عديدة لم ترد عند الأولين — أى المعنيين بذكر السند التام — ، فلاندرى ، وهي مُعقّلة من كل سند ، أهي حقاً رابعة البصرية ، أو لعها رابعة الشامية ؟ إن منهم من يقدمونها على أنها رابعة البصرية — لكن من يدرينا لعها في الأصل رابعة الشامية وخطوا فيها كما فعلوا في الروايات الأخرى

التي استطعنا تمييزها وفقاً للقاعدتين السابقتين . وإن منهم كذلك لمن يكتفون بنسبتها إلى مجرد « رابعة » ؛ فليت شعري أية رابعة يعنون ! أما وصاحبنا رابعة البصرية هي الأشهر التي ينصرف إليها خصوصاً ذهن القارئ . فقد افترضنا — لأننا لا نملك أن نفعل غير ذلك — أن المقصود هو رابعة العدوية البصرية صاحبنا ، وإلا كان على الراوي أن ينبه إلى ذلك . فإغفاله التنبيه على غيرها يُفسر بقصده إياها وحدها .

ذلك التقدير المنهجي الذي قمنا به على أكبر درجة من الخطورة لأنه سيوضح شخصية رابعة العدوية البصرية أتم إيضاح مستطاع بوسائلنا . فكأن من آراء تنسب إليها كان مصدر التناقض الفاحش فيها هو ذلك الخلط بين كلتا الراجعتين ! وكم من مسألة استعجبت مذاهبها وعميت مسالكها في البحث في رابعة : حياتها وأفكارها ، لا شيء إلا لوقوع هذا الالتباس بين رابعة البصرية ورابعة الشامية ! أجل إن كثيراً من الأخبار والأقوال ستبتر بحد هذا المنهج ، ونحن أحوج مانكون إلى تلمس أخبار رابعة لندرتها . لكن ما قيمة هذه الأخبار مادامت لا تنتسب إليها ، بل ولا إلى أسطورتها هي الخاصة ؟ !

وأول ضحية لهذا المنهج كل ما روي من أخبار تقترض أنها تزوجت . وهي :

١ — ما رواه صاحب « الروض الفائق في المواعظ والرقائق » ^(١) من أنه :

« لما مات زوج رابعة العدوية استأذن الحسن البصري في الدخول عليها هو وأصحابه ؛ فأذنت لهم وأرخت ستراً ، وجلست وراءه ، فقال لها أصحابه : إنه قد مات بطنك ولا بد لك من زوج وقد انقضت عدتك ، فاختارني من هؤلاء الزهاد من شئت منهم . . . » إلى آخر ما ذكره هنا من أنها طلبت من الحسن

(١) الشيخ الحريش : « الروض الفائق في المواعظ والرقائق » ، ص ١١٧ — ١١٨

البصرى الذى كان أعلم هؤلاء أن يجيبها عن أربع مسائل ، فإن فعل فهم له أهل .
والخبر كله غير صحيح أولاً لأنه يتحدث عن الحسن البصرى ، والحسن
البصرى ولد سنة ٢١ هـ (= ٦٤٢ م) وتوفى سنة ١١٠ هـ (= ٧٢٨ م) ، بينما
التاريخ الذى سنتمى إليه فى بيان وفاتها هو سنة ١٨٠ هـ أو سنة ١٨٥ هـ ، فلا يمكن
وقوع هذا الحادث بينهما . وإنما هو من الأخبار العديدة التى شاء أصحابها
أن يربطوها فيها بالحسن البصرى . وسنرى تفصيل هذا التفضيل لوفاتها المتأخرة
حين الحديث عن تاريخ وفاتها .

وغير صحيح ثانياً لأنها لم تزوج كما سيتأيد فيما يلى :

٢ — ما ذكره الياضى^(١) فى «روض الرياحين فى مناقب الصالحين» فى قوله :
«وحكى عن أحمد بن (أبى) الحوارى عفا الله عنه أنه قال : كانت لرابعة العدوية
أحوال (فى المطبوع : أهوالاً) شتى : فكانت مرة يغلب عليها الحب . . .»
إلى آخر الأبيات التى أوردها من أقوالها فى حال الحب ثم فى حال الأناس ،
ثم فى حال الخوف . والغريب أنه يستمر فى الخبر فيقول بعد هذه الأبيات مباشرة :
«قال زوجها : فقلت لها ليلة من الليالى . . .» فكيف يكون الحديث عن رابعة
البصرية إذا كان زوجها أحمد بن أبى الحوارى ؟! كذلك الحال فى كل ما أورد
الياضى بعد ذلك «عن زوجها» ، وكذلك ما قاله من أنه «كانت تأتىها الجن
بكل ما تطلب» . فهذا أيضاً من شأن رابعة بنت إسماعيل الشامية ، كما يتأيد ذلك
مما رواه المناوى حين قال عن رابعة بنت إسماعيل الشامية : «وكانت ترى الجن
عياناً» ، فهى إذن الشامية التى كانت على صلة بالجن ، لا رابعة البصرية .

على أن ابن الجوزى فى «صفة الصفوة»^(٢) قد ذكر هذه الأخبار تحت

(١) الياضى : «مختصر من كتاب روض الرياحين فى مناقب الصالحين» ، ص ١١١ —
س ١١٢ ، طبع المطبعة الكستلية ، القاهرة سنة ١٢٧٩ هـ = سنة ١٨٦٢ م .

(٢) ورقة ١٢٠٢ — ١٢٠٣ .

اسم رابعة الشامية، ورواها نقلاً عن أحمد بن أبي الحواري . فهذا يقطع أيضاً بأن اليافعي هنا قد أخطأ خطأ ظاهراً « اللهم إلا إذا فهمنا من قوله : « رابعة العدوية » أن المقصود هو رابعة الشامية على أساس أنها عدوية أيضاً .

٣ - مارواه جامي في « نفحات الأنس » ^(١) من أنها كانت إذا طبخت قدرًا قالت لزوجها: « كُتبه ياسيدي فما نضج إلا بالتسبيح » . وهو خبر ورد عند اليافعي في الموضوع السابق ؛ ورواه ابن الجوزي في « صفة الصفة » على أنه خاص برابعة الشامية .

٤ - ما أورده العطار من حكاية الحسن معها في سؤاها إياه عن عدة مسائل - وهو ما ذكر من قبل تحت رقم ١ - والعطار يذكر الخبر دون ذكر الحسن ؛ وبدلاً من أربعة مسائل يذكر ثلاثة . ونحن نرى أنه مادام العطار لم يفعل إلا أنه اختصر في الخبر الوارد في رقم ١ ، فهو إذن لم يأت إلا بالخبر عينه ؛ فحكم هذا الخبر حكم رقم ١ ، أي أنه غير صحيح .

من هذا يتبين إذاً أن الأخبار التي تفترض زواج رابعة البصرية إنما هي في الواقع أخبار خاصة برابعة الشامية ، كما يؤكد ذلك ابن الجوزي بما لا حاجة بعده إلى فضل بيان . وعلى هذا فليس لدينا مصدر واحد يصرح بأن رابعة البصرية تزوجت .

ذلك هو الجانب السلبى من حججنا للبرهنة على أن رابعة البصرية لم تزوج . والجانب الإيجابى هو أخبار طلب الزواج منها :

(أ) أما ما يتصل منها بالحسن البصرى فمرفوض جملة لما ذكرناه في رقم ١ .

(ب) أما الأخبار التي لا يقف حائل دون صحتها فهي خطبة عبد الواحد

ابن زيد لها ثم خطبة أمير البصرة محمد بن سليمان الهاشمى كذلك .

(١) جامي : « نفحات الأنس » ، ص ٧١٩ ، نشر- ليس وتساو ، كلكتا سنة ١٨٥٩ م .

والمخطبة الأولى روى نبأها كل من عين القضاة الهمداني في « شكواه »^(١)
ثم الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين »^(٢). قال عين القضاة في الحديث عن
رابعة : « وخطبها عبد الواحد بن زيد ، مع علو شأنه ، فهجرته أياماً حتى شقَّع له
إليها إخوانه . فلما دخل عليها قالت له : « يا شهواني ! اطلب شهوانية مثلك ! » .
ورواه الزبيدي بصورة أكل فقال : « وخطبها عبد الواحد بن زيد فحجبتة أياماً
حتى سئلت أن يدخل عليها » فقالت له : « يا شهواني ! اطلب شهوانية مثلك !
أي شيء رأيت في من آله الشهوة ؟ ! »

كذلك روى المرتضى الزبيدي الخطبة الثانية فقال : « وخطبها محمد بن سليمان
المهاشمي أمير البصرة على مائة ألف وقال : لي غلة عشرة آلاف في كل شهر
أجعلها لك . فكتبت إليه : ما يسرنى أنك لي عبدٌ وأن كل مالك لي ؛ وأنتك
شغلتنى عن الله طرفة عين » .

وروى ذلك الخبير أيضاً عبد الرؤوف المناوي^(٣) فقال : « كتب محمد بن سليمان
المهاشمي — وكانت غلة مُلكه كل يوم ثمانية آلاف درهم — إلى كبراء
أهل البصرة في امرأة يتزوجها ، فأجمعوا على رابعة . فكتبت^(٤) إليه : « أما بعد !
فإن الزهد في الدنيا راحة البدن ؛ والرغبة فيها تورث الهم والحزن ؛ فهيء مزادك
وقدم لمعادك ، وكن وصي نفسك ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا تركتك ؛
وصم الدهر . واجعل فطرَكَ الموت . وأما أنا فلو خولني الله [١٠٤ ب]

(١) عين القضاة الهمداني : « شكوى » مخطوط بزلبن ، ورقة ٥٧٣ : (أوردته ماسينيون
في : « مجموع نصوص غير منشورة خاصة بالتصوف الإسلامي » ، ص ٧ تحت رقم ٦ ، باريس
سنة ١٩٢٩)

(٢) المرتضى الزبيدي : « إتحاف السادة المتقين » ، ج ٩ ، ص ٧٥٦ .

(٣) « طبقات الأولياء » ورقة ١١٠ ، ب ، مخطوط الظاهرية رقم ٤١٦٤ .

(٤) في المخطوط : فكتب لئليها — والسياق يقتضي ما أئبتناه لأن الخطاب مذكر
في الأفعال الواردة في هذه الرسالة .

أمثال ما حزت وأضعافه [ف] لم يسرني أن أشتغل عن الله طرفة عين -
والسلام» .

فہاتان الخطبتان ورفض رابعة لکاتھما تدلان تمام الدلالة علی فکرتهما
عن الزواج بالنسبة إلى نفسها وهي أنها لا تراه يصلح لها ، والذين وضعوا قصة
الحسن المذكورة في رقم (١) إنما قصدوا إلى إبراز هذا المعنى ، خصوصاً حينما
ختموها بأن جعلوا رابعة تقول لما أن أعيت الحسن الإجابة عن أسئلتها الأربعة :
« إذا كان الأمر كذلك وأنا في قلق وکرب من هذه الأربعة ، فكيف أحتاج
إلى الزوج وأتفرغ له ! ثم أنشدت :

راحتي ، يا إخوتي ، في خلوتي	وحبيبي دائماً في حضرتي
لم أجد لي عن هواه عوضاً	وهواه في البرايا محنتي
حينما كنتُ أشاهدُ حسنه	فهو محرابي ، إليه قبلي
إن أمتٌ وُجداً وما ثمَّ رضا	واعنأني في الوري ! واشقوتي !
يا طيبَ القلب يا كلَّ المنى !	جُدْ بوصلٍ منك يشفي مهجتي
يا سروري وحياتي دائماً	نشأتى منك وأيضاً نشوتي
قد هجرتُ الخلقَ جمعاً أرتجى	منك وصلًا، فهو أقصى مُنيّتي» ^(١)

فهذه أسطورة ، ولعل الأبيات نفسها منحولة عليها ، ولكنها مع ذلك تعبّر
عن الصورة التي تصورها واضعوها عن رابعة ؛ وهي تؤذن بأن رابعة كانت ترى
استحالة الزواج بالنسبة إليها ، لأنها في شغل بالمهم من أمور الآخرة والحياة
الروحية ومسائلها ، فأثرت لها أن تفرغ للزوج والحياة الدنيا !

لهذا كله نرى أن حكاية زواج رابعة إن هي إلا أسطورة نشأت عن الخلط

(١) الشيخ الحزقيش : « الروض المفائق في المواعظ والرفائق » ، ص ١١٨ ، القاهرة

بين رابعة الشامية زوج أحمد بن أبي الحواري وبين رابعة البصرية العدوية
القيسية صاحبتنا هنا .

فإذا نظرنا الآن في نظرية رابعة في الزواج تأيد لنا الأمر وازداد وضوحاً .
وهنا يحسن بنا أن نتحدث عن نظريات رجال عصرها وأصدقائها لنعلم في أية بيئة
نشأت نظريتها هي، ولماذا اتخذت ذلك الطابع الذي اتخذته : وإنا لنجد على رأس
هؤلاء الحسن البصري، رائد حركة الزهادة في ذلك العهد كله، الذي لا يرى الزواج
بالنسبة إلى الزاهد ، بله إلى العبد الصالح . قال : « إذا أراد الله بعبده خيراً في الدنيا
لم يشغله بأهل ولا ولد »^(١) . كذلك نرى أبا نعيم يقول في « الحليسة »^(٢) :
« قال (رباح) سمعت مالك بن دينار يقول : لا يبلغ الرجل منزلة الصديقين حتى
يترك زوجته كأنها أرملة » ويأوى إلى مزابل الكلاب » . وفي هذا ما يدل على
نزعة إلى تقرير العزوبة بمشابهة فرض على من يريد أن ينقطع لله ويبلغ منزلة
الصديقين . وذلك لأن في الزواج صرفاً له عن الانقطاع لله وعدم الاشتغال بشيء
غير ذكر الله ، كما أن ما يلاقيه من رفاهية ودعة يمنع من « كثرة الاشتغال بالله
وقيام الليل وصيام النهار ؛ ويتسلط على الباطن خوف الفقر ومحبة الادخار —
وكل هذا بعيد عن التجرد » كما قال السهروردي^(٣) في « عوارف المعارف » وفي هذا
يقول ابراهيم بن أدهم (المتوفى سنة ١٦٠ هـ أو سنة ١٦٦ هـ) : « من تعود أخذ
النساء لا يفلح »^(٤) .

فإذا صحّت هذه الأخبار وغيرها مما ينسب خصوصاً إلى الحسن البصري —

(١) الشعراني : « الطبقات » ، ١ ، ص ٢٥ .

(٢) وقد أورده الشعراني (« الطبقات » ، ١ ، ص ٤٠) على أنه قول رباح بن عمرو
القيسي ، ولكن هذا غير صحيح لأنه ينقل عن صاحب « الحلية » أولاً ، وثانياً لأن هذا
القول يفترض إمكان الزواج بالنسبة إلى الصوفي ، وهو ما لا يقول به رباح .

(٣) ص ١١٩ ، القاهرة سنة ١٣٥٨ — سنة ١٩٢٩ .

وليس مانع يمنع من أن تكون صحيحة لأن أصحابها لم يتزوجوا . فإن كان عدم تأهاتهم عن مبدأ . فلا شك في أن هذه الأخبار تعبر عن آرائهم إن لم يكونوا قد نطقوا بها فعلاً — نقول إذا صحّت هذه الأخبار فإن هذا يدل على أن الدعوة إلى التجرد ، أى عدم الزواج ، قد وجدت في عصر مبكر ، أى في أواخر القرن الأول والنصف الأول من القرن الثامن . وليس من شك كذلك في أن هذا الرأى الذى دَعَوْا إليه إنما اعتقدوه لما رأوه من عدم توافق في الجمع بين التأهل وبين ممارسة حياة الزهادة ، ولم يكن ذلك نتيجة تأثر بنظام رهبنة . أجل إن الأحاديث العديدة التى اخترعها الصوفية وفيها تمجيد للعزوبة إنما هى وليدة القرون المتأخرة ابتداءً من القرن الثالث للهجرة . لأنها لا تتفق مطلقاً مع ما كانت عليه حياة الرسول وهو القدوة الكبرى . فما كان ينتظر منه إذن أن يدعو إلى حياة التجرد والعزوبة على أنها الحياة المثلى . بينما هو — وهو الرسول — لا يسلكها ، بل ولا يقترب منها . ومن هنا كان على الصوفية الواضعين لتلك الأحاديث أن يبرروا ذلك بتفرقتهم بين عهدين : عهد إلى سنة مائتين من الهجرة . وعهدٍ إلى ما بعد المائتين . وإنا لنعلم تلك الأحاديث الكثيرة التى تذكر فيها سنوات وتواريخ للهجرة . وكان واضعها لم يكونوا من الفطنة بحيث لم يتنبهوا إلى أن التاريخ بالهجرة إنما تم في عهد عمر . فكيف يؤرخ النبيّ السنين ابتداءً من الهجرة !! وعلى كل حال فقد ذكروا تلك الأحاديث ذوات التواريخ فيما يتصل بمسألة العزوبة . قال أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١) : « وفي خبرٍ : إذا كان بعد المائتين أبيحت العزوبة لأمتي ؛ ولأنّ يربى أحدكم جرّو كلبٍ خيرٌ من أن يربى ولدًا » . وقال السهروردي في « عوارف

(١) أبو طالب المكي : « قوت القلوب » ، طبع القاهرة ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ م .

المعارف»^(١) : وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « خيركم بعد المائتين رجل خفيف الحاذ . قيل : يا رسول الله ! وما خفيف الحاذ ؟ قال : الذى لا أهل له ولا ولد »^(٢) . وواضح ما فى هذه التفرقة بين عهدين فى التشريع بعد وفاة الرسول من مجافاة لكل ألوان الاحتمال والقبول .

إنما رأى الصوفية أنفسهم بإزاء وضع جديد ابتدعوه ودعوا إليه فكان عليهم أن يبرروه بواسطة الأحاديث الموضوعية ، شأن كل مذهب أو رأى ابتدع فى الإسلام بعد وفاة الرسول .

ولا نرانا تتجاوز المقول كثيراً إذا افترضنا أن الحسن البصرى كان أول من دعا إلى العزوبة صراحة ، ووضعها شرطاً من شروط التقوى والزهادة الحقة . ومنذ عهده وطوال القرن الثانى للهجرة تضافرت الآراء عند بقية الصوفية حول هذه الفكرة ، لأنهم وجدوا فيها ما يتفق مع مقتضيات الأسلوب الذى اتخذه لأنفسهم فى الحياة . لقد كانوا منصرفين عن الدنيا ، فكيف يمدون بجذورهم فيها عن طريق الأهل والولد؟! وهنا لم يعدموا فى القرآن آيات يمكن أن تؤول على أن فيها تأييداً لاتجاههم هذا . ورد فى القرآن : « إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم »^(٣) ؛ وورد كذلك : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثواباً وخيرٌ أملاً » (سورة الكهف ، آية ٤٦) ؛ وفى الآية الأولى تحذير من الأهل والولد ، إن لم يدع إلى تركهم فهو يحذر منهم . وهذا التحذير يمكن أن يفسره من يأخذ بالأحوط على أنه نوع من النهى . وفى الآية الثانية تفضيل بين حالتى التأهل والتجرد ، مع القول بأن التجرد

(١) أبو حفص عمر السهرودى : « عوارف المعارف » ص ١١٨ ، القاهرة سنة ١٣٥٨ - سنة ١٩٣٩ م .

(٢) وفى « قوت القلوب » الموضوع السابق ورد هكذا : « خيركم بعد المائتين الخفيف الحاذ الذى لا أهل له ولا ولد » .

(٣) سورة التباين : ١٤ .

أو ما في معناه وإن لم ينطق به بصراحة هنا « خير عند ربك ثواباً وخيراً أملاً »
 فضلاً عما في كلمة « زينة » الحياة الدنيا هنا من معنى لا يخلو من التهمم والقدح .
 وإن فيها للبقاء في التعبير كانت مميزة واضحة لما في جوهر الإسلام من ثنائيات ومحاولات
 للجمع بين الطرفين المتعارضين في كل المذاهب والمسالك .

في القرآن إذاً ما يستطيع الصوفية الاستناد إليه في دعواهم إلى العزوبة حتى
 لو أعوزتهم سنة الرسول قولاً وفعلاً وتقريراً . على أن المشاهد في هذه الحالة —
 وفي كل الأحوال المشابهة لها — أن المسلم لا يصدر هنا في رأيه أو فعله عن القرآن
 مباشرة أو عن السنة ؛ إنما يصدر أولاً عن مقتضيات حياته الباطنة أو الخارجة .
 ثم يندو من بعد ذلك إلى الكتاب وأحاديث النبي عساه أن يجد فيها السند
 الديني لما يذهب إليه . فأولئك الصوفية — ابتداءً من الحسن البصري — ممن
 رأوا عدم إمكان الجمع بين التأهل وسلوك الطريق قد ابتدأوا أولاً بأن اقتنعوا
 بعدم إمكان الجمع بين هاتين الحالتين المتعارضتين تعارضاً عبر عنه بعض الفقهاء
 أجمل تعبير لما أن قيل له : تزوج ! فقال : « أنا إلى أن أطلق نفسي أحوج مني إلى
 الزواج^(١) » . ثم راحوا من بعد ذلك يجدون لهذا أصلاً من الكتاب والسنة عليهم
 أن يجدوه . ووجدوه في الكتاب فعلاً في أمثال تلك الآيات التي أوردناها منذ
 قليل . لكن كان عليهم بعد ذلك أن يوقفوا بين مقتضى الآيات والأحاديث
 والسنن المضادة لهذا الاتجاه ، وبين مقتضى حياتهم الداعية إلى التصوف الزاهدي
 الزواج . فلجأوا أولاً إلى أحاديث إباحة العزوبة بعد المائتين ، لكن يلوح أن
 هذا لا بد أن يكون متأخراً عن المائتين ، ومن وضع من أتوا بعد ذلك ، خصوصاً
 في القرنين الرابع والخامس . فبقي إذاً أن نجد تبريراً لمسلك من كانوا قبل سنة مائتين :

(١) أبو حفص السهروردي : « عوارف المعارف » ، ص ١٦٨ ، القاهرة سنة ١٣٥٨ هـ

أعدّهم خارجين على الكتاب والسنة ؟ لعل الذين وضعوا تلك الأحاديث الخاصة بالمهدين (ما قبل المائتين ، وما بعدها) لم يحرصوا كثيراً على مصير من كانوا قبل المائتين ، وكانوا من الأثرة بحيث قصروا الإباحة على أنفسهم ! لهذا كان على الذين يريدون تبرير أحوال التجرد وعدم الزواج عند من كانوا قبل المائتين أن يلجأوا إلى ذريعة أخرى هي التفرقة بين مرتبتين إحداهما أعلى من الأخرى : مرتبة المتجرد ، ومرتبة المتأهل . فقالوا إن التأهل رخصة وسنة ؛ أما التجرد - بالنسبة إلى الصديق الورع - فهو عزيمة وفرض . وفي هذا ^(١) يقول بشر بن الحارث الخافي (المتوفى سنة ٢٢٧ هـ = سنة ٨٤١ م) لما قيل له : « إن الناس يتكلمون فيك . فقال : ما يقولون ؟ قيل : يقولون إنه تارك للسنة - يعنى النكاح . فقال : قولوا لهم : أنا مشغول بالفرض عن السنة » . كذلك ما حكاه صاحب « عوارف المعارف » أيضاً فقال : « سمعنا أن الشيخ عبدالقادر الجيلي قال له بعض الصالحين : لم تزوجت ؟ فقال : ما تزوجت حتى قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : تزوج ! فقال له : ذلك [١٢٠] الرجل : الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر بالترخص ، وطريق القوم : التزم بالعزيمة ! - فلا أعلم - كذا يقول أبو حفص السهروردي - ماقال الشيخ في جوابه » ، ويأخذ السهروردي في الجواب عن الشيخ عبد القادر الجيلاني ويبرر فعلته . والمهم في هذا عندنا أن نبين الوسيلة التي اتخذها الصوفية في بيان أسباب اتخاذهم التجرد بدل التأهل ، ثم مفاضلتهم بين الحالين بما يجعل التجرد فرضاً على الصوفي .

ونحسب هذا القدر كافياً لبيان الجوّ الذي عاشت فيه رابعة من حيث مسألة التأهل أو الزواج . فهو بالجملة جو يدعو عند الصوفية إلى عدم الزواج ، لأن الزواج يتنافى مع الوفاء بالحياة الروحية العالية وما تقتضيه من مجاهدات وانقطاع لله

وانصراف عن الدنيا وإماتة للشهوات وارتفاع بالمضمون الروحي الباطن بارتفاع الجانب المادى الظاهر . بيد أنه يلاحظ مع ذلك أن هذا كله لم يكن قد استقام على قاعدة ثابتة .

لكن رابعة جاءت فضربت بسهم وافر في سبيل تقنين عدم الزواج عند أصحاب الطريق . ونظن أنه كان لها أثرها الحاسم في هذا التوجيه ، بعد أن كان الأمر في الغالب أمر مزاج شخصى عند الحسن ورياح وإبراهيم بن آدم والدارانى ومن إليهم ؛ إذ صار بمثابة قاعدة كان من الصعب على الصوفية من بعد ذلك الخروج عنها ، وحتى انقطع الشيخ عبد القادر الجيلانى فى الجواب فلم يُحِرْ قولاً لما أن أغمه السائل إياه عن سبب تزوجه . ذلك لأن رابعة امرأة . والغاية العظمى عند المرأة فى الحياة هى الزواج ، ولذا كان له عند المرأة أهمية كبرى أشد بمراحل عدة من أهميته عند الرجل . فإذا وجدناها ، وهى المرأة ، تحرص على عدم الزواج ، فما أبلغنا من قدوة عند أهل الطريق ! ومن هنا كانت مسألة خطبتها مرتين : لعبد الواحد بن زيد ، الصوفى الكبير ، ولمحمد بن سليمان الهاشمى أمير البصرة ، غنيةً بالدلالة على قوة نفسها فى هذا الباب . فإجابتها عن خطبة الأول بقولها بعد أن حجبتة أياماً ولم تشأ أن تراه بعد أن سمعت منه هذا المنكر الأكبر فى نظرها ونظر كل صوفى حقيقى وهو طلبها للزواج منه : «يا شهوانى ! اطلب شهوانية مثلك ! أى شىء رأيت فى من آلة الشهوة ؟ !» ^(١) - هذه الإجابة هى أبلغ ما يمكن أن يقال فى هذا الباب . ففيها تقرير مُرّ لهذا الصوفى الذى يريد الإقبال على الدنيا ، وفيها لوم قارس له لأنه لم يفهمها ولم يفهم رسالتها وهى أنها انقطعت لله ، حبيبها الأوحى ، فلا تريد أن تشغل بغيره ؛ وفى هذه الإجابة كذلك وصف للحال التى صارت إليها وهى أنها صارت من القداسة والطهارة والروحانية بحيث لا يجوز

(١) راجع قبل ص ٥١ ؛ وقد أورده أيضاً ■ لسان العرب ■ تحت مادة : شها .

لأحد أن يخطر بباله أن فيها أثاراً بعدُ للدنيا والشهوة . وهي معانٍ قد أكدتها مرة أخرى في جوابها عن اختيار كبراء أهل البصرة لها زوجةً لمحمد بن سليمان ، أمير البصرة (كان والياً على البصرة سنة ١٤٥ هـ ؛ وتوفى سنة ١٧٢ هـ) ، كما ذكرنا ذلك الجواب من قبل^(١) ، وفيه تنصحه بأن ينصرف عن الدنيا ويتهيأ للأمور الآخرة . ويصوم الدهر حتى يكون الموتُ فطرته ؛ وهي ليست ممن يطلب المال والجاه ، وكل ما يملك منهما لا يمكن أن يغيرها على الاشتغال عن الله طرفة عين .

- ٧ -

إنما نذرت رابعة نفسها لله ؛ وإذا كان الزواج الحق هو زواج الحب ، وحببها الوحيد هو الله — فإذا كان لها أن تقترن بأحد ، أفيغير الله تستطيع الاقتران ؟ !

هنا تأتي نظريتها في الحب فتؤيد نظريتها في الزواج . وهذا هو الجديد حقاً في مذهب رابعة في التجرد والعزوبة .

وتقدم بين يدي هذه النظرية بمقدمات في المصطلح الفني وفي تطور معنى الحب عند الصوفية . فنقول إنه يلوح أن كلمة « محبة » بدت غريبة لما استعملت لأول مرة . وفي هذا الصدد يقول الأستاذ ماسينيون : « كان عبد الواحد بن زيد يرى أن كلمة « عشق » هي الوحيدة المعترف بها في التحدث عن الله ، وكان يرفض كلمة « محبة » على أساس أنها أثر لا يليق من آثار اليهودية والمسيحية . مؤمناً كل الإيمان بالعشق الإلهي (سورة المائدة : ٢٠) . أما مالك بن دينار ومضر القارى و (ذو النون) المصرى فيقترحون اللفظ « شوق » ، بيد أن كلمة « حب » (تحبب . محبة) التي اختارها أبان بن أبي عياش ويزيد الرقاشى وجعفر الصادق (فيما يزعمون) ورابعة — هي التي انتهت بالظفر والسيادة بفضل .

معروف (الكرخي) والحاسبي»^(١). وهو يشير في موضع آخر^(٢) إلى أن كلتي عشق وشوق تشيران إلى الرغبة، أما كلمة محبة فتعبر عن الاتصال الجنسي.

فإذا كان تقرير ماسينيون هذا لمذهب عبد الواحد بن زيد صحيحاً - ولسنا ندرى من أين استقاه لأنه لا يشير إلى مصدر - فإنه سيكون مذهباً غريباً حقاً: أولاً لأن كلمة «حب» (ومحبة، وتجب) قد وردت في القرآن بياناً لإمكان قيام صلة بين العبد والله في آيتين على الأقل هما «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يُحِبِّبْكُمْ اللهُ» (آل عمران: ٣١)، «يأيها الذين آمنوا من يردكم منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه - أدلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين» (المائدة: ٥٤)، فكيف يجفل عبد الواحد بن زيد إذن - وهو من رجال القرن الثاني، أي من المتقدمين - من مثل هذا الاستعمال أو يفضل عليه استعمالاً آخر وهو «العشق» لا نجد له أثراً في القرآن فضلاً عن السنة فالأحاديث التي ورد فيها لفظ «الحب» عديدة^(٣)، بينما لا نكاد نعثّر على حديث واحد ورد فيه لفظ العشق؟ وفضلاً عن هذا فإن المعنى اللغوي أدعى إلى اتخاذ كلمة محبة (أوجب) بدلاً من عشق لأن العشق اسم لما جاوز الحد في المحبة، فإذا كان لا يجوز كلمة محبة (أوجب) فكيف يجوز ما فضل عنها وزاد؟! لهذا نرى صاحب «جامع الأصول» يقول: «ولا يوصف العبد بالعشق لله تعالى، لأن العشق مجاوزة الحد في المحبة، ولا يجاوز أحد في محبة الله تعالى قدر استحقاقه، بل لا يبلغ إلى ذلك القدر ولو اجتمعت محبة الخلق كلهم». لهذا كله نرى أن ما نسب إلى عبد الواحد ابن زيد لا يمكن أن يكون صحيحاً، ولذا نرفضه جملة.

(١) ماسينيون: «بحث في أصول المصطلح الفني للتصوف الإسلامي»، ص ١٧٤ ياريس سنة ١٩٢٢.

(٢) المرجع السابق ص ١٩٢.

(٣) ذكر الشيخ ضياء الدين الكمشغاني خمسة منها في كتابه «جامع الأصول»، ص ٢٨٣.

وهذا يفيدنا في مسألة هامة تعيننا هنا وهي أننا نذهب إلى أن أحداً لم يتكلم في الحب (أو المحبة) الإلهي قبل رابعة، وأنها هي أول من أدخلت هذا المعنى في التصوف الإسلامي، بالمعنى الحقيقي الكامل للحب، لا مجرد التعبير بالألفاظ عنه تعبيراً ظاهرياً.

على أن تمت لفظاً ثالثاً يعبر عن تلك الصلة — إلى جانب « الحب » (أو المحبة) والعشق — وهو « الخلة ». ويظهر أن هذا اللفظ قد استخدم على عهد رابعة، وصار نظرية عند صديقها رياح بن عمرو القيسي. ويفسره صاحب « جامع الأصول »^(١) هكذا: « أما الخلة فهي مشتقة من تحلل الشيء في الشيء. وسمى الخليل خليلاً لتخلل خليله في قلبه، فوجوده مُستَهْلَكٌ في وجوده. فإذا تكلم تكلم فيه، وإذا سكت فهو نُصَبُ عينيه في كل حال. وأنشدوا في ذلك:

قد تخلت مسلك الروح مني ولذا سمي الخليل خليلاً
أنت همي وهمتي وحديثي ورقادى إذا أردت مقيلاً

والصوفي إذا بلغ منزلة « الخلة » هذه بينه وبين الله سقطت عنه التكاليف. واستباح لنفسه مالا يبيحه الله لغيره من الناس، لأن كل مافي الدنيا ملك لله، وبالنسبة إلى الله ينتفى معنى الحرام والحلال، فكل حلٌّ له، وفي حال الخلة يكون العبد الخليل بمثابة الله نفسه أو على الأقل يستحل لنفسه من أموره مالا يمكن غيره أن يستحله. فإذا كان كل مافي الدنيا ملكاً لله، فلخليله الصوفي هذا أن يستحل ما يشاء من هذا الملك.

ويلوح أن هذا قد صار مذهباً منذ أن وضع أساسه رياح بن عمرو القيسي. وكأيب. إذ نرى أبا الحسين اللطفي في كتابه « التنبيه والرد على أهل الأهواء.

(١) « جامع الأصول »، ص ٢٨٦.

والبدع»^(١) يجعله مذهباً يتدرج تحت أحد مذاهب الزنادقة، وهو المذهب الذى يسميه باسم مذهب «الروحانية». والروحانية أصناف ذكر منها خمسة. ولا شك فى أنه يقصد «بالروحانية» هنا بالصوفية، لأن المذاهب التى يسردها ومن ذكر لها، من أشخاص هى مذاهب صوفية. ويمتدنا هنا الصنف الثانى من الروحانية؛ قال الملقى:

«ومنهم صنفٌ من الروحانية زعموا أن حبَّ الله يفلب على قلوبهم وأهوائهم وإرادتهم حتى يكون حُبِّه أغلب الأشياء عليهم. فإذا كان ذلك عندهم» وكانوا عنده بهذه المنزلة، وقعت عليهم «أُخْلَةٌ» من الله «فجعل لهم السرقة والزنا وشرب الخمر والفواحش كلها على وجه «أُخْلَةٌ» التى بينهم وبين الله؛ لا على وجه الحلال، ولكن على وجه «أُخْلَةٌ» كما يحيلُ للخليل الأخذ من مال خليله بغير إذنه [٩١]—منهم: رياح وكُتَيْب، كانا يقولان بهذه المقالة ويدعوان إليها. كذبوا! أعداء الله! وكيف يكون ذلك وإبراهيم الخليل — خليل الرحمن عليه السلام — يُسأل يوم القيامة أن يشفع للناس إلى ربهم ليحكم بينهم فيقول: لست هناك؛ ويذكر ثلاث كذبات — كذا روى عن النبي عليه السلام أنه قال.»

وأهمية هذا النص لاتصاف لها قيمة لأن المؤلف من القرن الرابع؛ ولأن نسبة هذا المذهب إلى رياح بن عمرو القيسى (المتوفى سنة ١٨٠ هـ = ٧٩٦ م) يجعل المذهب قديماً قد عمّر طويلاً إلى حين عهد المؤلف، إن لم يكن فى أتباع يؤمنون به فعلى الأقل كان لا يزال مذهباً يشغل الناس. ثم يهتّمنا خاصة لأنه مذهب رياح القيسى صديق رابعة. فإذا لاحظنا من ناحية أخرى أن الأبيات التى ذكرها صاحب «جامع الأصول» وجعلها تمبيراً عن فكرة «أُخْلَةٌ»، هى من الأبيات المنسوبة

(١) أبو الحسين محمد بن أحمد الملقى: «التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع» ص ٩٠ —

ص ٩١ من مخطوط الظاهرية بدمشق رقم ٥٩ .

إلى رابعة . بدت لنا أهمية هذا المذهب في بحثنا عن نظرية الحب عند رابعة .
فقد ذكر صاحب « القوت » أن هذه الأبيات لها فقال : « ومن قولها النادر في مقام
أُخْلَته . . . » ، ثم يأتي بدينك البيتين ، كما أنه يقول قبل هذا مباشرة :
« وقد كانت (أى رابعة) تذكر الأُنس في وجدها وترتفع إلى وصف معنى
أُخْلَته في قولها السائر :

إني جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحتُ جسماً من أُرَادِ جلوسى
فالجسم مَنى للجلوس مؤانس وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى ^(١)

وبغض النظر عما لنا على صحة نسبة هذه الأبيات إلى رابعة من اعتراض ،
فإننا نكتفى هنا بإبراز ما قصدنا إليه وهو أن أبا طالب المكي كان يرى أن رابعة
قد « ارتفعت إلى وصف معنى أُخْلَته » ، وأن لها أقوالاً « نادرة » في مقام أُخْلَته ؛
وقوله « نادر » معناه هنا « بديع » « جيد كل الجودة » إلخ .

وإذن شاركت رابعة صديقها رياحاً القيسى في القول بمقام الخلة ،
فيجب أن ندخل ذلك في نظريتها في الحب . ولعل هذا أن يفسر لنا تطور نظرية
الحجج لديها إلى حد إسقاطه . إذ يمكن أن يفسر ذلك على أنه كان على وجه
« أُخْلَته » بينها وبين الله . أجل . ليس عندنا من الوثائق ما يكفي لبيان المدى
الذي بلفته في القول بأُخْلَته ؛ بيد أن اعتبار هذا المعنى قد يفيد في إيضاح بعض
الجوانب الفاضلة من مذهبها . ومن هنا نرجح أنها لا بد أن تكون قد شاركت
صديقها رياحاً في إيجاد هذا الرأي ، أعنى القول بأُخْلَته مع ما تقتضيه من إباحة
أو سقوط للتكاليف . أو في القليل آمنت به وسلكت وفقاً لما يقتضيه .
على أن مقام أُخْلَته هذا يمكن أن يفسر على أساس أنه شعور بتجاوز الخير

(١) أبو طالب المكي : « قوت القلوب » ؛ وأورده الزبيدي في « إتخاف السادة »

والشر. ذلك أن القيم الأخلاقية لا اعتبار لها إلا بالنسبة إلى بنى الإنسان والدنيا .
أما وهما - رابعة ورابع - قد تجاوزا نطاق البشرية وصارا يلوذان بجوار الألوهية ،
واطرحا الناسوت وشاع فيهما اللاهوت وتخلت روحيهما نفحات الربوبية .
ثم هما من جانب آخر قد خرجا عن الدنيا وأصبحا يطوفان بالملأ الأعلى ،
فإنهما قد صارا بمعزل عن تلك القيم الأخلاقية ، أغنى فوق مستواها .

وهذا رأى خطير ، خصوصاً في مثل هذا العصر المبكر للفكر الإسلامى .
فهو يدل على نضوج سريع لهذا الفكر من ناحيتى الدين والروحية العليا ، وبخاصة
إذا لاحظنا أن من العسير أن نجد لمثل هذه الأفكار سوابق فى الأفكار الشائعة
فى تلك البيئة ، حتى يكون تأثر عنها . ويلوح كذلك أن هذا المذهب لم يجد
صداه السريع ؛ بل لابد أن ننتظر الخلاج فى نهاية القرن الثالث وأوائل الرابع
كياً نجد صورة واضحة قوية له .

نظرية رابعة إذن فى الحب يدخل فيها معنى الخلة ؛ لكن هذا هو الجانب
العملى أو الأخلاقى . أما الجانب العاطفى الخالص فيتمثل فى بعض الأبيات
المنسوبة إليها ، وفى الأقوال التى يروى أنها تفوهت بها .

وأشهر هذه الأبيات تلك الرباعية المشهورة :

أحبك حبين : حب الهوى ،	وُحِبّاً لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى	فشغلى بذكرك عمّن سواكا
وأما الذى أنت أهل له	فكشفتك للحجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذاء ولا ذاك لي	ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا ^(١)

وأول ما تثيره هو صحة نسبتها إليها . فكما يقول المرتضى الزبيدي : « حملها عنها (أى نسبتها إلى نفسه) أهل البصرة وغيرهم : منهم سفيان الثوري وجعفر ابن سليمان الضُّبَعِيّ وعبد الواحد بن زيد وحامد بن زيد » . على أن هذا ليس بدافع للشك الجدّي في إمكان صحة نسبتها إليها؛ فإلى أن يقوم دليل عكسي ثابت بالوثائق الجازمة ، نستطيع أن نمدّها لرابعةً حقاً .

في هذه الأبيات تميز رابعةً بين نوعين في الحب : حب الوداد أو الهوى ، والحب الخالص . والأول حب ناقص ، والثاني حب كامل . بيد أنها لا تختار هنا بين الواحد والآخر ، إنما تأخذ بهما معاً . ومن هنا فنحن نفترض لهذه الأبيات عهداً مبكراً شيئاً ، لم تكن قد بلغت فيه بعدُ المقام الأعلى للحب .

ولنبداً ببحثنا هنا ببيان التفسيرات التي أدلى بها الصوفية لهذه الأبيات؛ فنجد أول ما نجد أبا طالب المكي في « قوت القلوب »^(١) يفسرها هكذا : « فأما قولها : حب الهوى ، وقولها : حب أنت أهل له ، وتفرقتها بين الحيين ، فإنه يحتاج إلى تفصيل حتى يقف عليه من لا يعرفه . وَيُخْبِرُهُ من لم يشهده . وفي تسميته ونعت وصفه إنكاراً من ذوى العقول ممن لا ذوق له منه ، ولا قدر له به ؛ ولكنا نُجَدِّلُ ذلك وندل عليه من عرفه : معنى حب الهوى : أى رأيتك فأحببتك عن مشاهدة اليقين . لا من خبر وسمع تصديق من طريق النعم والإحسان . فتختلف محبتي إذا تغيرت الأفعال لاختلاف ذلك عَلى ؛ ولكن محبتي من طريق العيان ، فقرَّبْتُ منك . وهربتُ إليك . فاشتغلتُ بك لما تفرغتُ لك ، كما قال الحب :

فَرَّغْتُ قَلْبَهَا اشْتِغَالًا بِذَكَرِي وَكَذَا كُلُّ فَارِغٍ مَشْغُولٌ

وعلى هذا المعنى قوله تعالى : « وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً » . أى ملآن

(١) أبو طالب المكي : « قوت القلوب » ، ص ٢٠٦ وما يليها . وأورده المرتضى الزبيدي في : « إتحاف السادة » ، ص ٥٧٧ .

بذكره حتى فاض فكادت أن تظهره فتقول : هو ابني . فعبّر عن الملء بالفراغ من ضده ، لولا أن أولينا عليه بربطنا فكطمت . ولولم تفعل لأظهرت . ولو أظهرت لقبيل .

وأما الحب الثانى الذى هو أهل له : تعنى حبّ التعظيم والإجلال لوجه العظيم ذى الجلال . تقول : ثم إنى مع ذلك لا أستحق هذا الحب ولا أستأهل أن أنظر إليك فى الآخرة على الكشف والعيان فى محلّ الرضوان . لأن حُبّى لك لا يوجب لك جزاءً عليه . بل يوجب علىّ كلّ شىء بما لا أطيعه ولا أقوم بحقك فيه أبداً ؛ إذ كنت قد أحبيتك فلزمنى خوفُ التصغير ، ووجب علىّ الحياه من قلة الوفاء . والخوف لما تعرضتُ به من حُبك ، إذ ليس كمثلك شىء ، كما قال الحب :

أصبحتُ صَبَباً ، ولا أقول بَمَنْ خَوْفاً لمن لا يخاف من أحد
إذا تفكرتُ فى هَوَاى له لمست رأسى : هل طار عن جسدى ؟!

لولا أن الحب يُنطق ، والشوق يُغلق ، والوجد يُحرق فالحبُّ لا يلام لغيبه النفس عنه ، وإلا نام . تقول (أى رابعة) : تفضلتُ علىّ بفضل كرمك ، وما أنت له أهلٌ من تفضلك ، فأزيتنى وجهك عندك آخراً ، كما أريتنيه اليوم عندك أولاً ؛ فلك علىّ ما تفضلتُ به فى ذاك عندى فى الآخرة . ولا حمدلى فى ذا هاهنا ، ولا حمدلى فى ذاك هناك ، إذا كنتُ أنا وصلتُ إليهما بك ؛ فأنت الخمود فيهما لأنك وصلتني بهما . فهذا الذى فسرناه هو وجد المحبين المحققين .

وخلاصة تفسير أبى طالب المكي هذا هو أن حب الهوى هو الصادر عن طريق النعم والإحسان ، أعنى الحب الناشئ عن المنح والهبات والأفضال ، فهو حبّ التنعم بأنعم الله ، هو حب حسى ، لأن المقصود بالتنعم هنا النعم المادية . لا الهبات القدسية . بيد أن هذا الحب ليس متغيراً بتغير أحوال النعم : فإذا كثرت

تراد وإذا قلت تحقص؛ إنما هو حب ثابت، لأن صاحبه نظر إلى المعنى الكامن وراء النعمة أيًا كان مقدارها، وهو معنى لا يتغير، لأنه مجرد الفضل، ودليل بالرضا؛ فهو إذاً لا يتجزأ ولا يختلف باختلاف المنعم به، وبهذا يلحق بالمعنى الروحي اللامادى، وإذن فالاختلاف بينه وبين الحب الآخر، الخالص «لوجه العظيم»، ليس في ماهيته بقدر ما هو في دواعي إثارته ومصادر إيجادها. ولهذا كان عن طريق العيان المباشر.

أما الحب الذي هو أهلٌ له فهو — في تفسير صاحب «القول» — «حب التعظيم والإجلال لوجه العظيم ذي الجلال» — أعنى أنه الحب الذي لم يكن باعثه نعمة، ولا مدخل فيه للمتعة الحسية، بل باعثه المحبوب نفسه لذاته وبذاته. وهذا الحب لا يستوجب جزاءً عليه، بل كل الواجبات تقع على الحب وحده، وهي واجبات إنما يفرضها مجرد الحب، ويستازمها مجرد وجود المحبوب؛ فلما كان وجوده لا متناهياً، فإن الحب لا متناهٍ، والواجبات هي بالتالي لا متناهية، ولذا يوجب هذا الحب على المحبوب كل شيء مما لا يطيقه ولا يقوم بحقه فيه أبداً. ومن هنا مازجه الخوف؛ الخوف من عدم الوفاء بالواجب، وهو خوف دائم لأن الواجب في هذه الحال هو كما قلنا لا يقف أبداً، ولا يقوم المرء بحق المحبوب فيه أبداً. ومن هنا أتبرت هذه المسألة التي ذكرها المحاسبي فقال: «قيل لمُضَرَّ القارىء: الخوفُ أولى بالحب أم الشوق؟ فقال: هذه مسألة لا أُجيب فيها: ما اطلمتُ بالنفس على شيء قطُّ إلا أفسدته»^(١). على أن هذا الخوف هو الذي يثير القلق في الحب، والقلق هو الذي يهب هذا الحب — بالرغم من طابعه السكوني الاستاتيكي — جانباً حركياً ديناميكياً ظاهراً؛ وهو جانب لا ينتهي إلا في مقام الوصول الكامل، وأنى للصوفي الحقيقي أن يبلغه! هيهات! هيهات!

(١) أوردته أبو نعيم في «حلية الأولياء» ١٠٥، ص ٧٨. القاهرة سنة ١٩٣٨.

وهذا المعنى أفاض فيه المحاسبي في الموضع نفسه فقال: « الحب لله في نفسه استغارة القلب بالفرح لقربه من حبيبه . فإذا استنار القلب بالفرح استلذ الخلوقة بذكر حبيبه . فالحب هائج غالب » والخوف في قلبه لازم لا هائج ؛ إلا أنه قد ماتت منه شهوة كل معصية ، وهدى لأركان شدة الخوف « وحل الأُنس بقلبه لله — فعلامه الأُنس استئصال كل أحد سوى الله . فإذا أَلِف الخلوقة بمناجاة حبيبه ، استفرقت حلاوة المناجاة العقل كسله حتى لا يقدر أن يعقل الدنيا وما فيها . ومن ذلك قول ضيفم العابد : عجباً للخليفة كيف استنارت قلوبهم بذكر غيرك !! » . وفي هذا وصف جيد دقيق لهذا « الحب لله في نفسه » وهو ما تعنيه رابعة بالحب الثانى الذى « هو » (أى الله) أهل له .

ثم يتابع صاحب « القوت » تفسيره فيقول إن الله تفضل على رابعة فأراها وجهه عنده آخرأ ، كما أراها وجهه عنده ذلك اليوم أولاً ؛ ومعنى ذلك أن الله قد تفضل عليها في هذه الحياة الدنيا بمعاينة سُبحات وجهه ، وكذلك سيتفضل عليها برويتها إياه في الآخرة . فكان قولها : « ذا » ، يشير إلى المعاينة في الدنيا ، وقولها : « ذاك » يشير إلى المعاينة في الآخرة . ثم إنها لا ترى لنفسها فضلاً في هذين الأمرين ؛ بل لله وحده الفضل في كليهما ، وله وحده الحمد على كليهما ، لأن الظفر بهما كان عن طريقه .

وهذا التفسير كله لا نكير عليه ، إلا شئ من عدم التدقيق ، خصوصاً في جانب حب الهوى . على أنه حاول أن يربط بينهما عن طريق فكرة المعنى الباطن في النعمة ، لا كمها أو كيفها ، مما أضنى على حب الهوى طابعاً روحياً ظاهراً . ووفق خصوصاً في إبراز فكرة العيان المباشر في الحب الأول لأنها معقد الصلة بين كلا الحين . إذ أن في هذه المعاينة المباشرة ما يضمن الجانب الروحى في حب

الهوى . إنما الذى يؤخذ عليه هنا هو أنه بالغ فى إيضاح فكرة العيان بالنسبة إلى حب الهوى ، حتى جعله يتجاوز عن مقصودها الحرفى . فهى تقول إن حب الهوى هو شغلها بذكر الله عن سواه . فهى إذاً فى مقام الذكر ؛ وحقيقة الذكر هى ، كما يقول الكلاباذى ، «أن تنسى ما سوى المذكور فى الذكر^(١)» ؛ فهونسيان كل شيء ، وذكر شيء واحد هو الله . ولذا يتم على مرحلتين : نسيان ما سوى الله ، والتخلص من هذا النسيان . وفى هذا يقول صاحب «جامع الأصول^(٢)» : «الذكر : وأصله هاهنا اخلاص من النسيان بدوام حضور القلب مع الحق . وصورته فى البدايات : الذكر الظاهر ؛ وفى الأبواب : الذكر الخفى ؛ وفى المعاملات : ذكر القمائل ما يريد — برؤية الأفعال كلها منه والأمور كلها بيده ؛ وفى الأخلاق ذكر الأخلاق الإلهية والتشوق إلى التخلق بها . ودرجته فى الأدوية : تلقى المعارف والحقائق منه ، وإلقاء السمع فى إمراره إليه . وفى الأحوال : لزوم المسامرة والمناجاة . وفى الولايات : دوام المصافاة والمناجاة . وفى الحقائق : دوام المشاهدة والمعينة . وفى النهايات : شهود ذكر الحق إياك ، والتخلص من شهود ذكرك إياه » ومعرفة افتراء الذاكرك فى بقاءه مع ذكره . فمن هذا يتبين أن فى الذكر مشاهدة ومعينة ، ولكنها ليست معينة الوجه للوجه بعد كشف الحجاب ؛ وإلا اختلط حب الهوى وحب الله فى نفسه ، أو الحب الذى هو أهل له . ورابعة حريصة على تأكيد التفرقة فى هذه الرباعية . أجل « قد تنتهى إلى المزج بينهما لما أن يبلغ الذكر مرتبة الحقائق ثم يصاعد منها إلى مرتبة النهايات ؛ بل هذا هو ما حدث لها فعلاً ؛ بيد أنها فى هذه المرحلة التى تعبر عنها هذه الأبيات لمّا تفعلُ بعدُ .

(١) أبو بكر الكلاباذى (المتوفى سنة ٣٨٠ هـ — ٩٩٠ م) «التعرف لمذهب أهل

التصوف» ص ٧٤ — القاهرة ١٩٣٣ م

(٢) ص ٣٥١ .

إنها لاتزال تقول بثنائية في الحب = حب المذكور ، وحب الذكر ؛ ولم تفعل
بعد ما سيفعله الحلاج من تفضيل حب المذكور (= حب الله في نفسه = الحب
الذي هو أهل له) على حب الذكر (= حب الله لِنِعْمِهِ = وهو حب فيه متعة
حسية شخصية)^(١) . فتى رَفَعَتْ رابعةُ هذه الثنائية ؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال نعود فنتم ما يتصل بتلك الأبيات . فنقول
إنه عن تفسير أبي طالب المكي هذا أخذ الغزالي في « الإحياء »^(٢) ، فقال :
« ولعلها أرادت بـ « حب الهوى » حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ
العاجلة — ؛ وبـ « حبه لما هو أهل له » الحب لجلاله وجلاله الذي انكشف لها ،
وهو أعلى الحيين » . والغزالي بهذا لم يفعل إلا أن نقل ملخصاً كلام صاحب
« القوت » بحروفه ، شأنه في أغلب فصول كتابه « الإحياء » في الموضوعات
المشتركة بينه وبين « قوت القلوب » ، مما يعطينا شاهداً آخر على مقدار مالىدى
الغزالي من أصالة !! والزبيدي^(٣) فى شرحه « للإحياء » قد أشار إلى هذا فى
هذا الموضوع نفسه فقال بعد إيراد تلك الأبيات التى وردت فى نص « الإحياء » :
« وقد تكلم صاحب « القوت » على هذه الأبيات بكلام ساطع الأنوار ،
يعرفه من رُزِقَهُ (= الحب) وينكره من حُرِمَهُ . والمصنف (= أبو حامد
الغزالي) رحمه الله أشار إلى زُبْدَةِ كلامه (= أى كلام صاحب « القوت »)
أبى طالب المكى) » .

فانمض عن الغزالي إذن إلى الشيخ الحريفيش الذى ذكر هذه الأبيات فى
إطار آخر وإن كان بصدد الحديث عن رابعة ، فقال : « قال سعد بن عثمان :

(١) راجع : ماسينيون : « عذاب الحلاج » ، ص ٦٢٣ — ص ٦٢٤ ، وراجع
خصوصاً : ماسينيون : « بحث فى أصول المصطلح الفنى للتصوف الإسلامى » ، ص ١٩٣ .
باريس سنة ١٩٢٢ .

(٢) الرضى الزبيدى : « تحواف السادة » ، ص ٩٠ ، ص ٥٧٧ .

كنتُ مع فتى النون المصرى رحمه الله فى تيه بنى إسرائيل ، وإذا بشخصٍ
تقد أقبل ، فقالتُ : يا أستاذ ! شخصٌ قد أتى . فقال لى : انظرُ من هو ، فإنه
لا يضعُ أحدٌ قدمه فى هذا المكان إلا صديق . فنظرتُ فإذا هى امرأة . فقلتُ :
يا أنها امرؤة .. فقال : صديقة ورب الكعبة . فابتدر إليها وسلم عليها فقالت : ما للرجل
ومخاطبة النساء ! فقال : أنا أخوك ذو النون ، ولستُ من أهل التهم . فقالت :
مرحباً ! حياك الله بالسلام ! فقال لها : ما حملك على الدخول فى هذا الموضع ؟
فقلتُ : آية من كتاب الله عز وجل - قوله تعالى « ألم تكن أرضُ الله واسعةً
فتهاجروا فيها !؟ » . - فقال لها : صِفي المحبة ! فقالت : سبحان الله ! أنت عارفٌ
بها ، وتتكلم بلسان المعرفة وتسالنى عنها ؟ ! فقال لها : للسائل حقُّ الجواب .
فأنشدت تقول : أحبك حين ... » ^(١) ثم يأتى بالأبيات الأربعة .

وبواضح أن هذه القصة أسطورية إن قصد بهذه المرأة رابعة كما يريد المؤلف .
أن يوحى إليه - وذلك أن ذا النون المصرى إنما ولد حوالى سنة ١٨٠ هـ
(= سنة ٧٩٦ م) أى فى الوقت الذى توفيت حواليه رابعة ؛ فهنا استحالة
تاريخية إذن - وإنما هى من تلك الأقاصيص الشائعة عند مؤرخى الصوفية للربط
بين كبار الشخصيات فى التصوف ، حتى لو لم يتفق هذا مع الإمكان التاريخى ؛
ومن شعروا بهذه الاستحالة التاريخية سرعان ما راحوا يزيفون فى التواريخ نفسها
حتى ييسروا هذا التلاقى - والعلة فى هذا الحرص الشديد على الربط واللقاء هى تواتر
السند بحيث يتصل الإسناد الحى ، لأن فى اتصاله ضماناً لصدقه ورفعاً للذاتية فيه ؛
كما هو شأن الروح العربية فى كل تصوراتها : فى النبوة ^(٢) تحرص على التسلسل

(١) الشيخ الحريش : « الروض الفائق فى المواعظ والرفائق » المطبعة اليمنية ، القاهرة

سنة ١٣٠٤ هـ - سنة ١٨٨٦ م ، ص ١١٧ - والآية من سورة النساء رقم ٩٩ .

(٢) راجع كتابنا : « الإنسانية والوجودية فى الفكر العربى » ، ص ١٤٣ -

ص ١٤٤ ، القاهرة سنة ١٩٤٧ .

الطولى بحيث يكون الأنبياء جميعاً سلسلة واحدة متصلة الحلقات ، تأخذ قوامها الحق لا عن أفراد الأنبياء تفاريق ، بل عن وحدة التسلسل فيها مجتمعين ؛ وفي الرواة ، المحدثين ؛ وفي الإجازات في مختلف مرافق الحياة الدينية . فهذا هو الذى يفسر لنا وجود هذه الظاهرة الفذة في عالم الروح العربية - ظاهرة الحرص الشديد على الإسناد التاريخى الحى المتصل - : أعنى أن العلة هي القضاء على الذاتية ، وتوكيد التسلسل حتى يتصل بالكلمة العليا ؛ ولذا ترى الإجازة الحقيقية ، أو الإسناد الحق ، لا بد أن ينتهى بالنبي أو الملائك الصادر مباشرة عن الله في خاتمة المطاف . ولعل من أوضح الشواهد وأغربها في هذا الباب فكرة المصافحة وتسلسلها التاريخى حتى تنتهى بالنبي ، والرسائل عديدة في موضوع المصافحة مما يدل على مدى الاهتمام الشديد بالفكرة عينها^(١) .

إنما تفيد في بيان الفكرة التي كانت لدى أولئك المؤرخين الذين ابتدعوا القصة عن نظرية الحب منسوبة إلى رابعة بوصفها أول من تحدث عنها ، ولذا كانت أجدر الناس بأن يتلقى عنها معانى المحبة . فإذا كان في تقدير الصوفية أن رابعة هي التي لقت الناس مذهب المحبة ؛ فمن يتكلم بعدها عن المحبة يجب أن يأخذ عنها حتى تكون معرفته بها كاملة . لهذا ترى أن الذين وضعوا هذه القصة إنما أرادوا خصوصاً أن يرفعوا من شأن ذى النون بأن يجعلوه يتلقى علم المحبة عن صاحبة هذا العلم الأولى ، رابعة .

على أنا نرى هذه القصة ترد بصورة أخرى في كتاب « مصارع العشاق » لأبي محمد السراج القارى^(٢) ، صورة قد ازداد زخرفها وارتفعت نبرتها ، ومن هنا

(١) راجع مثلاً « مصافحة الرسول صلى الله عليه وسلم » للاقاسم التويمجرى النقشبندى القادري ، وفيها بين تسلسل المصافحة منه إلى شيخه ثم من شيخ إلى شيخ حتى يرتفع إلى النبي ، في مخطوطة الفاتيكان برقم ١٢٤٢ ورقة ٣٢ ب إلى ٣٣ . وراجع فهرست مخطوطات برلين ١٦٠٦ - ١٦٠٨ وفهرست مخطوطات الفاتيكان لليشى لا فيدا ص ١٩٢ .

(٢) ص ١٨٠ - ١٨١ ، طبع الجوايب باستانبول سنة ١٣٠١ - ١٨٨٣ م وقد نقلها ، عن السراج ، الزبيدي في « آتحاف السادة » - ٩ ص ٦٨٨ .

انتهت على هيئة مأساة . ذكر السراج القارى فقال : « قال ذو النون : بينما أنا أسير على ساحل البحر ، إذ بصرتُ بجارية عليها أطمار شَعْرٍ ؛ وإذا هي ناحلة ذابله . فدنوتُ منها لأسمع ما تقول . فرأيتها متصلة الأحران بالأشجان . وعصفتُ الرياح واضطربتُ الأمواج وظَهَرَتِ الحيتان ، فصرختُ ثم سقطتُ إلى الأرض . فلما أفاقَتُ مُحَتُّ (!) ثم قالت : سيدى ! بك تقرب المتقربون فى الخلوات ؛ ولعظمتك سبحت الحيتان فى البحار الزاخرات ، ولجلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطيات . أنت الذى سجد لك سوادُ الليل وضوءُ النهار ، والفلك الدَّوَّارُ ■ والبحر الزَّخَّارُ ، والقمرُ النُّوَّارُ والنجمُ الزَّهَّارُ ؛ وكلُّ شَيْءٍ عندك بمقدار ، لأنك الله العليُّ القَهَّارُ ■

يا مُؤَنِّسَ الأبرارِ فى خَلَوَاتِهِمْ يا خَيْرَ من حَمَاتٍ به التَّنْزَالِ
مَنْ ذاق حُبِّكَ لا يَزَالُ مَتِيماً فَرَحُ الفُؤَادِ — مَتِيماً — بِلِبَالِ
مَنْ ذاق حُبِّكَ لا يُرى مَتَبَسِّماً من طول حزن ، فى الحشا إشعالِ

فقلتُ لها : زِيدِينا من هذا ! فقالت : إليك عني . ثم رَفَعَتْ طرفها إلى السماء ■ وقالت :

أحْبَبْتُ حَبِيبَ : حَبِّ الودادِ وَحُبِّا لأنك أهلٌ لَذاكَ
فأما الذى هو حَبُّ الودادِ فحَبُّ شُعَلتُ به عن سِوَاكَ
وأما الذى أنت أهلٌ له فَكَشَفَكَ لِاحْتِجَابِ حَتَّى أراكِ
فما الحمد فى ذا ، ولا ذاك لى ولكن لك الحمدُ فى ذا وذاكِ

ثم شَهَقَتْ شهقة فإذا هى قد فارقت الدنيا . فبقيتُ أتعجب مما رأيتُ منها ؛ فإذا بنسوةٍ قد أقبلن ■ عليهن مدارعُ الشَّعْرِ ؛ فاحتلمنها ■ ففِينها عن عيني ■ ففَعَلْنها ثم أقبلن بها فى أكفانها ؛ فقلن لى : تقدَّمْ فَصَلِّ عَلَيْها . فتقدمتُ وصليتُ عَلَيْها وهُنَّ خلفى . ثم احتلمنها ومضين ■ . والقصة لاشك رائعة ، ولكنها تنتسب كلها إلى

أسطورة رابعة ، وما ذكرناها هنا إلا لأنه وردت فيها أبياتنا هاتيك . وكما هو الشأن دائماً في القصص حينما يتقدم بها العهد ، ضاع اسم رابعة ، ونسبت الأسطورة إلى جارية مجهولة ؛ ثم رقت حواشيتها فأمعن فيها إزميل الخيال المثال ، وتداعت أطرافها فصال فيها الفن المسرحي وجمال : فكان افتتاح *prologue* في هذه النجوى التي وجهتها إلى الله ، وكان وصف لتجربة العشق الإلهي العنيفة القاسية ترددت فيها الأحداث الباطنة على مسرح القلب ، فلما بلغت العقدة ، بأن ارتفعت بالحب إلى حب الجلال والجمال ، حب الله في ذاته ولذاته ، كانت الخاتمة فأسدلت ستور مأساة غرامها الإلهي على مشهد أولئك الملائكة — النسوة اللاتي رفعنها إلى حيث ترقد رقدتها الأخيرة في السماء ، وكأنها جرتشن في «فاوست الثاني» ؛ لكن الذي رفعها إلى عليين لم يكن الأنوثة الخالدة *Das Ewig=weibliche* ، بل العشق الإلهي الشهيد . لكن من يدري ! فلعل الأنوثة الخالدة والعشق الإلهي سيان .

وعدم ذكر اسم رابعة في كلتا الروايتين المتقدمتين لا يمكن أن ينهض دليلاً على أن الأبياب ليست لرابعة ، خصوصاً إذا لاحظنا تأخر زمن صاحبها ، وما اعتورها من ألوان التمزيق المشكك في صحة الروايتين إجمالاً . بل يجب أن نضع اسم رابعة مكان الجارية « في الرواية الثانية » ، « والمرأة الصديقة » في رواية صاحب « الروض الفائق » ؛ ثم نضيفهما معاً إلى أسطورة رابعة دون أن يقدر ذلك في صحة بعض قيمات هذه الأسطورة تاريخياً ؛ ومن بينها صحة نسبة الأبيات الأربعة إليها . على أن مجرد صياغة أمثال هذه الاساطير أنضع دليل على قيمة هذه الأبيات ؛ مما حمل الرواة على أن يتبدعوا لها إطاراً رائعاً يتفق وجمالها وعمق معناها ؛ ولعل هذا أن يفسر لنا السر في ألوان التزويق والاستعراض المسرحي الذي عمل من أجلها .

وفي وسعنا الآن بعد هذا العرض التاريخي لتفسير هذه الرباعية أن نجعل المقصود منها فنقول إن رابعة كانت لا تزال في ذلك الحين تترجح بين حينين : حب الهوى ، أو حب الوداد ، وهو حب مبغته يتم الله على العبد، وهو لهذا ليس خالصاً لوجه المحبوب ؛ والذكر فيه — وإن اقتصر على المحبوب — فإنه لا يزال يحول في ليل الحواس ، لأنه تجريد مستمر للمحسوس ، وبالتالي ذكر للمحسوس . وفي الذكر بقية من التعلق . ثم حب الله في نفسه كما يقول المحاسبي « أو « الحب الذي هو (= الله) أهل له » كما تقول هي « وهو حب لا باعث له إلا المحبوب نفسه » وليس فيه حب للذكر « أى النعمة والمحسوس » بل هو حب للمذكور وحده ، ولوجه ذى الجلال والإكرام . وفيه تنكشف الحجب حتى تتيسر المعاينة . وليس في قولها هنا ما يؤذن صراحة بأنها ظفرت بهذه المعاينة فعلا لوجه الله ؛ بل هي في معرض الوصف لما عسى أن يؤدي إليه هذا الحب . وهي لا تزال تشعر بأن ظفرها بالغاية في كلا النوعين من الحب لا يمكن أن يأتي إلا عن طريق الهبة من الله ، شأن ذلك شأن التوبة كما رأينا آنفاً ؛ مما يؤكد مرة أخرى أنها لا تزال في الدور السابي الذي تتلقى فيه كل شيء عن الله « فلا تزال إذن في حال انفعال مطاق بالنسبة إليه .

لهذا كان عليها أن تناضل في طريق الحب حتى تحيل الجانب السلبي إلى جانب إيجابي ، شأن كل صوفي حق . لأن السلب هو دور تمهيدى فحسب ، فلو اقتصر عليه الصوفي لما وصل . ويمكن أن يشبه الأمر هنا بأمر العقل الفعّال وأمر العقل المنفعل ؛ فهذا الأخير مرحلة تمهيدية ، فيها تقبل خالص للصور منطبقة على المحسوسات ، ولا يزال المرء فيه عالة على الخارج ؛ وإنما يبلغ العقل مرتبة :

الكمال إذا استحال إلى عقل فعال ، يبدع المدركات ويفيض بالمقولات. فمثل العقل الفعال والعقل المنفعل هو مثل الدور الإيجابي والدور السلبي في طريق التصوف ، ومنه طريق المحبة .

لكن الانتقال والتصاعد من دور السلب إلى دور الإيجاب مليء بالمتاعب والمجاهدات وألوان الألم وخيبة الأمل . وكلنا يذكر تلك الصفحات الرائعة التي كرسها صوفي مثل يوحنا الصليبي San Juan de la Cruz لما يعانيه المرء في « الليلة الظلماء » . فماذا كان حال رابعة في ليلتها هي الظلماء ؟

لدينا عنها روايات وأقوال ، يأتي على رأسها ما حكاه العطار في « التذكرة » فقال : « يحكى أن رابعة كانت تنوح باستمرار . فسئلت : لماذا تنوحين وما ثمت ألم عسك تشكين منه ؟ فأجبت : واحسرتها ! العلة التي أشكوها ليست مما يستطيع الطبيب علاجه . إنما دواؤها الوحيد رؤية الله . وما يعينني على احتمال هذه العلة إلا رجائي أن أحقق غايتي هاتيك في العالم الآخر » .

ما أشبه قولها هذا بقول أوغسطين : « أموت من كوني لا أموت كما أرى وجهك » ! كلاهما يسعى لرؤية الله ، لكنه لم يبلغ بعد مرتبة تسمح بتحقيق هذه الرؤية ؛ فـقنط من بلوغ هذه الدرجة في الدنيا ؛ ولذا يطلب الموت لأنه وحده الذي سيسر السبيل إليها . إنه إذن في حال اليأس من البلوغ ، والقنوط من الوصول .

وما أبدع العبارة في وصف ما تشكوه ! لقد ألحت عليها الرغبة في الرؤية حتى استحالت مرضاً ، مرضاً تألم له ، لأن الحب قد صار من القوة والنفوذ بحيث حصارت له آثام توغل في أعماق الروح فتصيبها بالعلّة . هنا « المرض حتى الموت » من شدة الألم العالى ؛ هنا « الصرخة من أعماق الهاوية » هاوية الليلة الظلماء للحواس ، وإن كانت تبذل كل ما في وسعها للخلاص منها ؛ بل هي في عروج من

« ليلة الحواس » إلى « ليلة الروح » ، لكنها لا تزال تتخبط في الظلام، وهيهات بعدُ أن يبرز فجر ! نعم ، إن طائفاً من النور يطوف بروح رابعة بين الحين والحين ، وهو طائف « الرجاء » المنحدر إليها من حفاقي عابيين ؛ لكنه نور محبوب ، نور خاطف ، نور يصارع الليلة الظلماء في لهفة وإعياء كأنه الخيوط الأولى المتناثرة في صفحة الأفق الوسنان . ومع هذا فلتتعلق بأهداب هذا النور الخاطف ، ففيه من الرؤى ما يعينها على أن تتذوق مقدماً *avant-goût* أثاراً مما ستتذوقه بعدُ في الحضرة الكاملة . هي رؤى من نوع تلك التي وصفها يوحنا الصليبي فقال : « تتخطف البصرُ صورٌ ... ورؤى للقديسين والملائكة ... وأضواء وإشعاعات .. وتسمع الأذن كلمات غريبة ... ؛ ويستروح الشمُّ عطوراً فاغمة ... ويستطيب الذوق طعوماً شمية محضة الحلاوة ؛ ويحسُّ اللمس نعومة عميقة . لكن هذه الظواهر جسمانية على الأخص » لهذا لا بد من الظن أنها ليست من مصدر إلهي^(١) . فلا بد من استبعاد حتى هذه الصور نفسها ، خوفاً من أن يقتصر عليها المرء فنزل قدمه ، أو بالأحرى يحسب نفسه قد وصل وما كان من الواصلين .. ولذا فإن في بوارق هذا الرجاء من العَرَر بقدر ما فيه من الفائدة .

إن هذا الرجاء في الآخرة ، وهو الاشتياق إلى الجنة ، لا يزال متلبساً بالمحسوس ، لأنه يفترض أن الحب لا يزال يطلب جزاءً ، وأنه ليس خالصاً لوجه الله . بل فيه طمع في الجنة ، طمع في مادي محسوس . ومن هنا كان عليها أن ترتفع فوق هذه المرتبة التي تعبر عنها القصة التي رواها العطار ، فتفعل ما سيفعل يوحنا الصليبي من أطراح هذه البوارق الخداعة . وذلك بأن تعدّ في الشوق إلى الجنة نفسها خطيئة ؛ وهو ما دَبَّرَتْ عنه أجل تمبير فيما حكاه الكلاباذي في كتاب «التعرف

(١) يوحنا الصليبي : « صعود الكرمل » ، ج ١ ص ٩١ ترجمة . - هورناير ، باريس ، سنة ١٩٢٣ : Saint Jean de La Croix Montée, du Carmel, tr. H. Hornaert.

لمذهب أهل التصوف في باب « لطائف الحق بهم في غيرته عليهم » فقال :
« دخل جماعة على رابعة يعودونها من شكوى فقالوا : ما حالك ؟ قالت : والله
ما أعرف إيمتي سبباً ! عُرِضْتُ على الجنة فَبِلْتُ بقلبي إليها ؛ فأحسبُ أن
مولاي غار علي فعاتبني ؛ فله المُتَبِي »^(١) . وقد روى ذلك المناوي في « طبقات
الأولياء » فقال : « ومَرَّضَتْ (أى رابعة) فقال لها عُوَادها . ما سبب عاتك ؟
قالت : نظرت بقلبي إلى الجنة فأذاني ؛ فَبِتُّ أن لا أعود »^(٢) . والمعنى قريب في
كلتا الروایتين ؛ وخلاصته أنها صارت تمدُّ النظر بقلبها إلى الجنة بمشابة إِمِّ اقترفته ؛
يعاقبها الله عليه ؛ ولذا تابت عنه وقررت أن لا تعود إليه . فبينما في رواية العطار
السالفة نرى رابعة لا تزال ترمق الجنة بنظرها وتضع رجاءها فيها ، نجدها هنا ترى
في هذا منكرأ تستحق من أجله العقاب ، أو في القليل العتاب من الله . وهذا يؤذن
بتطور هائل في سلوك رابعة — إنها الآن في مقام قاب قوسين أو أدنى .

— ١٠ —

ألا فلتتقدمي إذن بكل شجاعة في هذا الطريق ؛ أى رابعة ! لقد بدأت
الخطوة الأولى في المرحلة الحاسمة النهائية، فماذا يحتجزك ؟ أبقية من تقاليد وأوضاع،
وسُؤار من سُنَّة فقهاء ، وحرف صامت جامد ؟ إذن فلتكسري التقاليد ولتقلبي
الأوضاع ! إذن فلتستني سُنَّة أخرى ، فما سنة الفقهاء إلا إحدى السنين ، هي سنة
الجموع والجماعة ، فلا تصلح للفرد الممتاز ! والحرف الصامت ماذا يخيفك منه ؟
الحرف يَبْتُلُ ، والروح تُحْيِي ؛ والحرف رمز ، والمقصود هو المعنى ؛ فهاًياً أعلني
الثورة على الحرف القائل كما ترفعي راية الروح الحية ؛ ولتخطي قيد الرمز، حتى
تنعمي مع الأرواح الزكية بالمعاني العالية المستورة ! تشجعي إذن وتقدمي غير هَيَابَة !

(١) « التعرف لمذهب أهل التصوف » ، ص ١٢١ ، نشرة آربري ، القاهرة

سنة ١٩٣٩ . وذكر ذلك العطار في « التذكرة » ، ج ١ ، ص ٧٠ .

(٢) مخطوط الظاهرية بدمشق رقم ٤١٦٤ عام ، ورقة ١٠٥ ب .

وتقدمت رابعة تمشي أول الأمر على استحياء لا يزال يشيع في مثل قولها الذي لا بد أن ينتسب إلى ذلك العهد ، وهو مارواه المناوي من أن سفياناً الثوري قال لرابعة : « ما حقيقة إيمانك ؟ قالت : ما عبدته خوفاً من ناره ولا حباً لجنته . فأكون كالأجير السوء . عبدته حباً وشوقاً إليه » (١) . فهي هنا تقتصر على وصف حالها الجديدة ، وهي أنها بدأت تدخل في ملكوت « الحب الذي « هو » أهل له » ؛ فلم تعد تحب الله إلا الله ، لاطمئناً في الجنة ولا خوفاً من عذاب النار . فاهجتها لا تزال هادئة ، وكأنها إنما تريد أن تميز بين صنفين من العابدين ، صنف يعبد الله على رغبة أو رهبة ، وصنف قد صار بمعزل عن الرغبة والرهبة وارتفع إلى معنى الحب الأعلى الذي لا يطلب من وراء ذلك غير وجه المحبوب ؛ وتكتفي بأن تدمع الحب الأول بأنه حب أجراء السوء ، أما الآخر فهو حب العابدين المتقين .

تلك إذن خطوة أولى ، فلتتبعها بثانية بأن تبدأ في عتاب الله نفسه على اتخاذ هذه المعاني : الرهبة والرغبة ؛ والتجائه إليهما في دعوى الناس إلى طاعته . وإذا كانت قد بدأت العتاب ؛ فما ذلك إلا لأنها قد تحققت في مقام أخلّة بينها وبين الله ؛ فلا تثريب عليها أن تلجأ إليه ؛ إذ ما أجل العتاب بين الخللان ! وهل تقوم أخلّة والصدقة حقاً إلا مع العتاب ؟ لذا نراها تقول هنا ما يرويه المناوي أيضاً حين قال : « قال مالك بن دينار : أتيتها (أي رابعة) فإذا هي تقول : كم من شهوة ذهبت لذتها وبقيت تبعها ! يارب ! أما كان لك عقوبة ولا أدب غير النار ! » (٢)

من هنا تبدأ الجرأة في الالهجة لدى رابعة في حديثها مع الله ، ولولا أنها بمقام أخلّة ، لنعنتنا ذلك بالاجترار بآلة التطاول .

(١) عبد الرؤوف المناوي : « طبقات الصوفية » مخطوط الظاهرية ، رقم ٤١٦٤ عام ، ورقة ١١٠٥ ؛ وابن خلدون « شفاء السائل » ص ٢٩ — استانبول سنة ١٩٥٨
(٢) الموضوع نفسه .

والآثار التي لديناني هذا الباب قليلة وبالأسف الشديد، لا تكاد تتجاوز أربعين :
الأول ما أورده ابن تيمية في رسالة سئل فيها أن يدلى برأيه في بعض
الأقوال الغريبة الواردة عن بعض الصوفية ، ومن بينها أنه « قيل عن رابعة إنها
حجّت فقالت (أى وهى تشير إلى الكعبة) : هذا الصنمُ المعبودُ في الأرض .
وإنه ما وُلجّه الله ولا خلاً منه » (١) .

وابن تيمية يرى أن هذا القول لا بد أن يكون كذباً على رابعة ، لأنها
كانت من الإيمان والتقوى بحيث لا يتصور صدور هذا عنها . ثم راح يفند هذا
القول — أيا كان صاحبه ؛ قال : « وأما ما ذكر عن رابعة من قولها عن البيت
إنه الصنم المعبود في الأرض — فهو كذبٌ على رابعة . ولو قال هذا من قِاله
لكان كافراً يستتاب ؛ فإن تاب ، وإلا قُتِل . وهو كذبٌ . فإن البيت
لا يعبدّه المسلمون ، ولكن يعبدون ربّ البيت بالطواف به والصلاة إليه . وكذلك
ما نُقل من قولها : والله ما وُلجّه الله ولا خلاً منه — كلام باطل عليها . وعلى مذهب
الحلوية لا فرق بين ذلك البيت وغيره في هذا المعنى ؛ فلا مزية يُطاف به ويُصَلَّى
إليه ويُحجُّ ، دون غيره من البيوت ! وقول القائل : ما وُلجّه الله فيه — كلام صحيح .
وأما قوله : ما خلاً منه — فإن أراد أن ذاته حالة فيه أو ما يشبه هذا المعنى فهو
باطل ، وهو مناقض لقوله : ما وُلجّه فيه . فهذا — مع أنه كفر وباطل — يوجب
ألا يكون للبيت مزية على غيره من البيوت ؛ إذ الموجودات كلّها عندهم كذلك » (٢) .

ويلاحظ على ابن تيمية هنا أولاً أنه يكذب هذا القول على أساس
عقلى يفترض فيه أن رابعة — وهى التقية المؤمنة كما هو مشهور عنها ■

(١) ابن تيمية : مجموعة الرسائل والمسائل ■ ج ١ ص ٦٢ ، القاهرة ١٣٤١ هـ =
سنة ١٩٢٢ م .

(٢) ابن تيمية : ■ مجموعة الرسائل والمسائل ■ ج ١ ، ص ٧٠ — ص ٨١ ، القاهرة
سنة ١٣٤١ هـ = سنة ١٩٢٢ م .

وابن تيمية يفهم التقوى هنا بمنه الخاص، أى الشئى الحرفى — لا يمكن أن تقع في مثل هذا الكفر — بيد أن هذا التكذيب يقتضى أن يكون هذا كفرة في نظر رابعة نفسها، حتى لا يجوز لها أن تقول هذا — وهو اقتضاء لا أصل له. لأن رابعة ترى في هذا سمواً بالإيمان، مادامت هي في سبيل التجريد عما هو ديني كل ما يدل على المعنى الحسى. وهبل أدل على المعنى الحسى من الكعبة وما يلبسها من طقوس ومراحم تتصل بالطواف وتقبيل الركن والمقام وما يشبه عبادة الحجر الأسود ورمى الجمار وما يقال فيه من دعوات! وقدها لهذا كله — ضمناً — ليس يصدر عن نفس الدوافع التي صدر عنها أمثال ابن الرواندى في نقده « لرمى الحجارة » والطواف حول بيت لا يسمع ولا يُبصر، والعدو بين حجرين (الركن والمقام) لا ينفعان ولا يضران: وهذا كله مما لا يقتضيه عقل: فما الفرق بين الصفا والمروة إلا كالفرق بين أبي قُبَيْس وحِراء، وما الطواف على البيت إلا كالطواف على غيره من البيوت^(١). بل يصدر عن الإمعان في السمو بالحياة الدينية بحيث تصفو من كل شوائب الحس. وابن تيمية قد أخذ هذا القول بما يؤخذ به أمثال أقوال ابن الرواندى هذه. ومن هنا أنكر أن يكون ذلك القول رابعة. فابن تيمية إذن قد أخطأ فهم المقصود من كلام رابعة، وعلى أساس هذا الفهم الخطأ بنى تكذيبه، وما بنى على خطأ فهو خطأ، وإذن فتكذيبه غير قائم على أساس صحيح. ولهذا فلا نستطيع أن نقيم له وزناً.

كما يلاحظ ثانياً أنه « وقد كان يعرض للردّ على القائلين بوحدة الوجود والقائلين بالحلول، قد فهم هذا القول المنسوب إلى رابعة على أساس فكرة الحلول أو وحدة الوجود » فأخطأ الفهم مرة ثانية، لأن ما استهدفته رابعة ليس يقتضى الحلول أو وحدة الوجود إلا بتمشّف لامدعاة له هنا؛ لأن قولها « والله ما وُلّجّه الله

(١) راجع كتابنا « الإلحاد في الإسلام » ص ١٠١ — ١٠٢، ثم ص ١٢٩ — ١٣٢

ولا خلا منه) — لا يقتضى غير التسوية بين هذا البيت وبين غيره من البيوت ؛
 فلاقتصار على هذا البيت وما استتبع ذلك من قيام نوع من الوثنية حوله هو
 اقتصار لا مبرر له ، لأنه أضرّ للخليفة في ربة شيء معين يفضل على غيره . مع
 أن المخلوقات تستوى عند الله من وجهة نظره ، والأشياء خصوصاً أكثر من
 الأحياء . وابن الراوندى حينما قال بهذه التسوية بين البيت المحرم وبين غيره من
 البيوت لم يقيم ذلك على أساس من الحلول أو وحدة الوجود ، فما كان أبعد ما عن
 ذهنه ! كذلك رابعة : رأت أن الوقوف عند بيت دون آخر ، أى عند أثر من
 الخلق دون آخر ، فيه تضيق من أفق الخليفة ، وفيه حصر للألوهية . فضلاً عما
 فيه من أحسية فاضحة ، بل وشرك في إضفاء جانب إلهي على هذا البيت المادي
 الفاني . وفي القرآن تبييه على ما كان عليه أهل مكة من عبادة لهذا البيت ؛
 وذلك في قوله تعالى : « فليعبدوا ربّ هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم
 من خوف » (سورة قريش : ٤) ، ففيه رد على أولئك الذين عبدوا — وكادوا —
 هذا البيت من دون الله . وإذن فرابعة إنما تعطى لهاتين الآيتين كل معناهما وتتابع
 الغرض المقصود منهما حينما تقول قولها هذا عن البيت المحرم : إنه الضم المعبود
 في الأرض ، وإنه ما وجه الله ولا خلا منه .

وإنما الحلول هنا أن تعالى في تقديس هذا البيت بحيث تشعر بأن الله كأنه
 حالٌّ به كما آل إليه أمر الحج ، على الأقل في أذهان الجمهور من الناس : فهذا
 فعلاً هو ما يسميه ابن تيمية نفسه^(١) باسم الحلول المعين ، لأنه القول بحلول الله
 في شيء معين — إنسان أو جماد أو حيوان — وذلك في مقابل الحلول المطلق .

ولهذا فكلام ابن تيمية هنا حافل بالمغالطات ، خصوصاً في تجزئته تلك

(١) راجع ابن تيمية : « مجموعة الرسائل والمسائل » ، ج ١ ص ١٧٢ . القاهرة

العبادة : « والله ما وجه الله ولا غلامه » إلى جزئين ، جعل أولهما صليحاً والأخر باطلاً إن قصد به الخلق ، متناقضاً لقوله ما وجه فيه ، متناقضاً في نفسه إن قصد القول بأن الاتحاد ملازم له . وإما كان عليه أن يأخذ القول بجهل فيعلم منه إنكار الخلق المعين لأن الله لم ينج هذا البيت بالذات ، إذ الله لا يجعل في شيء ، وهو حال في كل شيء ، بمعنى أن كل شيء قوامه بالله ، ولكن هذا لا يقتصر على شيء دون غيره . ففي تقديس البيت إلى ذلك الحد ما يقضي أن هذا البيت وحده قوامه من الله بينما غيره ليس قوامه منه ، وهذا هو الشرك بمبينة .

والحق أن من المميزات الكبرى للإسلام في جوهره وأصوله ، أنه حاول دائماً منذ البداية ألا يقصر العبادة على مكان ، لأن كل مكان يصلح أن يكون بيت عبادة لله . وهو إنما آتى بهذا بمثابة رد فعل ضد اليهودية والمسيحية في حصرها عبادة الله في مكان معين بالذات بحيث لا تصلح في غيره . فالصلاة في الإسلام يمكن أن تقام في أي مكان ؛ أما في اليهودية والمسيحية فلا بد أن تقام في مكان بالذات : كنيسة أو بيعة على التوالي . والمعنى العميق في اتجاه الإسلام هذا الاتجاه هو الإشعار بأن الألوهية في كل موضع ، وأن كل مكان أخذته عامر بها يصلح بالتالي أن يكون بيت الرب . وفكرة المسجد أو الجامع لا تنطوي على أي معنى من معاني التفضيل لمكان دون مكان ، كما هي الحال في فكرة الكنيسة والبيعة . إنما — كما يدل عليه اسمه — تنحصر في فكرة الإجماع في مكان واحد تحقيقاً خصوصاً للمعنى المقصود من صلاة الجماعة وبخاصة صلاة الجمعة .

ألا إن فكرة عبادة الأماكن لفكرة حار بها الإسلام الأول بكل قوة وعنق كما يظهر في الآية التي أوردناها من قبل : « فليعبدوا رب هذا البيت » ؛ وكانت حملته هذه موجهة ضد تيارين : تيار اليهودية والمسيحية اللتين اقتصرتا على المكان المعين فحصرتا فيه إمكان العبادة والصلاة ؛ وتيار الوثنية البربرية التي

قد سببت البيت الغنوق والحجر الأسود الذي فيه حتى كادت أن تحمله محلاً للألوهية .
ولهذا كان على الإسلام السائر المتطور — لا ذلك الجامد المتحجر الذي يمثله أمثال
ابن تيمية والسلفية هامة — أن يتابع تلك الحملة حتى تؤتي ثمرها السكاملة العامرة
بالنساعى الروحى فوق كل ما هو حسى أو مشعر به ، فزول البقية الباقية من الوثنية
العربية : وهذا هو ما فعلته رابعة المدوية ، وما فعله الحلاج من بعدها . لقد بمت
النهى الطلائع الأولى ، فعلى المسلمين على مر الزمان الأبدى أن يتابعوا الحملات
حتى تتحقق الغايات البعيدة التي آتخ من بعيد إليها دون أن يخطو في السبيل إليها
إلا الخطوات الضئيلة الأولى .

وإذن فالفكرة التي عنها صدرت رابعة في هذا القول فكرة ممتازة تنبع
من صميم الإسلام الحى .

كذلك قولها الثانى . قال المناوى : « وسيمت (أى رابعة) قارئاً يقرأ :
« إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون »^(١) — فقالت : مساكين أهل الجنة
في شغل هم وأزواجهم ! »^(٢) وكلمة « فاكهون » هنا معناها — فى كثير من
التفاسير — يفتضون الأبتكار . ومن هنا امتعض ضمير رابعة من هذا المعنى
الشهوانى ، وهى التي ارتفع عندها معنى الجنة إلى أعلى درجة من درجات الروحية .
وقولها هذا — إن كان صحيحاً فى نسبه إليها ، وليس ثمة ما يدعوننا إلى الشك فى
هذه النسبة — قد بلغ درجة خطيرة من الجرأة والاجترأ : فهو يتضمن أولاً نقداً
للقرآن وما فيه من أوصاف حسية شهوانية ؛ وهو يتضمن ثانياً طعنأ فى الجوانب
الحسية الشهوانية من الإسلام .

وهاتان مسألتان على أكبر جانب من الخطورة . ذلك أننا لا تعلم فيما ورد

(١) القرآن : سورة يس : ٥٥ .

(٢) عبد الرؤوف المناوى : « طبقات الأولياء » ، ورقة ١٠٥ ب ، مخطوط الظاهرية

إليتنا من الأخبار سواء عن عهد النبي وعن عهد الخلفاء والأمويين أن نقداً قد وجه إلى القرآن والإسلام من هذه الناحية : ناحية الحسية الشهوانية . فليس في القرآن ما يدلنا على وجود ذلك الجدل في أيام النبي حول ما ورد في القرآن من أوصاف شهوانية ، والقرآن هو أصدق وثيقة تصور لنا نقد الناقدين في ذلك العصر ؛ كذلك لم يكن ينتظر ، والبيئة كانت على ما نعرف من سذاجة وفطرية ، أن يصدر مثل هذا النقد ، لأنه يفترض درجة عالية من التطور الروحي كان أهل تلك البيئة في ذلك الحين بعيدين عنها .

أكانت رابعة إذن أول من بدأ هذا النقد ؟

لن نستطيع الجواب عن هذا بالإيجاب أيضاً ، وذلك لأن حركة الزندقة كانت قد قويت في تلك الأثناء — وبخاصة في الربع الثالث من القرن الثاني الهجري — وانتشرت آراؤها إلى حد بعيد ، خصوصاً منذ أن صارت موضع اضطهاد عنيف من جانب الخليفين المهدي والهادي فيما بين سنة ١٥٣ هـ (= سنة ٧٦٩ م) وسنة ١٧٠ هـ (= سنة ٧٨٦ م) ، فكان طبيعياً أن تكون رابعة على علم بها ، مادامت الدولة قد شغلت بها إلى هذه الدرجة البالغة الخطورة^(١) . أتري رابعة قد تأثرت بهذه الحركة أو كانت على صلة وثيقة بها ، مع الفارق الشاسع بين نواياها ونوايا أولئك الزنادقة ؟

فرض نسوقه ولا نستطيع تحقيقه بيقين . لكننا لا نرى مانعاً جدياً في أن تكون قد تأثرت بتلك الأفكار التي أثارها حركة الزندقة ، وبخاصة عند ابن المقفع الذي وجه عناية خاصة إلى القرآن وحاول معارضته ، ولا بد أن يكون قد واکب هذا قيامه بنقد القرآن ، ويجوز أن يكون قد تعرض لشيء مما تعرضت له

(٢) راجع العرض التفصيل لهذه الحركة في كتابنا : « من تاريخ الإلحاد في الإسلام » ص ٢٨ - ٧١ - القاهرة سنة ١٩٤٥ .

رابعة ، أى يقيد الجانب الجسدى فيه . بيد أننا لا نجد فى رد أبى القاسم الزيدى ولا فى المصادر الأخرى التى ذكرت زندقة ابن المقفع، ما يشير إلى هذا بوضوح^(١) .
وخلاصة رأينا فى هذه المسألة إذن ، هى أن رابعة يمكن أن تعد أول من تعرض لنتقد القرآن والإسلام من ناحية ما فى القرآن من أوصاف حسية شهوانية تتصل بالجنة خصوصاً ، وأنها يمكن كذلك أن تكون قد تأثرت فى هذا بحركة الزندقة التى انتشرت فى ذلك العهد انتشاراً خطراً حمل الدولة على مكافحتها بكل شدة ؛ وأنها رمت من وراء هذا النقد ، لا إلى الهدم والطمع ، بل إلى الارتفاع بمستوى الحياة الدينية ومعانى القرآن والإسلام إلى أعلى درجة من الروحية مستطاعة . وكانت فى هذا تكافح خصوصاً ضد تيار المُشبهة والمجسمة والحشوية ممن أرادوا أن يأخذوا القرآن بحروفه . ولهذا يمكن أن نعد قولتها هذه من آرائها الكلامية ؛ بيد أن إنجازها لا يسمح لنا بتفصيل أوسع فى مذهبها الكلامي ، وكل ما نستطيع قوله فى هذا الباب هو أنها كانت من خصوم المُشبهة والمجسمة .

وكان طبيعياً ، وهذه العبارة من الخطورة على النحو الذى بيناه ، أن تجد لها كثيراً من الطاعنين عليها . وقد ذكر المناوى أن ابن عربى كان من هؤلاء . قال : « وعاب عليها ابن عربى هذه المقالة ، وقال إنها ما عرفت ، وإنها المسكينة ، فإنما شغلهم إنما هو بالله . قال : وهذا من مكر الله الخفى بالعارفين فى تخريج الغير بىادى الرأى والتعريض فى حق نفوسهم ؛ إنهم منزهون عن ذلك^(٢) » . ومن هذا النقد نرى أن ابن عربى ينكر عليها هذا القول لأنها فهمت الآية هذا الفهم — لكن الذنب ليس ذنبها ، فالفسرون — غالباً — يفهمونها بهذا المعنى ، أعنى : أن أصحاب الجنة مشغولون باقتضاض الأبقار . ولا شك فى أن هذا كان المعنى المشاع

(١) راجع المرجع السابق ، ص ٤٣ - ٥٣ .

(٢) عيد الرؤوف المناوى : طبقات الأولياء ، ورقة ١٠٥ (ب) - ١١٦ (١) .

مخطوط الظاهرية بدمشق رقم ٤١٦٤ .

السائد في أيام رابعة، قبل أن يتطور تفسير القرآن نحو التفسير بالباطن مما كان وليد حركة الصوفية في القرون التالية . فلا تثريب على رابعة إن كانت إذن قد فهمت الآية على هذا النحو ، بل هذا هو وحده الذي كان ينتظر منها في مثل ذلك العصر . على أن إيجاز العبارة لا يدلنا — مرة أخرى — على ما قصدت إليه من هذا النقد: أهو نقدٌ لتفسير المفسرين ، وإذن فالعبارة قيلت في معرض التهم عليهم ، أم هو نقد القرآن نفسه ؟ على أن هذا الفرض الثاني هو الأقرب احتمالاً ؛ كما يقتضيه سياق العبارة : إذ قالت هذه المقالة حينما سمعت قارئاً يقرأ الآية ؛ فهي لم تكن إذن بإزاء مفسر ، بل قارئ عادي .

تطورت الحياة الروحية عند رابعة إذن إلى الذروة من التجريد والتسامي عن كل ما هو حسي . وواكب هذا استغراقها الكامل في الله ، بحيث أقفلت أبواب الحواس . وإلى هذا ينتسب ما ورد لنا من أقوال تنبئ عما آلت إليه حالها من إماتة الحواس ، بحيث يمكن أن يقال إنها ماتت من الدنيا . فقد « ذكر أن رابعة العدوية كانت في الصلاة ؛ فسجدت على البواري ؛ فدخلت قطعة قصب في عينها فلم تشعر بها حتى إذا انصرفت من الصلاة ^(١) » ؛ أي إلى أن انصرفت من الصلاة .

فالحال التي تعبر عنها هذه القصة هي حال الفناء عن الوجود الخارجي، وذلك بالفناء في الوجود الباطن « وجود الحق ، بحيث تستهلك فيه ، فيغيب عنها الوعي وتؤول إلى حال من اللاشعور الكامل ، فيسقط عنها التمييز . وهي الحال التي

(١) في المخطوط رقم ٢٩٦ فاتيكان عربي ، ورقة ٧٧ ب ضمن رساله تسمى كتاب الصلاة
بجمهولة المؤلف . وقد ذكر هذه الحكاية أيضاً البطال ، في « تذكرة الأولياء » ج ١ ص ٦٤ .

يشير إليها الصوفية بالرمز بحكاية صواحب يوسف عليه السلام اللواتي قطنن أيديهن « لفناء أوصافهن ، ولما ورد على أسرارهن من لذة النظر إلى يوسف مما غيبهن عن ألم مادخل عليهن من قطع أيديهن^(١) » . فيرمز بهذه الحكاية عند الصوفية إلى ما يجب أن يكون عليه الصوفي في حال فئانه عن دنيا الحواس . وهذا الرمز نفسه ينسب إلى رابعة القول به ، ولعلها أن تكون أول من قال به . فقد روى المطار قال : يحكى أن مالكا بن دينار والحسن البصرى وشقيقا البلخي غدوا لزيارة رابعة . فسألهم عن معنى الصدق . فقال الحسن : « ليس بصادق في دعواه من لم يصبر على ضرب مولاه » — فقالت رابعة : هذا غرور . وقال شقيق البلخي : « ليس بصادق في دعواه من لم يشكر على ضرب مولاه » — فقالت : هناك ما هو خير من هذا . فقال مالك بن دينار : « ليس بصادق في دعواه من لم يتلذذ بضرب مولاه » — فصاحت رابعة : بل تمت أفضل من هذا كله . فقالوا لها : تكلمي أنت إذن ! فقالت : « ليس بصادق في دعواه من لم يئنس الضرب في مشاهدة مولاه » ، مثل نسوة مصر اللاتي نسين الآلام أيديهن لما رأين وجه يوسف » . وقد تكون هذه الرواية صحيحة إذا استبعدنا اسم الحسن البصرى وأبدلنا به اسما آخر ، وقد تكون موضوعة كلها على نسق ما يقتضيه النموذج الذي أصبح لدى مؤرخي الصوفية المجددين للتصوف — عن الصوفي . إذ أن هذه الحال — حال الفناء عن الآلام — قد صارت منذ القرن الثالث من المناقب الرئيسية للصوفي الحق . فالسرى السقطي (المتوفى سنة ٢٥٧ هـ — سنة ٨٧٠ م) يقول عن الصوفي إنه لو ضرب وجهه بالسيف وهو في حال الفناء لما أحسن بألمه^(٢) . كذلك يحدثنا الهجو يرى أنه يحكى عن أبي الخير الأقطع أنه

(١) الكلاباذي : « التعرف لمذهب أهل التصوف » ص ٩٥ ، نشرة آذربى ، القاهرة سنة ١٩٣٣ .

(٢) السراج : « اللع » ص ١٩٢ بقى المخطوط ؛ راجع نشرة فيكلسون ، سنة ١٩١٤ ببلنق .

أصاب قدمه جرح مالمبث أن فسد حتى أشار الطبيب ببتز قدمه ، غير أن أبا الخير لم يشأ ذلك . هنالك قال تلاميذه للطبيب : لو بترتها إبان صلاته لما أحس شيئاً ، لأنه في الصلاة يفتب عن حواسه . ففعل وفق ما قالوا . فلما فرغ أبو الخير من صلاته شاهد قدمه وقد بترت ^(١) . وهكذا تكون صورة الصوفى الفارق فى الفناء وفقاً لهذه الأمور . فمن الممكن أن تكون هذه الرواية التى ذكرها العطار ، وكذلك مسألة دخول القصة فى عيناها إبان الصلاة وهى مما رواه العطار أيضاً ، نقول من الممكن أن يكون هذا كله من الأخبار التى اخترعت إتماماً للصورة وفقاً للنموذج الذى كان قد تكون عن الصوفى . وإذا كانت هذه الرواية الأخيرة — دخول القصة فى عيناها — مما ورد فى الكتب العربية ، فإن الرسالة التى وردت فيها بجهولة المؤلف ، بحيث لا نستطيع أن نقرر ما إذا كان قد أخذها هو الآخر عن العطار ، ذلك الرجل الجامح الخيال فى غير ما احتفال للوقائع التاريخية .

لهذا يجب أن نخلى هامشاً عريضاً لما فى هذه الروايات من المبالغة ، وأن نفهم منها مجرد الارتفاع فوق الآلام ، وإن كانت رابعة قد ظلت حتى موتها شعلةً زيتية الألم . فالواقع أنها بقيت تتلقى حتى آخر نفس من أنفاسها درسها فى علم التثالة فى مدرسة الآلام . كيف لا ، والألم هو دائماً قوت الأرواح الهائمة فى الطريق إلى الله . ولن يفرغ المرء من هذا الطريق أبداً ؛ لهذا فلا بد له أن يستمر فى معاناة الآلام أبداً . ولا شك فى أنه كان لرابعة فضل كبير فى تمجيد الألم ، والدعوة إلى ما يمكن أن يسمى باسم عبادة الألم مما ولد فى الحياة الروحية فى الإسلام وتزاجيداً سيصرف عليه الصوفية من بعد — وعلى رأسهم الحلاج خاصة — أعمق ألحان الألم ، فيثرى مضمونهم الباطن إلى درجة عالية . ورابعة ترى فى الألم نعمة يمنحها الله لعباده المخلصين ، وليس لها أن تسأل الله تخفيف آلامها ، لأن إرادة الله هى

(١) الهجورى « كشف المحجوب » ، ص ٣٠٤ ترجمة نيكلسون .

هذا الامتحان بالآلام . فكيف تتوجه بالدعاء إليه متجاهلة تلك الإرادة ؟^(١) فكذا كان جوابها لسفيان الثوري لما أن سألها أن تدعو الله حتى يخفف آلامها^(٢) وهذا من بين الدواعي العديدة التي دعته إلى رفض كل ما كان يعرض عليها من مال . وهي كانت على ما هي فيه من شظف عيش وإملاق : ذلك أنها تريد من هذا أن تقتات بألم الحرمان ، وناهيك به من قوت ، حسب الأولياء أن يظفروا به . وفي هذه الدعوة إلى الألم نجد عنصراً ممتازاً أدخلته رابعة العدوية في الروحية الإسلامية .

- ١٢ -

وتابعت رابعة حملتها على الأخويات بالصورة الحسية المفهومة عند سائر الناس ، وغدّى هذا كله نموّ معنى المحبة والرحمة بحيث تشمل الناس أجمعين . فلم يعد يعنينا خلاصها وحدها بقدر ما يعنينا خلاص الآخرين معها . ولنا في هذا الباب قصة رواها الأفلاكي في « مناقب العارفين » (بالفارسية) هالك ترجمتها : « ذات يوم رأى جماعة من الأصحاب رابعة وفي إحدى يديها نار ، وفي الأخرى ماء وهي تعدو مُسرعة — فسألوها : أيتها السيدة ! إلى أين أنت ذاهبة ؟ وماذا تبتغين ؟ فقالت : أنا ذاهبة إلى السماء كي ألقى بالنار في الجنة وأصبّ الماء على الجحيم فلا تبقى هذه ولا تلك ، ويظهر المقصود ، فينظر العباد إلى الله دون رجاء ومن غير خوف ، ويمبدونه على هذا النحو : (بلا مطمع في جزاء أو خوف من عقاب) — ذلك أنه لو لم يكن ثمت رجاء في الجنة وخوف من الجحيم ، أفكانوا يعبدون الحق ويطيعونه ؟ »^(٣)

(١) الطائر : « تذكرة الأولياء » ، ج ١ ، ص ٦٩ و ٧٠ ، نشرته نيكلسون .

(٢) الأفلاكي : « مناقب العارفين » ، مخطوط باريس ، قسم فارسي قديم ، رقم ١١٤

ففي هذه الحكاية — التي لا نعلم مبلغها من الصحة ، والتي فيها ما فيها من التزييق بحيث تذكرنا بقصة مصباح ذيوجانس ، أتراها صيغت على غرارها؟ — نقول إن في هذه الحكاية ما يدل على أن رابعة قد أرادت أن تخلص الناس نهائياً من فكرة الجنة والنار ، لأنها رأت فيها مصدراً لإفساد المعنى الحقيقي للعبادة . إذ العبادة الحققة هي تلك التي تقام لوجه الله غير طالبة جزاءً ولا شكوراً ؛ هي تلك التي لا تكون على حرف ، ولا بسبب خوف ، ولا يدخل فيها أى معنى من معانى الترغيب أو الترهيب .

وهي في سبيل هذه الدعوة قد بدأت بنفسها ؛ فهي غير راغبة في الجنة ولا وجلة من النار . ذكر العطار أن رابعة كانت تقول : « إلهى ! إن كنت عبدتك خوف النار فأحرقنى بالنار ، أو طمعاً في الجنة فخرمها على . وإن كنت لا أعبدك إلا من أجلك ، فلا تحرمنى من مشاهدة وجهك » . وقالت أيضاً وهي لهيفة القلب : « إلهى ! إن ألقيت بى يوم الحساب في النار لأذعت سراً يبعد النار عنى بألف سنة » . وكانت تقول : « إلهى ! كل ما قدرته لى من خير في هذه الدنيا أعطه لأعدائك ، وكل ما قدرته لى في الجنة امنحه لأصدقائك ، لأنى لا أسعى إلا إليك أنت وحدك »^(١) . وكل هذه الأقوال تدلنا بوضوح على أن معنى الجنة والنار قد راق عند رابعة بحيث كاد أن يزول ، لأنه لا يتفق مع العبادة الصحيحة ؛ وقولها الثالث الأخير يدل على إيمانها في تجريد المعنى الحسى للأخرويات بالنسبة إلى نفسها .

ثم لما ظهرت نفسها من هذا المعنى راحت تدعو الناس إلى هذا التطهر ، بحيث تصبح العبادة لله وحده من غير طمع في شيء أو خوف من شيء . وهذه الحركة الرمزية التي تعبر عنها القصة التي ذكرها الأفلاكي إنما قصد بها إلى إيضاح معنى دعوتها بطريقة عينية بارزة . إذ رأت أن الناس إنما يعبدون الله رجاء دخول الجنة

(١) العطار : « تذكرة الأولياء » ، ج ١ ص ٧٢ و ٧٣ .

أَوْ مَخَافَةَ النَّارِ ، فَهَلْ مَعْنَى هَذَا أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ ثَمَّتْ جَنَّةٌ وَلَا نَارٌ لَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ ؟
هَذَا سَوَالٌ أَلْقَتْ بِهِ رَابِعَةٌ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّالِحِينَ ذَكَرُوا لَهَا أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ اللَّهَ
خَوْفَ النَّارِ وَطَمَعًا فِي الْجَنَّةِ . وَهَنَالِكَ سَأَلُوهَا : « وَأَنْتِ ، لِمَاذَا تَعْبُدِينَ اللَّهَ ؟ —
فَأَجَابَتْ : إِنَّمَا أَعْبُدُهُ لِذَاتِهِ . أَفَلَا يَكْفِينِي نِعْمَةٌ مِنْهُ أَنَّهُ يَأْمُرُنِي بِعِبَادَتِهِ ؟ » (١)
إِنَّمَا تَرَى إِذْنًا فِي مَجْرَدِ أَمْرِ اللَّهِ بِعِبَادَتِهِ نِعْمَةً سَابِقَةً كَافِيَةً بِحَيْثُ لَا يَرْجُو الْمَرْءُ
بَعْدَهَا أَمْرًا .

عَلَى أَنَّ الْمَقْصُودَ الْأَبْعَدَ فِي ذَهْنِ رَابِعَةٍ هُوَ أَنَّ تَسْمُوًا بِالْحَيَاةِ الدِّينِيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ
يَبْدَأُ تَزِيلَ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ مَعَانٍ حَسِّيَّةٍ وَتَحْيِيلَهَا إِلَى مَعَانٍ رُوحِيَّةٍ خَالِصَةٍ ، فَلَهَا
الْفَضْلُ الْأَكْبَرُ فِي بَدْءِ هَذِهِ الْحَرَكَةِ الَّتِي سَتَبْلُغُ أَوْجَهَا عِنْدَ أَبِي يَزِيدَ الْبَسْطَامِيِّ (٢) .
وَمِنْ هُنَا يَظْهَرُ دَوْرُهَا الْبَارِزُ فِي الْحَيَاةِ الرَّوحِيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ عَامَةً .

وَقَدْ نَسَبَ الْمُؤَرِّخُونَ إِلَى رَابِعَةٍ جَمَلَةٌ مِنَ الْكِرَامَاتِ . وَقَدْ رَأَيْنَا كَيْفَ
حَاقِلَ الْعَطَارِ مَتَدَّ الْبَدَايَةَ أَنْ يَحِيطَ رَابِعَةٌ بِالْكَرَامَاتِ مِنْذُ مِيلَادِهَا ؛ وَهُوَ كَذَلِكَ
قَدْ حَرَّصَ عَلَى أَنَّ يَمْلَأَ تَرْجُمَتَهُ الْخَيَالِيَّةَ لِرَابِعَةٍ بِأَلْوَانٍ مِنَ الْكِرَامَاتِ لِاحْتِرَاقِهَا :
فَحَارَهَا يَنْفَقُ فِي الصَّحْرَاءِ وَهِيَ بِسَبِيلِ الْحَجِّ ، فَتَدْعُو اللَّهَ ، فَيَنْهَضُ الْحَمَارُ مَلِينًا
بِالْحَيَاةِ ! وَهِيَ تَعْلَمُ الْغَيْبَ كَمَا يَظْهَرُ مِنَ الْقِصَّةِ الَّتِي رَوَاهَا عَنْ أَرْغِفَةَ الْخَبْزِ الَّتِي
أَرْسَلَتْ بِهَا إِلَيْهَا سَيِّدَةٌ مَعَ خَادِمَتِهَا ! وَاللَّصُوصُ لَا يَسْتَطِيعُونَ السَّرْقَةَ مِنْهَا ، وَكَأَنَّ
اللَّهَ يَحْرَسُ كُلَّ مَالِهَا ؛ وَإِنَّ لَهَا مَعَهُمْ لِقِصَصًا عَدِيدَةً ، ذَكَرَ بَعْضُهَا الْعَطَارُ . وَذَكَرَ
غَيْرُهَا آخَرُونَ مِثْلَ تِلْكَ الَّتِي وَرَدَتْ فِي الْمَخْطُوطِ رَقْمَ ١٢٤٢ (عَرَبِي الْفَاتِيكَانِ)
« وَرَقَهُ ٨٣ مِنْ أَنْ لَصًّا دَخَلَ بَيْتَهَا فَلَمْ يَجِدْ غَيْرَ إِبْرِيْقٍ فَلَمَّا تَمَّ بِالْخُرُوجِ قَالَتْ لَهُ

(١) الْعَطَارُ : « تَذَكُّرَةُ الْأَوْلِيَاءِ » ، ص ٩٦ .

(٢) رَاجِعْ بِحِثْنَا بِنَوَانَ : « شَطْحَاتُ الصُّوفِيَّةِ » فَفِيهِ تَفْصِيلُ الْقَوْلِ فِي مَذْهَبِ أَبِي يَزِيدَ

الْبَسْطَامِيِّ فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ : ١٦ ص ٢٤ — ص ٢٥ . الْقَاهِرَةُ سَنَةَ ١٩٤٩ .

رابعة : يا هذا ! إن كنت من الشطار فلا تخرج بغير شيء . فقال : إني لم أجد شيئاً . فقالت : يا مسكين ! توضع بهذا الإبريق وادخل في هذا المخدع ، وصل ركعتين ، فإنك ما تخرج إلا بشيء . ففعل ما أمرته . فلما قام يصلي رفعت رابعة طرفها إلى السماء وقالت : سيدي ومولاي ! هذا قد آتى يابى ولم يجد شيئاً عندي ، وقد أوقفته ببابك ، فلا تحرمه من فضلك وثوابك !

« فلما فرغ من صلاة الركعتين ، لذت له العبادة ، فما برح يصلي إلى آخر الليل . فلما كان وقت الصبح ، دخلت إليه رابعة فوجدته ساجداً وهو يقول في سجوده معاتباً نفسه - شعراً - :

إذا ما قال لي ربي : أما استحييت تعصيني ؟
وتخفي الذنب من خلقي وبالعصيان تأتيني ؟
فما قولي له لما يعاتبني ويقصيني ؟ !

« فقالت له : حبيبي ! كيف كانت ليلتك ؟ فقال : بخير ! وقفت بين يدي مولاي بذلي وافتقاري ، فقبل عذري وجبر كسري ، وغفر لي الذنوب ، وبأني المطلوب .

« ثم خرج هاتماً على وجهه . فرفعت رابعة كفها إلى السماء ، وقالت : سيدي ومولاي ! هذا وقف ببابك ساعة فقبلته ؛ وأنا مذ عرفتك بين يديك . أتراك قبلتني ؟ فنوديت في سرها : يا رابعة ! من أجلك قبلناه ، وبسببك قرّبناه (١) .

وفي هذه الحكاية نرى الأسطورة الشعبية تصور رابعة صاحبة كرامات مع اللصوص بحيث تهديهم إلى الإيمان ، كما تصور درجاتها عند الله في الشفاعة والقرب . وهي من نوع ما نراه كثيراً في ترجمات الأولياء والقديسين الخيالية ، كما هي الحال عند القديس فرنسيسكو الأسيزي مثلاً .

(١) مجموعة رسائل وتعليقات وتقييدات برقم ١٢٤٢ فاتيكان عربي ورقة ١٨٤ .

وإن الشبه القريب كل القرب في هذا الباب بين القديس فرنسيسكو الأسيزي
 وموسى صاحبنا رابعة . فالحيوان والطيور يألفها ، بحيث كانت الغزلان — وهي النفقون
 من الإنسان — تقبل عليها وتتعلق حولها وتمسح فيها . والمطار يروى لنا هذه
 القصة ، وهي أن « رابعة صعدت جبلا ، فأقبل من حولها كل ما كان هناك من
 غزلان ، وبقيت حوالها آمنة كل الأمان . ونجاة أقبل الحسن البصرى ففرت
 الغزلان . فقلن لها : يا رابعة لماذا فرت كل الغزلان مني ولم تفر منك أنت ؟
 فسألت : ماذا أكلت اليوم يا حسن ؟ فأجاب : أكلت طعاماً طهي بالزيت .
 فقالت له رابعة : يا من تأكل من دهنها ، كيف لا تريد منها أن تفر منك ؟ » (١)
 ومنها ترى السبب في تألف الحيوان لرابعة وهو أنها كانت لا تأكل من لحمه
 أو ما يخرج منه . ولولا أن هذه القصة أسطورة كلها ، لاستخلصنا منها ما يتصل
 بحياة رابعة من الزهد بحيث حرمت على نفسها أكل الحيوان وما يخرج منه .
 وعلى كل حال ، فلمهم في هذا أن المطار لم يذكر صلاحها بالحيوان دون أن
 يبرر عقلياً السر في هذه الألفة فيما بينها وبينه ، والتفسير لا يخلو من البراعة ولا نجد
 مثله في ترجمات القديس فرنسيسكو الأسيزي .

وأكثر الكرامات التي يرويها المطار لرابعة قد جرت مع الحسن البصرى .
 مما يؤكده جانب الخيال والاختراع إلى أبعد حد فيها . فهو يذكر كذلك أن الحسن
 وبعض أصحابه ذهبوا إلى رابعة وكان الوقت ليلاً فاحتاجوا إلى مصباح فلم يجدوا ؛
 فوضعت رابعة طرف أصابعها في فها ثم أخرجتها فظل يشع منها حتى مطلع الفجر
 نوراً كأنه نور مصباح . والمطار يفسر هذا أيضاً فيقول : « إن سأل أحد
 كيف حدثت هذه الكرامة ، فأخبره أن النور كان يشع من يد موسى . فإن
 قيل لك إن موسى عليه السلام كان نبياً وأن رابعة لم تسكن نية ؛ فأجبه قائلاً :

إن من ينفذ الأوامر التي آتى بها الأنبياء بشارك في قدرتهم على الإتيان بالمعجزات؛ وكما أن للأنبياء معجزات، فإن للأولياء كرامات»^(١). وهو يذكر قصة أخرى مع الحسن وهي أنوذهب إليها وكانت قد وضعت قدراً فيه لحم، فلما بدأ الحديث عن معرفة الله، رأت أن هذا الحديث أفضل من الطهي، فتركت القدر دون أن تنفخ تحته النار. فلما فرغ من صلاة العشاء «أفرغت ما في القدر فوجد أن اللحم الذي كان فيه قد طهى بقدره الله. فأكلنا (الحسن وهي) من هذا الطعام» وكان له طعم لم تتذوق مثله قط من قبل»^(٢). ثم ما يقومان بالمعجزات أو الكرامات معاً: فهو يلتقي على الماء سجادته ويصلي عليها، وهي تلقي سجادتها في الهواء وتصعد عليها. على أن القصة تنتهي بعبارة عالية؛ فالحسن لا يستطيع أن ينافسها في هذه الكرامة لأنه لا يستطيع الطيران في الهواء، فابتأس «فمررت به رابعة قائلة: «ما فعلته يستطيع السمك أن يفعله» وما فعلت أنا يستطيع الذباب أن يفعله. وإنما المهم أن نبلغ درجة أعلى من هاتين الدرجتين اللتين بلغناهما»^(٣). وفي هذا القول إشارة إلى أن المهم عند الصوفي ليس هو الإتيان بالكرامات، بل الترقى في معراج الحياة الروحية؛ وقيمة الصوفي ليست في عدد كراماته ونوعها، بل في السلوك إلى الله بحيث يرضى عنه ويحظى بالقبول منه.

وكل هذه الكرامات هي من الأنواع المشهورة المألوفة في الترجمات الخيالية للصوفية والقديسين، والعملية التي أنتجتها عملية واحدة.

ولم نسقها هاهنا إيماناً منا بأن هذه الكرامات قد وقعت، فهيات هيات أن يخطر هذا ببالنا! إذ نحن ننكر الكرامات والحوارق أياً كان مصدرها. إنما هي تقدم لنا الأسطورة الشعبية التي حيك حول الشخصية التي تنسب إليها

(١) فريدالدين الطار: «تذكرة الأولياء» ج ١، ص ٦٥، نشرة نيكاسون.

(٢) المرجع نفسه، ج ١، ص ٧٢.

(٣) المرجع نفسه، ج ١، ص ٦٥.

هذه الكرامات أو تلك الخوارق . وقهيمتها إذن ليست في صدقها من حيث الواقع والتاريخ ، فإنها جميعاً خلو من هذا الصدق ، وإنما في بيان تطور الصورة التي يتصورها الضمير الشعبي أو الأسطوري لأولئك النفر من الناس .

ونحن نرى فيما يتصل برابطة أن هذه الأسطورة لم تنشأ إبان حياتها ، وإنما نشأت متأخرة بعد هذا بقرنين على أقل تقدير . ونشأت أول ما نشأت مرتبطة بأسطورة الحسن البصرى التي كانت قد بدأت تتكون قبل ذلك بمهد غير طويل . واشتبكت الأسطورتان معاً في أمثال هذه الحكايات التي أورد أغلبها فریدالدين العطار وهو أكثر المؤرخين الصوفية حرصاً على تصيد النوادر والخوارق والغرائب . ولا نحسبنا مبالغين إذا قلنا إنه كان للعطار نفسه نصيب ما في تكوين هذه الأسطورة باختراع البعض من هذه الحكايات المتصلة بالكرامات ، أو في القليل مما زيف البعض مما كان متناقلاً بين الناس ، ووشى من الأحاديث ما شاء له خياله البعيد النور . والذي يحملنا على عدم تحميله نصيباً أكبر في الاختراع أن المخطوطات العربية تكشف لنا شيئاً فشيئاً عن الأصول العربية للكثير مما أتى به من حكايات كنا لا نجد لها في غيره من المصادر العربية فيخيل إلينا أنه الذي ابتدعها . لهذا يجب ألا نحكم عليه في هذا الباب إلا بكثير من الحيطة والأناة .

وهذه الأسطورة لا تزال ترن أصدائها في الخيال الشعبي بكل قوتها ، وذلك في العبادة التي تقام حول قبرها .

وهذا يقودنا إلى الحديث عن قبرها ، هذا المختف في مظنة وجوده أشد الاختلاف .

فقوم قالوا إن قبرها بظاهر القدس الشريف على رأس طور رؤيتنا ، وهو قرية

الطور إلى شرق القدس . فأبو محمود بن إبراهيم بن سرور المقدسى (المتوفى سنة ٥٧٦٥ هـ) يقول فى كتابه « مثير الغرام » : « قد مات (أى رابعة) بيت المقدس وماتت به ؛ وقبرها بظاهر القدس الشريف على رأس طور زيتا . وهو ظاهر يزار . وكانت وفاة رابعة سنة خمس وثلاثين ومائة^(١) . وعنه أخذ شمس الدين السيوطى (المتوفى سنة ٨٧٥ هـ) فى كتابه : « إتحاف الأخصاف فى فضائل المسجد الأقصى »^(٢) . ويزيدنا بحجر الدين الحنبلى تفصيلا فيقول فى كتابه : « الأنس الجليل »^(٣) — وهو يذكر الأعيان والزهاد الذين دخلوا بيت المقدس ، وهو قد ألف كتابه سنة ٩٠١ هـ واعتمد فيه على « مثير الغرام » — « إن قبر رابعة بنت اسماعيل أم الخير العدوية البصرية على رأس جبل طور زيتا شرقى بيت المقدس بحوار مصعد عيسى عليه السلام ، من جهة القبلة ؛ وهو فى زاوية ينزل إليها من درج . وهو مكان مانوس يقصد للزيارة » .

كذلك نرى ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » يقول : « وقبرها يزار ، وهو بظاهر القدس من شرقيه على رأس جبل يسمى الطور »^(٤) . وفى إثار ابن شاكر الكتبى يقول : « وكانت وفاتها على قول ابن الجوزى فى هذه السنة (أى سنة ١٣٠ هـ) . وقال غيره سنة خمسة وثمانين (أى ومائة) . وهى مدفونة بظاهر القدس على رأس جبل ؛ وقبرها يزار ؛ رضى الله عنها »^(٥) .

وفريق ثان ترجح بين التأييد والإنكار فيما يتصل بكون هذا قبر رابعة

(١) إبراهيم بن سرور المقدسى : « مثير الغرام » ، ص ٤٩ طبع اقدس سنة ١٩٤٦ .

(٢) مخطوط و المكتبة الخالدية بالقدس . وقد تفضل الأستاذ أحمد سامح الخالدى بهذه البيانات فله منا أجزل الشكر .

(٣) ج ١ ، ص ٢٨٥٠ .

(٤) ج ١ ، ص ٣٥٠٦ ، القاهرة سنة ١٢٧٥ هـ = سنة ١٨٥٨ م .

(٥) صلاح الدين محمد بن شاكر الكتبى : « عيون التواريخ » ، ورقة ٧ ب — ١٨ ،

مخطوط رقم ٤٤ تاريخ بالظاهرة بدمشق — أخبار سنة ١٣٥ هـ .

العدوية صاحبنا . ومنه ابن العماد في « شذرات الذهب » ، إذ قال : « وقبرها (أى رابعة) على رأس جبل يسمى الطور بظاهر بيت المقدس . وقيل ذلك قبر رابعة أخرى غير العدوية »^(١) . وكذلك عبد الرؤوف المناوى قال في ترجمته لرابعة بنت إسماعيل العدوية زوج أحمد بن أبي الحواري : « ماتت سنة خمس وثلاثين ومائة . ودفنت برأس زيتا بيت المقدس . وقيل المدفونة هناك إنما هي الأولى (أى رابعة العدوية البصرية) »^(٢) . ومن الواضح أن المناوى نقل هذا الخبر عن مؤرخ تحدث عن رابعة العدوية البصرية ، وتسببه إلى رابعة الشامية ، والدليل هو أنه جعل وفاة رابعة الشامية سنة خمس وثلاثين ومائة مع أنه يقول إنها زوج أحمد بن أبي الحواري ، وهذا توفي سنة ٢٣٠ هـ فكيف تكون زوجته إذن إذا كانت ماتت سنة خمس وثلاثين ومائة!! فالخلط إذن في رواية المناوى هنا ظاهر فاضح . وفريق ثالث أنكر أن يكون ذلك قبر رابعة العدوية . فابن بطوطة في رحلته يقول عن القدس ومزاراته : « ومنها قبر رابعة البدوية منسوبة إلى البادية » وهي خلاف رابعة العدوية الشهيذة »^(٣) . وكذلك الهروي في كتاب « الزيارات »^(٤) قال عن هذا القبر الموجود بظاهر بيت المقدس إن القبر لرابعة البدوية ، وهي امرأة أحمد بن أبي الحواري .

وإذا اتخذنا الصمت حجة وجدنا الواسطي الذي ألف كتابه « فضائل البيت المقدس » سنة ٤١٠ هـ لا يذكر أن قبر رابعة بطور زيتا .

على أن الذي فصل في المسألة بصورة قاطعة هو ياقوت في « معجم البلدان » تحت لفظ « المقدس » فقال ، وهو يتحدث عن ابن طاهر بن علي بن أحمد الحافظ المعروف بابن القيسراني : ومات ابن طاهر ودفن عند القبر الذي على جبلها

(١) ج ١ ص ١٩٣ ، القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ = سنة ١٩٣١ م .

(٢) « طبقات الأولياء » ، مخطوط الظاهرية بدمشق ، ورقة ١٠٦ به - ١١٠٧ .

(٣) ج ١ ، ص ١٢٤ ، س ٣ . (٤) ص ٤٠٠ .

(جبل القدس)، يقال له قبر رابعة العدوية، وليس هو بقبرها، وإنما قبرها بالبصرة. وأما القبر الذى هناك فهو قبر رابعة زوجة أحمد بن أبي الحواري الكاتب . وقد اشتبه على الناس « (١) ». وهذا أوضح بيان لهذه المشكلة، وفيه القول الفصل .

ذلك أننا لا نعلم أن رابعة العدوية قد رحلت إلى الشام حتى تموت هناك . فكيف يوجد قبرها إذن في ظاهر القدس الشريف على رأس طور زيتا؟! وإذن فالقبر الموجود بظاهر القدس على رأس طور زيتا إنما هو قبر رابعة الشامية سميتها المشهورة . أى رابعة زوج أحمد بن أبي الحواري كما بينا من قبل. واختلط الأمر على الناس هذه المرة كما اختلط عليهم في أكثر المواضع بين هاتين الصوفيتين . وشهرة رابعة العدوية البصرية قد أنست الناس رابعة الشامية فنسبوا القبر الخاص بهذه إلى الأولى .

على أن ثمة مسألة أخرى هي مسألة قبر ينسب إلى رابعة العدوية في دمشق. وقد زرته في ١٧/١٢/١٩٤٧ فوجدته بداخل بيت تحتله الآن شعبة الإخوان المسلمين في منطقتة . وقد كشفنا عن القبر فلم نجد عليه شاهداً . ويسكن إلى جواره شيخ جاوز الثمانين هو الشيخ عبد القادر القضاة وقد سألته عما يعرف من أحوال هذا القبر فأجاب بأنه يقيم إلى جواره منذ أكثر من خمسين سنة . وأنه قاوم كل إغراء له بمفادرة هذا المكان لسكنى الحى الجديد . حتى المهاجرين ، لأنه عرف من كرامات صاحبة القبر ما جعله يتبرك به . وهو يؤكد « رأينا هذا بأعيننا ، ولسنا بأيدينا » — هكذا بدأ حديثه بلهجة ملؤها الإيمان والسذاجة) أن لهذا القبر فوائد مجربة : من بينها أنه لم تحدث قط سرقة في هذا الشارع ، طوال الخمسين سنة التي أقام فيها إلى جوار هذا القبر ؛ وأنه لم يصب منه بيت بالقتال التي انتهت على هذا الحى من دمشق إبان ثورة سنة ١٩٢٥

(١) ياقوت « جم البلدان » ، تحت لفظ « المقدس » ، ج ٤ ، ص ٦٠١ ، نشرة فشتغلد .

على الرغم من أن بيوت الشوارع المجاورة قد أصيبت كلها من قنابل الفرنسيين هذه ؛ وأن الذى يزور القبر ليلة السبت مرتين متواليتين تقضى الحاجة التى من أجلها قام بهذه الزيارة . ولا يزال كثير من النسوة والشيوخ يمشون بالقبر فيتلبثون قليلا وينظرون من نافذته ذات القضبان المربعة ، يقرأون الفاتحة على روح صاحبتة ويطلبون البركة . وبالجملة فهو لا يزال عامراً بالحاجين إليه للتبرك ؛ ولا تزال ذكرى رابعة العدوية حية فى نفوس أهل دمشق والشام عامة .

والقبر عبارة عن مستطيل من البناء المصنوع من الحجر يبلغ طوله قرابة مترين فى عرض نيف ومتر ويقع على أرض تعلو بعض العلو عن أرض الغرفة الواسعة التى تحتلها الشعبة ؛ وهو فى غرفة خاصة على يمين الداخل . ومن فوق القبر قبو خشبي نصفه السفلى مستطيل ونصفه العلوى هرمي « وقد كسى بالحمل . والدار الموجود بها الشعبة والقبر يلوح أنها ليست قديمة « إذ هى مكونة من بعض الأحجار القديمة فى أصلها السفلى ، وفوق الباب كتابة تشير إلى منشئ الدار « ولكن دون ذكر التاريخ .

ترى لمن يكون هذا القبر؟ ولماذا نسب إلى رابعة العدوية؟

مسألة لا يمكن القطع فيها ؛ وكل ما يمكن افتراضه هو أن يكون قد عُمل لرابعة الشامية — وأصلها من دمشق — قبر فى هذا المكان ؛ وعلى توالى الزمان نسى اسمها الحقيقي ، واستبدل به اسم رابعة المشهورة ، رابعة العدوية كما حدث بالنسبة إلى القبر الموجود بطورزيتنا بظاهر القدس . أما كيف نفسر وجودهذين القبرين لشخص واحد ، فيمكن أن يقال إن رابعة الشامية قد توفيت بالقدس فدفنت هناك ؛ ولكن لما كان بلدها الأصلي الذى حيت فيه طوال عمرها هو دمشق ، فقد أقيم لها قبر رمزي فى دمشق كذلك ، لعله هو الموجود اليوم . على أن هذا فرض نجس ، وإن كان تمت شواهد على وجود قبرين وأكثر لشخص

واحد . ففي دمياط قبر لشيخ يدعى إبراهيم الشرباصى ، وفي بلدنا ، شر باص ، (على نهر النيل على مسافة ٢٢ كيلومتراً جنوبي دمياط) قبر للشيخ نفسه ؛ وأهل بلدنا يعتقدون أن القبر الحقيقي هو الموجود في شر باص ، أما القبر الموجود في دمياط فلا يحوى غير يده التى قطعت وهو يحارب الصليبيين فى حملة لوىس التاسع . وإذن فظاهرة وجود قبرين فى مكانين مختلفين لشخص واحد من الظواهر المشاهدة كثيراً بالنسبة إلى الأولياء المسلمين .

وهناك خبر أوردته المطار لو كان قد ذقق فيه لكفانا مؤونة الكثير من هذا البحث . ذلك أنه يقول إن محمد بن أسلم الطوسى ونعمى الطرطوسى زارا قبر رابعة فقالا : « يارابعة ! لقد افتخرت بأنك لم تحنى رأسك للدينا ولا للآخرة » فأين أنت الآن ؟ « فصاح صوت من قبرها يقول : « طوبى لى ! ما فعلته هو ما كان على أن أفعله ، والطريق الذى اكتشفته هو السبيل السوى » ^(١) . ومحمد ابن أسلم الطوسى ، الصوفى المشهور ، والمحدث الذى روى أحاديثه أبو نعيم فى « الحلية » ^(٢) ، قد توفى سنة ست وعشرين ومائتين . وليس لدينا ويا للأسف من التفاصيل عن حياته ما يسمح بمعرفة رحلاته ، على أن زيارته للبصرة أرجح من زيارته للقدس لقرب الأولى وبعد الثانية . وعلى كل حال فالخبر ليس بذى قيمة كبيرة . لأنه يقوم على أخبار بعيدة عن المعقول وذلك فى ذكره أن صوتاً صاح من القبر يرد عليهما ! !

وإخلاصة أن رابعة توفيت فى البصرة ، وأنه لا بد أن يكون لها قبر هناك هو الذى زاره أو أمكن أن يزوره محمد بن أسلم الطوسى ونعمى الطرطوسى — إن صح الخبر الذى أوردته المطار فى جملته ، لا فى تفصيله طبعاً ! — ولعل القبر تهدم فى

(١) المطار : « تذكرة الأولياء » ، ج ١ ، ص ٧٣ . ثمرة نيكسون .

(٢) أبو نعيم : « حلية الأولياء » ، ج ٩ ، ص ٢٣٨ — ٢٥٣ ، طبع مصر سنة ١٩٣٨ ؛

وراجع عنه أيضاً « طبقات الشعرا » ، ج ١ ، ص ٨٣ .

أحد التخريبات التي أصابت البصرة فدمرتها عن آخرها أو كادت .

يبقى علينا أن نعرض لمسألة تاريخ وفاة رابعة . وهنا الأمر يختلط
سمة أخرى .

فهناك رواية يلوح أن ابن الجوزي صاحبها تقول إن وفاتها كانت في سنة
خمس وثلاثين ومائة (= ٧٥٢م). فقد ذكر ابن خلكان^(١) أن ابن الجوزي ذكر
هذا التاريخ في كتابه «شذور العقود» . على أن ابن الجوزي في «صفة الصفوة»
لم يذكر لها تاريخ وفاة . وعن ذكر هذا التاريخ ابن تغرى بردى في «النجوم
الزاهرة»^(٢) ، والمرضى الزبيدي في «إتحاف السادة»^(٣) ، وابن شاكر الكتبي
في «عيون التواريخ»^(٤) ، وابن العباد في «الشذرات»^(٥) .

ورواية ثانية تقول إن تاريخ وفاتها سنة ثمانين ومائة ؛ وصاحبها الذهبي .
قال ابن تغرى بردى في كلامه عن سنة ثمانين ومائة: «الذين ذكر الذهبي وفاتهم
في هذه السنة : قال : وفيها توفى ... ورابعة العدوية. قلت : وقد تقدمت وفاتها
في قول غير الذهبي»^(٦) . ومن الذين تابعوا الذهبي على هذا التاريخ عبد الرؤوف
المنأوى في «طبقات الصوفية»^(٧) فقال : «ماتت سنة ثمانين ومائة ؛ وقيل
غير ذلك» .

(١) ابن خلكان : «وفيات الأعيان» ج ١ ، ص ٢٥٦ الفاهرة سنة ١٢٧٥ .

(٢) ج ١ ، ص ٣٣٠ ، س ٩ في كلامه عن سنة ١٣٥ هـ .

(٣) المرضي الزبيدي : «إتحاف السادة» ، ج ٩ ، ص ٥٧٦ و ٦٨١ .

(٤) ج ٣ ورقة ٧ ب عن سنة ١٣٥ ، ويذكر أن هذا قول ابن الجوزي ، مخطوط

الظاهرية برقم ٤٤ تاريخ .

(٥) ابن العباد : «شذرات الذهب» ، ج ١ ص ١٩٣ عن سنة ١٣٥ .

(٦) ابن تغرى بردى : «النجوم الزاهرة» ، نشرة دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٩

ج ٢ ص ١٠٠ س ٢٣ — ٢٤ .

(٧) مخطوط الظاهرية برقم ٤١٦٤ ورقة ١١٠٦ .

ورواية ثالثة تقول إنها توفيت سنة خمس وثمانين ومائة ؛ ذكر ذلك ابن خلكان^(١) وابن شاعر الكتبي^(٢).

فأى هذه الروايات الثلاث نختار ؟

يرى الأستاذ ماسينيون أن الرواية الثالثة هي أصح الروايات (وكذلك يمكن الأخذ بالثانية) ؛ وأن جعل تاريخ وفاتها سنة ١٣٥ إنما قصد به إلى جعلها تلميذة الحسن البصرى (ولدت سنة ٤١ هـ = ٦٤٢ م، وتوفى في غرة رجب سنة ١١٠ هـ = ١٠ أكتوبر سنة ٧٢٨ م). ونضيف إلى هذا أنه قد قصد بذكر هذا التاريخ المتقدم تبرير الحكايات التي رويت بينهما : فكيف كان يمكن التقاؤهما لو كانت رابعة توفيت سنة ١٨٠ هـ أو سنة ١٨٥ هـ بينما هو توفى سنة ١١٠ هـ ؟ خصوصاً إذا لاحظنا أن هذه الروايات تتحدث عن مكانة رابعة ورسوخ قدمها في الطريق إلى درجة أعلى من الحسن ، كما شاهدنا في روايات العطار .

والأستاذ ماسينيون يبرهن على اختياره لتاريخ سنة ١٨٥ بدلا من ١٣٥ بالبراهين التالية : أولا صداقتها المشهورة لأبي المهاجر رياح بن عمرو القيسي، وهو قد توفى حوالي سنة ١٨٠ هـ ، بل حوالي ١٩٥ هـ^(٣) (= سنة ٨١٠ م) ؟ فلو كانت رابعة توفيت سنة ١٣٥ هـ لما صح اجتماعها برياح بن عمرو القيسي. وثانياً إلتقاؤها بسفيان الثوري الذي أتى البصرة بعد سنة ١٥٥ هـ. وثالثاً حكاية خطبة الوالي العباسي للبصرة، محمد بن سليمان الهاشمي، لها، وهو قد كان والياً على البصرة سنة ١٤٥ هـ.

(١) ابن خلكان : « وفيات الأعيان » ج ١ ، ص ٢٥٦ القاهرة سنة ١٢٧٥ .

(٢) ج ١ ، ص ٣٣٠ ، ص ٩ في كلامه عن سنة ١٣٥ هـ .

(٣) ذكر ماسينيون التاريخ التالي : حوالي ١٨٠ هـ في « بحث في أصول المصطلح » [ص ١٩٣

تطبيق ٣ ، ص ١٩٥] ولكنه عدل عنه في كتابه « مجموعة نصوص غير منشورة » [باريس

سنة ١٩٢٩ ، ص ٦] فذكر التاريخ الآخر وهو : حوالي سنة ١٩٥ .

وتوفى سنة ١٧٠ هـ^(١) ونضيف نحن إلى هذا أيضاً صلحتها الوثيقة بعبد الواحد بن زيد المتوفى سنة ١٧٧ هـ (= ٧٦٣ م) .

وهذه الحجج حجج حاسمة ، ولا شك في أن التاريخ : ١٣٥ هـ إنما قصد به إلى تمكين لقائها بالحسن البصرى حتى يتم الإسناد وتصح الروايات التى تتحدث عن اجتماعهما . لكن موضع الصعوبة بعد هى فى الاختيار بين سنة ١٨٠ وسنة ١٨٥ لأن هذه الحجج إنما تتعلق باستبعاد سنة ١٣٥ هـ . بيد أننا لا نستطيع ، بحسب ما لدينا من وثائق حتى الآن ، أن نفصل بين هذين التاريخين .
وإذن فراصة توفيت إما سنة ١٨٠ هـ أو سنة ١٨٥ هـ (= سنة ٨٠١ م) .

(١) راجع ماسينيون : « بحث فى أصول المصطلح الفنى للتصوف الإسلامى » ، ص ٦٩٣ .
تهلوق ٥ : ١٩٢٢ .

أخبار رابعة

نصوص منشورة وغير منشورة

تصدير

ها نحن أولاء نورد فيما يلي طائفة من الأخبار والأقوال التي خَافها للمؤرخون والكتاب عن رابعة العدوية ، سعينا من ورائها إلى أن نضع بين أيدي الناس الآثار الباقية من هذه الصوفية ، لتكون بمثابة شواهد للتحليل الذي قمنا به ، ومواد لغيرنا ممن يريدون استئناف البحث في حياتها ونظرتها الروحية ، فنوفر عليهم مؤونة مجهودات شاقة بذلناها في التنقيب عن مخلفاتها النادرة ، وعسى أن تكون في هذا أسوة للعاملين في ميدان الفكر العربي والإسلامي . فيضم كل باحث ما عثر عليه من آثار نادرة عن الشخصية أو المذهب الذي هو بصدد البحث فيه ، ولعل لهذا في بعض الأحيان من العائدة ما يفوق عمل التحليل نفسه .

ولسنا نزعم في شيء أننا أتينا على كل ما بقي لدينا حتى اليوم من آثار رابعة . فهيات ! هيات ! فالنصوص غير المنشورة لا تزال تعدنا بالكثير الذي قد يفوق كل ما حصلناه حتى اليوم بعدد المرات . والنصوص المنشورة لم نورد منها إلا كل ما وقع بين أيدينا ، برغم كل ما بذلناه من جهد في هذا السبيل . وقد أغفلنا منها تلك التي لا تورد أشياء جديدة ، بل أخباراً تكاد تتكرر بعينها في أكثر من نص مما أوردناه ، مثل ابن خلكان (ح ١ ، طبع القاهرة سنة ١٢٧٥ ، ص ٣٥٦ — ص ٢٥٧) و « طبقات » الشعرائي (ح ٨ ، ص ٨٦ ، القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ) ومحمد بن علي الأسنوي (المتوفى سنة ٥٧١٥ هـ = ١٣٦٣ م) مؤلف « حياة القلوب » (بهامش « قوت القلوب » لأبي طالب المكي ، القاهرة سنة ١٣١٠) ومثل كتب التاريخ العامة . كذلك لم نورد ما ورد أكثر تفصيلا ودقة في المصادر الأخرى التي نقلت عنها هذه الأخبار المتأخرة .

الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ = سنة ٨٦٩ م) ، « البيان والتبيين » :

(١) > ٣ ، ص ٨٥ ، القاهرة سنة ١٣٣٢ :

« الثورى عن حبيب بن أبى ثابت . . قال : وقيل لرابعة القيسية : هل عملت عملاقاً ترين أنه يقبل منك ؟ قالت : إن كان شياً ، نخوفى من أن يُردَّ علىَّ »
(ب) > ٣ ، ص ١٢٢ ■ نشرة السندوبى : فى باب « نساك البصرة وزهادها » :
« عامر بن عبد قيس ■ وُبجالة بن عبدة العنبريان ؛ وعثمان بن آدم ؛ والأسود ابن كلثوم ؛ وصلة بن أشيم ؛ ومذعور بن الطفيل ؛ ومن بنى منقر : جعفر وحرب ابنا جر فاس . كان الحسن يقول : إني لا أرى كالجعفرين جعفرا ، يعنى جعفر بن جر فاس وجعفر بن زيد العبدي .

ومن النساء : معاذة العدوية ، امرأة صلة بن أشيم ؛ ورابعة القيسية

(ح) الجاحظ : « الحيوان » ، > ١٠ ص ٧٨ (طبع مصر سنة ١٩٠٧) :

« فإن تهيأ مع ذلك من هذا المتعشق أن تدمع عينه ■ احتاجت هذه المرأة أن يكون معها ورع أم الدرداء ■ ومعاذة العدوية ، ورابعة القيسية ، والشجا الخارجية » .

السراج (المتوفى سنة ٣٧٨ هـ = سنة ٩٨٨ م) ، « اللع » ■ نشرة

نيكلسون ■ ص ٣٢٢ :

ذكرها فى « باب فى الأدلة على إثبات الكرامات للأولياء » ، حيث أوردتها من بين جملة أشخاص منهم محمد بن واسع وعبد الواحد بن زيد وأيوب السخيتانى .

الكلاباذى (المتوفى سنة ٥٣٨٠ = ٩٩٠ م) : « التعرف لمذهب أهل التصوف » ، نشرة آر برى ، القاهرة سنة ١٩٣٣ :
(١) « قولهم فى الرضا » ، ص ٧٣ :

« ... قال سفيان (الثورى) عند رابعة : اللهم ارض عني ! فقالت له :
أما تستحي أن تطلب رضا من لست عنه براض ؟ ! »

(ب) « لطائف الحق بهم فى غيرته عليهم » ، ص ١٢١ :

« دخل جماعة على رابعة يعودونها من شكوى ، فقالوا : ما حالك ؟ قالت :
والله ما أعرف لعأتى سببا : عرّضت على الجنة فلت بقلبي إليها ؛ فأحسب أن
مولاي غار على » فعاتبني ، فله العتبي (١) .

الهجویری : « كشف المحجوب » ، (ترجمة نيكلسون الإنجليزية ، ليدن
سنة ١٩١١ ، ص ٣٥٨) : « ولقد قرأت أن رجلا من أهل الدنيا قال لرابعة :
سلينى حاجتك . فقالت : إني لأستحي أن أسأل الدنيا من يملكها ، فكيف
أسألها من لا يملكها ؟ ! » (٢) .

أبو سعيد بن أبى الخير فى « أسرار التوحيد » للمنور (المتوفى سنة ٦٠٠ هـ =
سنة ١٢٠٣ م) ، بطرد غراد سنة ١٨٩٩ ، ص ٣٤٥ : قال أبو سعيد بن أبى الخير

(١) العتبي = الرضا .

(٢) راجع هذا القول فى « إتخاف السادة » للزبيدى ، ص ٥٧٦ ، كما سيرد بعد

أحسب أن في قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غيره تبارك اسمه . قال : فصرخ رباح وسقط
مفثياً عليه ثم أفاق وهو يمسح العرق من عند وجهه وهو يقول : رحمة منه تعالى
ذكره ألقاها في قلوب العباد للاطفال . —

3. (id)=(trad. E, 195. n. 3):

قال [رباح] : سمعت مالك بن دينار يقول : لا يبلغ الرجل منزلة الصديقين
حتى يترك زوجته كأنها أرملة ويأوى إلى مزابل الكلاب .
(p. 750)=(trad. p. 164) f. « التنبيه » وملطى ap. خشيش النسائي 4. (p. 7)
ومنهم صنف من الروحانية زعموا أن حب الله يغلب على قلوبهم وأهوائهم
وإرادتهم حتى يكون حبه أغلب الأشياء عليهم . فإذا كان كذلك عندهم وكانوا
عنده بهذه المنزلة وقعت عليهم الخلة من الله ، فجعل لهم السرقة والزنا وشرب الخمر
والفواحش كلها على وجه الخلة التي بينهم وبين الله ، لا على وجه الحلال ولكن
على وجه الخلة ، كما يجمل للخليل الأخذ من ما خليله بغير إذنه ، منهم رباح
وكليب كانا يقولان بهذه (f. 156) المقالة ويدعوان (في نص ما سينيون :
يدعون) إليها . . .

5. (trad. E 196)=(f. 166) « التنبيه » : ملطى ap. « الاستقامة »، خشيش):

ومنهم صنف يقولون إن ترك الدنيا اشتغال للقلوب وتعظيمُ للدنيا، ومحبة لها ،
لما عظمت عندهم تركوا طيب طعامها ولذيد شرابها ولثمن لباسها وطيب رأتحتها ،
فأشغلوا قلوبهم بالتعليق بتركها ، وكان من إهانتها مواتاة الشهوات عند اعتراضها
حتى لا يشتغل القلب بذكرها ويعظم عنده ما ترك منها <
كانا يقولان بهذه المقالة

(ms. Berlin, f. 37 b ، شكوى ، عين القضاة الهمداني) 6:

(رابعة) . . . وخطبها عبد الواحد بن زيد ، مع علو شأنه ؛ فهجرته أياماً

حتى شفع له إليها إخوانه . فلما دخل عليها قالت له : « يا شهوانى ! اطلب شهوانيةً مثلك ! » ■

7. (05 ، جلاء , الوسى ap الشذرات ، ابن العماد) (p. 8)

(عن رابعة) « وعزتك ما عبدتُك رغبةً في جَنَّتِكَ ، بل لمحبَّتِكَ ، وليس هذا (أى الجنة) ما قطعت عمرى في السلوك إليه . »

8. (trad, p. 279) = f. 95, 91 والرد على الحريرية , ان تيمية) .

قال (على الحريري): قيل عن رابعة إنها حَجَّتْ فقالت : هذا [أى البيت] الصنمُ المعبود في الأرض . وإنه ما ولجّه الله ولا خلا منه « (١)

9. (مناقب العارفين: وأفلاكي) ms. Paris af. persan 114, f. 411 a)

—(Huart, Saints 310).

روزی جماعتی صاحب دلان دیدند که رابعة بدستی آتش گرفته بود ، و بدستی آب ، و باستعجال می دوید، سوال کردند که أى بانوی آخرت کجای روی ، و در چیستی ، گفت می روم آتش در بهشت زخم و آب دردوزخ ریزم ، تا این هر دو حجاب ره روان از میانه بر خیزند ، و مقصد مُعین شود ، و بندگان خدا خدارابی غرض رجا و علت خوف خدمت کنند . چه ا کد رجای جنت و خوف جحیم نبودى ، یکی حق را نپر ستیدی . و مطاوعت نمودى ؟ (٢)

(١) راجع مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية - ص ٨٠ - ص ٨١ . القاهرة

سنة ١٣٤١ = ١٩٢٢ .

(٢) هـاك ترجمتها :

في ذات يوم رأى جماعة من الفتيان رابعة وفي إحدى يديها نار . وفي الأخرى ماء وكانت تدمو بسرعة — فسألوها : أيتها السيدة ! إلى أين أنت ذاهبة ؟ وماذا تبحثين ؟ فقالت : أنا ذاهبة إلى السماء حتى ألقى بالنار في الجنة وأصب الماء في الجحيم — فلا تبقى الواحدة ولا الأخرى ويظهر المقصود . فينظر العباد إلى الله دون رجا . ولا خوف . ويعبدونه على هذا النحو — ذلك أنه لو لم يكن ثمت رجا في الجنة وخوف من الجحيم أفكانوا يعبدون الحق ويطيعونه ؟

10. (أبو نعيم ، loc. cit. ms Damas Zah tas. 115 s. v.

(E 195, n.2) = (رباح)

— عن رباح — قال (الله تعالى للموحدين يوم الدين) : فهل تعرفون
ربكم إذا رأيتموه ؟ قالوا : إن ما عرفنا نفسه . قال : فيتجلى لهم تعالى فيخروون
له سُجَّدًا .

11. « قوت » ، أبو طالب المكي (المتوفى سنة ٢٨٦ = ٩١٦ م » .
(éd. Cairo, I, 183) = (p. 45) :

اختلف أهل العلم أيضاً في عبد ترك ذنباً وعمل في الاستقامة . ونفسه تنازعه
إليه وهو يجاهدها ، وفي آخر ترك الذنب وانكش في الإصلاح فلم تكن نفسه
تطالبه فلا تنازعه إلى الذنب ولم يكن على قلبه منه ثقل ولا مجاهدة — أي هذين
أفضل ؟ فقال بعض علماء الشام (= أحمد بن أبي الخوارى وأصحاب أبي سليمان
الدارانى) : الذى تنازعه نفسه وهو يجاهدها أفضل . . . وقال علماء البصرة
(= رباح بن عمرو القيسى) : الذى سكنت نفسه عن المنازعة بشاهد من شواهد
اليقين والطمأنينة . . . أفضل .

عقلاء المجانين لأبى القاسم الحسن بن محمد بن حبيب

النيسابورى (المتوفى سنة ٤٠٦ هـ) ، طبع دمشق سنة ١٩٢٤ .

[١٢٥] : ريحانة

قال إبراهيم بن الأدهم رحمه الله ذِكْرَتُ لى ريحانة، فخرجت إلى الأُبلة ،
[١٢٦] فإذا أنا بجارية سوداء قد أتر البكاء في خديها خطأ ، فذاكرتها

سَيِّئًا مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ ، فَأَنْشَأْتُ تَقُولُ :

مَنْ كَانَ رَاكِبَ يَوْمٍ لَيْسَ بِأَمْنَهُ
وَكَيْفَ يَلْتَذُّ عَيْشًا لَا يَطِيبُ لَهُ !
وَلِيَالِهِ تَأْمَهُمْ فِي عَقَبِ دُنْيَاهُ
وَكَيْفَ تَعْرِفُ عَيْنٌ (١) الْفُضْضَ عَيْنَاهُ !

وَأَنْشَدْتُ أَيْضًا :

صَبَرْتُ عَنْ اللَّذَاتِ حَتَّى تَوَلَّتْ
وَمَا النَّفْسُ إِلَّا حَيْثُ يُجْعَلُهَا الْفَتَى
وَأَلْزَمْتُ نَفْسِي صَبْرَهَا فَاسْتَمَرَّتْ
فَإِنْ أَطْمَمْتُ تَأَقَّتْ ، وَإِلَّا نَسَلَتْ

وَلَهَا أَيْضًا :

وَمَا عَاشِقُ الدُّنْيَا بِنَاجٍ مِنَ الرَّدَى
فَكَمْ مَلِكٍ قَدْ صَفَّرَ الْمَوْتَ بَيْتَهُ
وَلَا خَارِجٌ مِنْهَا بِغَيْرِ غَلِيلِ
وَأَخْرَجَ مِنْ ظِلِّ عَلَيْهِ ظَلِيلِ

وَلَهَا أَيْضًا :

حَسْبُ الْحُبِّ مِنَ الْحَبِيبِ بَعْلَمُهُ
وَالْقَلْبُ فِيهِ إِنْ تَنَفَّسَ فِي الدُّجَى
أَنْ الْحُبُّ بِيَابِهِ مَطْرُوحٌ
بِسَهَامِ لُوعَاتِ الْهَسْوَى مَجْرُوحٌ

وَأَنْشَدْتُ أَيْضًا :

بُوجْهِكَ لَا تَعْدُ بَنِي فِإِنِّي
مَنْجِدَةٌ مَزْخَرَفَةُ الْعَلَالِي
أَوْمَلُّ أَنْ أَوْفُزَ بِخَيْرِ دَارٍ (٢)
بِهَا الْمَأْوَى ، وَنِعْمَ هِيَ الْقَرَارُ !
وَأَنْتَ تَجَاوَرُ الْأَبْرَارِ فِيهَا
وَلَوْلَا أَنْتَ مَا طَابَ الْمَزَارُ

وَأَنْشَدْتُ أَيْضًا :

اجْعَلْ لِنَفْسِكَ فِي اللَّيَالِي نَهْبَةً
وَأَنْسِ إِلَى طَوْلِ الْقِيَامِ مَخْلَدًا
تَنْهَبُكَ مِنْ خَلْلِ الْمَنَامِ قِيَامًا
وَأَتْرِكُ لِدَيْدِ النَّوْمِ وَالْأَحْلَامِ (٣)

(١) كَذَا ! وَلَعَلَّ صَوَابُهُ : طَعْمٌ .

(٢) كَذَا بِالْكَسْرِ ، مَعَ أَنْ بَقِيَّةَ أَوَاخِرِ الْآيَاتِ بِالضَّمِّ .

(٣) فِي الطَّبُوعِ : قِيَامٌ ... الْأَحْلَامُ .

وأيضاً :

تَبَوَّذَ سَهْرَ اللَّيْلِ فَإِنِ النَّوْمُ مُخْسِرَانِ
وَلَا تَبْرَكَنَّ إِلَى الذَّنْبِ فَإِنِ الذَّنْبُ نِيرَانِ
فَكُنْ لِلْوَحْيِ دَرَّاسًا : وَلِلْقُرْآنِ أَخْدَانِ
[١١٧] إِذَا مَا اللَّيْلُ فَاجَاهُمْ غُهِمٌ فِي اللَّيْلِ رُهْبَانِ
يَمِيلُونَ كَمَا مَالَ مِنْ الْأَرْيَاحِ أَعْصَانِ
وأيضاً :

أرى الدنيا لمن هي في يديه عذاباً كلما كبرت لديه
تهين للكرومات بينها بصغير وتكرومُ كلما هانت عليه
إذا استغنيت عن شيء فدعه وخذ ما كنت محتاجاً إليه

...

حَيَوْتُهُ

قال راشد بن علقمة الأهوازي : كانت حيوته إذا جتَّها الليلُ تقول في دعائها :
يا واحدى ! تمنعني بالليل التلاوة ، ثم تقطعني عنك بك في ضياء النهار ؟ ! إلهى !
ووددت أن النهار ليل حتى أمتع بقربك !

قال سلام الأسود : طلعت عليها الشمس يوماً فأذتها ، فقالت :
إن كنت تعلم أنني بك والله فاصرف سموم الشمس عني ، سيدي !
قال : ففعمت السماء في الوقت .

قال سلام : صامت حيوته حتى اسودت ، فموتبت في ذلك ، فرفعت طرفها
[١٢٨] إلى السماء وقالت : قد لامني خاتمك في خدمتك ؛ فوعزتك وجلالك !
لأخذ ممك حتى لا يبقى لي عصب ولا قصب . ثم أنشأت تقول .

ياذا الذى وعد الرضا لحبيبه أنت الذى ما إن سواك أريد

قال سلام الأسود : نظرتُ إليها في يوم شديد الحر ، فقالت : اسكت ! عند المبلغ يفرح الوردون ، وعند العرّض تنقطع الأسباب ، وعند قوله خذوه تنشر أعلام العارفين .

زارت رابعة حيونة ، فلما كان جوف الليل حمل للنوم على رابعة ؛ فقامت إليها حيونة فركلتها برجلها وهي تقول : قومي ! قد جاء عرس المهتدين . يا من زين عرائس الليل بنور التهجّد !

قال (١) سلام : وقفت حيونة يوماً على عبد الواحد ثم نادى : يامتكم ! تكلم عن نفسك ! والله لو مُت ما تبت جنازتك قال : ولم ؟ قالت : تتكلم على الخليفة وتتقربن لهم ! ما شبهتكم إلا بعلم صبيّ علمه أن يحفظ بالقسيّ فإذا بكر من بيت أمه نسي ، فيحتاج المعلم إلى ضربه . اذهب يا عبد الواحد ! اضرب نفسك بدرّة الأدب وتزوّد زاد القناعة ، واجعل حظك مما أنت فيه الكلام على نفسك ؛ ثم تكلم على الخليفة . قال سلام . فلقد عرف عبد الواحد وأقام ما يتكلم على الناس سنة . وأنشدت :

وليس للميت في قبره فطرٌ ولا أضحى ولا عشرٌ
بات من الأهل على قبره كذلك من مسكنه القبرُ

قال سلام : سمعت حيونة تقول : من أحبّ الله أتس ومن أنس طرب ، ومن طرب اشتاق ، ومن اشتاق ولّه ، ومن وله حرم (٢) ، ومن حرم وصل ، ومن وصل اتصل ، ومن اتصل عرف ، ومن عرف قرب ، ومن قرب لم يرقد وتسورت عليه بوارق الأحزان .

وكانت تقول : اللهم هب لي سكون قلمي [١٢٩] بعقد الثقة بك ، واجعل لجميع خواطري واثقة برضاك ، ولا تجعل حظي الحرمان منك . يا أمل الآملين ! قال إبراهيم : زارت ريمانة حيونة ، فلما جن الليل جاء المطر والريح الشديدين ،

(١) في هذه القصة مهاجة للوظائف من الصوفية — فتأملها .

(٢) حرم (من باب كرم) خرامة : كان ذا مجون وخلاعة .

تفزع ربحانة ، فضحكت حيونة وقالت لها : يا مدبرة العمل ! لو علمت أن في قلبي محبة غيره أو خوف سواه لوجأته^(١) بالسكين .

سلمونة

قال سهل بن سعد : كانت عندنا بمبادان امرأة مجنونة اسمها سلمونة ، وكانت تُفَيِّب شخصها بالنهار فلا ترى ، فإذا كان الليل صعدت السطح وجعلت تنادى إلى الصباح : سيدى ومولاي ! حَمَبْتِنِي عن عقلى ، وأوحشتنى عن خلقك ، وآنستنى بذكرك ، وقد نفيت عن خلقك ، فوا أسفا ! إن نفيتُ عنك .

ميمونة

قال إبراهيم بن الأدهم : رأيت في المنام كأن قائلًا يقول : إن ميمونة السوداء زوجتك في الجنة . قال : فكنت أطلبها حتى وجدت أثرها بجمص ، فطلبتها فقيل : إنها مجنونة لا تألف أحداً . قلت : فأين هي ؟ قيل : دفعنا إليها أغناماً ترعها في الجبانة . فخرجتُ إلى الجبانة فإذا هي قائمة تصلى ، والشاة والذئب في مكان واحد ؛ فوقفْتُ متعجباً . فلما قضت الصلاة قالت : يا إبراهيم ! الموعد في الجنة لا هنا . فعجبت من فطنتها . فقلت : يا سبحان الله ! ألسنت مؤتمنة على هذه الأغنام ؟ قالت : بلى . قلت : فلم عطلتها حتى توسطتها الذئاب ؟ قالت : سلمتها إلى منشئها . ثم قالت : ارتفعت الحشمة بيني وبين من أنا قائمة بين يديه ، فهو الذى رفع الوحشة بين الشاة والذئاب . ثم ولت وأنشأت تقول :

قلوبُ العارفين لها عيونُ ترى ما لا يراه الناظرون
وَألسنةٌ بسرٍ قد تنأجى تغيب عن الكرام الكاتبين
[١٣٠] وأجنحةٌ تطير بغير ريش إلى ملكوت رب العالمين
فتسقيها شراب الصديق صِرْفاً وتشرب من كووس العارفين

الزبيدي : « إتحاف السادة المتقين في شرح إحياء علوم الدين للغزالي » :

(١) > ٩ ، ص ٥٧٦ :

... (وقال) سفيان (الثوري) رحمة الله تعالى (لرابعة) ابنة اسماعيل
العدوية البصرية العابدة رحمها الله تعالى ، وكانت إحدى المحبين ؛ ماتت
سنة ١٣٥ . وكان الثوري يقعد بين يديها ويقول: علمينا مما أفادك الله من طرائف
الحكمة . وكانت تقول له : نِعَمَ الرجل أنت لولا أنك تحب الدنيا ! وقد كان
الثوري زاهداً عالماً ، إلا أنها كانت تجعل إثثار كتب الحديث والإقبال على الناس
من أبواب الدنيا . وقال لها الثوري يوماً : لكل عَقْدٍ شريطة ، ولكل إيمان
حقيقة و (ما حقيقة إيمانك ؟ قالت : ما عبدته خوفاً من ناره ولا حباً لجنته ،
فأكون كالأجير السوء إن خاف عمل) أو إذا أعطى عمل ، (بل عبدته حباً له
وشوقاً إليه) . وروى عنها حماد بن زيد أنها قالت : إني لأستحي أن أسأل
الدنيا من يملكها ، فكيف أسألها من لا يملكها ؟ ! فكان هذا جواباً لأنه
قال : سليني حاجتك . وخطبها عبد الواحد بن زيد فحجبتة أياماً حتى سئلت أن
يدخل عليها ، فقالت له : يا شهواني ! اطلب شهوانية مثلك ! أي شيء رأيت
في من آلة الشهوة ؟ ! وخطبها محمد بن سليمان الهاشمي أمير البصرة على مائة
ألف وقال : لي غلّة عشرة آلاف في كل شهر أجعلها لك . فكتبت إليه :
ما يسرنى أنك لي عبد ، وأن كل مالك لي ، وأنت شغلتنى عن الله طرفة عين .
(و) قد قالت في معنى المحبة ، أيلتاً (نظماً) تحتاج إلى شرح . حملها عنها أهل
البصرة وغيرهم ، منهم سفيان الثوري وجعفر بن سليمان الصُّبَعي وعبد الواحد بن
زيد وحماد بن زيد وهي هذه :

(أحبك حبين : حب الهوى وحباً لأنك أهل لذلك

فأما الذى هو حب الهوى فشغلى بذكرك عن سواك

وأما الذى أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراك

[٥٧٧] فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاك)

وقد تكلم صاحب «القوت» على هذه الآيات بكلام ساطع الأنوار يعرفه من رزقه وينكره من حرمة . والمصنف رحمه الله أشار إلى زبدة كلامه . فلنورد كلامه أولاً تم كلام صاحب « القوت » . قال المصنف : (ولعلها أرادت « بحب الهوى » حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة ، « وحببه لما هو أهل له » الحب الجماله وجلاله الذى انكشف لها . وهو أعلى الحبين) فقد أشار بذلك إلى أن كلامها يدل على أن المحبة بهذا السبب أقوى الأسباب وأثبتها دوماً . وأما صاحب « القوت » فقال : فأما قولها : « حب الهوى » وقولها « حب أنت أهل له » وتفرقتها بين الحبين فإنه يحتاج إلى تفصيل حتى يقف عليه من لا يعرفه ويخبره من لم يشهده . وفى تسميته ونعت وصفه إنكار من ذوى العقول ممن لا ذوق له منه ولا قدر له به . ولكننا نجد ذلك وندل عليه من عرفه : معنى حب الهوى — أى رأيتك فأحببتك عن مشاهدة اليقين . لا من خبر وسمع تصديق من طريق النعم والإحسان . فتختلف محبتي إذا تغيرت الأفعال لاختلاف ذلك على ؛ ولكن محبتي من طريق العيان ، فحربت منك ، وهربت إليك ، فاشتغلت بك لما تفرغت لك كما قال المحب :

فرَّغت قلبها اشتغالا بذكركى وكذا كلُّ فارغ مشغول

وعلى هذا المعنى قوله تعالى . « وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً »^(١) أى ملآن بذكركه

حتى فاض فكادت أن تظهره فتقول : هو ابني . فعبر عن الملء بالفراع من ضده ، لولا أن أولينا عليه بربطنا فكظمت ، ولو لم تفعل لأظهرت ، ولو أظهرت لقتل .

وأما الحب الثانى الذى هو أهل له: تعنى حبّ التعظيم والإجلال لوجه العظيم
ذى الجلال . تقول : ثم إنى مع ذلك لا أستحق على هذا الحب ولا أستأهل —
أن^(١) أنظر إليك فى الآخرة على الكشف والعيان فى محل الرضوان، لأن حبي لك
لا يوجب لك جزاء عليه بل يوجب علىّ كلّ شيء مما لا أطيقه ولا أقوم بحقك
فيه أبداً ، إذ كنت قد أحببتك فلزمنى خوفُ التقصير ، ووجب علىّ الحياء من
قلة الوفاء والخوف لما تعرضتُ به من حبك ، إذ ليس كمثلك شيء ، كما قال الحب .

أصبحتُ صبياً ولا أقول بمن خوفاً لمن لا يخاف من أحد
إذا تفكرتُ فى هوى له لمست رأسى: هل طار عن جسدى؟

لولا أن الحب ينطق والشوق يقلق ، والوجد يحرق . فالحب لا يلام لقبية النفس
عنه، وإلا نام . تقول : تفضلت علىّ بفضل كرمك ، وما أنت له أهل من تفضلك ،
فأريتني وجهك عندك آخرأ ، كما أريتني اليوم عندك أولاً ؛ فلك علىّ ما تفضلت
به فى ذاك عندى فى الآخرة ، ولا حمد لى فى ذاهانا ، ولا حمد لى فى ذاك هناك .
إذ كنت أنا وصلت إليها بك ؛ فأنت الحمود فيهما لأنك وصلتني بهما .

فهذا الذى فسرناه هو وجد المحبين المحققين . وقد كانت تذكر الأنس فى
وجدها وترتفع إلى وصف معنى من الخلة فى قولها السائر :

إنى جملتك فى الفؤاد محددتى وأبجتُ جسدى من أراد جلوسى
فالجسمُ منى للجلوس مؤانسٌ وحبيبُ قلبى فى الفؤاد أنيسى
ومن قولها النادر فى مقام الخلة :

وتخلتَ مسلكَ الروحِ منى وبه سمىّ الخليلُ خليلاً
فإذا ما نطقتُ كنتَ حديثى وإذا ما سكتُ كنتَ الغليلاً

وقد أهل ذلك لها كل ما نقله عنها من العلماء ووصفوها به ؛ فوصفنا من

(١) أن المصدرية وما بعدها واقع فى محل نصب لأنه مفعول : أستحق ... أستأهل .

نعت المحبين بعض ما يصلح من معنى كلامها ، لأننا ظننا بقولها ذلك أن كان لها في المحبة قدم . ولا يسعنا أن نشرح في كتاب حقيقة كشف ما أوجلتناه ، ولا أن نفصل وصف ما ذكرناه . ومن لم يكن من المحبين كذلك حتى لا يدل بمحبته ولا يقتضى الجزاء عليها من محبوبه ، ولا يوجب على حبيبه شيئاً لأجل محبته ، فهو مخدوع بالمحبة . ومحجوب بالنظر إليها . وإنا ذلك مقام الرجاء — الذى ضده الخوف — ليس من المحبة فى شيء . ولا تصح المحبة إلا بخوف المقت فى المحبة . وقال بعض العارفين : ما عرفه من ظن أنه عرفه ، ولا أحبه من توهم أنه أحبه — هذا كلام صاحب « القوت » .

(ب) ح ٩ بالهامش ص ٦٨١ فى باب : « بيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم » :

« وقالت رابعة العدوية يوماً : من يدلنا على حبيبنا ؟ فقالت خادمة لها : حبيبنا معنا ، ولكن الدنيا قطعنا عنه » .

فى شرح الزبيدى : « (وقالت) أم الخير (رابعة) بنت اسماعيل (العدوية) البصرية قدس سرها المتوفية سنة ١٣٥ (يوماً) : من يدلنا على حبيبنا ؟ فقالت خادمة لها : حبيبنا معنا ، ولكن الدنيا قطعنا عنه) — أعلم أن رابعة قدس سرها كانت رأساً فى المعرفة والمحبة كما هو مشهور من حالها ، ولا يخفى عليها مقام المعية . وإنما قالت ما قالت وهى فى مقام الاستفراق الذى هو من نتائج المحبة وغلب عليها الشوق إلى المشاهدة ؛ والمحبة فى مقام القرب قد يتطلب من يأخذ بيده ويتعلق بالأذيال فنبهتها الخادمة على أن الوصول إلى مقام المشاهدة لا يكون إلا بعد المفارقة من هذا العالم ، فتمتنع عنه القواطع . فما أدق نظرها رحمها الله ! »

[فى صلب ص ٦٨١ > ٩]

(>) ح ٩ بالهامش ص ٦٨٢ : الباب عينه :

« وقيل لرابعة : كيف حُبِّبَكَ للرسول صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : والله إني لأحبه حباً شديداً ؛ ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين » .

في شرح الزبيدي : « (وقيل لرابعة) العدوية قدس سرها (كيف حبك للرسول صلى الله عليه وسلم — فقالت : إني والله أحبه حباً شديداً ؛ ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين) . وحكى عن أبي سعد الخراز ، قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت : يا رسول الله ! اعذرني ، فإن محبة الله شغلتنى عن محبتك . فقال : يا مبارك ! من أحب الله فقد أحبني — نقله القشيري » [في صلب ص ٦٨٢ > ٩] .

(د) في شرح الزبيدي (نقلاً عن كتاب « مصارع العشاق » . لأبي محمد السراج)^(١) .

« أخبرنا القاضي أبو الحسن التَّوْزِي ؛ أخبرنا ابن يحيى ؛ حدثنا الحسين ابن صفوان ؛ حدثنا ابن أبي الدنيا ؛ حدثنا محمد بن الحسين ؛ حدثني أبو معمر صاحب عبد الوارث ؛ قال : نظرت رابعة إلى رباح القيسي وهو يقبل صبياً من أهله ويضمه إليه فقالت : أتجبه يارباح ؟ قال : نعم . قالت : ما كنت أحسب أن في قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غيره . قال . فصاح رباح وسقط مفشياً عليه » . (٩ > ص ٦٨٨) .

(هـ) شرح الزبيدي > ٩ ص ٦٨٨ :

وردت الأبيات المشهورة المنسوبة إلى رابعة على أنها ليست لها بل لجارية لقيها ذوالنون ؛ قال : (وهو ينقل عن مصارع العشاق لأبي محمد السراج)^(٢) :

« . . . قال ذوالنون : بينما أن أسير على ساحل البحر إذ بصرتُ بجارية

(١) راجعه بعد ، وهو في « مصارع العشاق » ص ١٨١ مطبع الجواثب سنة ١٣٠١ .

(٢) وردت في مصارع العشاق لأبي محمد السراج القارى ، ص ١٨٠ — ص ١٨١ ، مطبع

الجواثب بالقـ.طنطينية سنة ١٣٠١ هـ .

عليها أظمار شعّر ؛ وإذا هي ناحلة ذابلة . فدنوتُ منها لأسمع ما تقول ، فرأيتها
متصلة الأحزان بالأشجان ، وعصفت الرياح واضطربت الأمواجُ وظهرت الحيتان ،
فصرخت ثم سقطت إلى الأرض . فلما أفاقَت — نجت . ثم قالت : سيدي !
بك تقرب المتقربون في الخلوات ؛ ولعظمتك سبحت الحيتان في البحار الزاخرات ،
ولجلال قدسك تصافقت الأمواجُ المتلاطبات . أنت الذي سجد لك سوادُ الليل
وضوء النهار ، والفلك الدوّار ، والبحر الزخار ، والقمر النوّار ، والنجم الزّهّار
وكل شيء عندك بمقدار ، لأنك الله العليُّ القهار .

يا مؤنِسَ الأبرار في خَلَوَاتِهِمْ يا خَبِرَ من حَدَثَ به النُّزُرُ
من ذاق حُبِّكَ لا يزال مُتَمَبِّئاً فَرَحَ الفؤاد - مَتَبِّئاً - بَدَلِ
من ذاق حُبِّكَ لا يرى متبسمًا من طول حزن في الحشا إشعاعُ

فقلت لها : زبيدنا من هذا ! فقالت اليك عنى ؛ ثم رفعت طرفها
إلى السماء وقالت :

أَحْبَبُكَ حُبِّينَ : حَبَّ الودادِ وحبّاً لأنك أهل لذاك
فأما الذى هو حَبَّ الوداد فحُبُّ شغلتُ به عن سواك
وأما الذى أنت أهل له فكشفك للحُجُبِ حتى أراك
فما الحمد في ذا ولا ذاك لى ولاكن لك الحمد في ذا وذاك

ثم شَهقتُ شهقةً فإذا هي قد فارقت الدنيا . فبقيتُ أتعجبُ مما رأيتُ منها ؛
فإذا بنسوةٍ قد أقبلن ؛ عليهن مدارعُ الشّعْرِ ؛ فاحتملنها فغيبنها عن عيني فغسلنها ،
ثم أقبلن بها في أكفانها . فقلن لى : تقدم فصلٌ عليها . فتقدمت وصابت عليها
وهن خلفي . ثم احتملنها ومضين ... »

■ الرسالة القشيرية « ، القاهرة سنة ١٣٣٠ ■ :

(ا) في باب الرضا :

« وسئلت رابعة متى يكون العيد راضياً، فقالت : إذا سرته المصيبة كما سرته
النعمة » (ص ٨٩) .

(ب) في باب التوبة :

« وقال رجل لرابعة : إني قد أكرت من الذنوب والمعاصي ، فلو تبتُ
هل يتوب عليّ؟ فقالت لا ! بل لو تاب عليك لُتبتَ . » (ص ٤٨)
(ح) في باب المحبة :

« قالت رابعة في مناجاتها : إلهي ! أتحرق (١٤٨) بالنار قلباً يحبك؟ فهتف
بها هاتف : ما كنا نفعل هكذا ؛ فلا تظني بنا ظن السوء . » (١٤٧ — ١٤٨)

« صفة الصفوة » لابن الجوزي ، ج ٤ ص ٥٧ ، مخطوط الظاهرية تاريخ ٦٧ :
« أخبرنا أبو القاسم الحريري قال : أنبأنا أبو طالب الأساوي ، قال : أنبأنا
أبو بكر البرقاني ، قال أنبأنا إبراهيم بن محمد الزكي ، قال حدثنا محمد بن اسحق السراج
قال : حدثنا حاتم بن الليث الجوهري ؛ قال حدثنا عبد الله بن عيسى ، قال :

دخلت على رابعة العدوية بيتها فرأيت على وجهها النور ، وكانت كثيرة البكاء ؛
فقرأ رجل عندها آية من القرآن فيها ذكر النار ، فصاحت ثم سقطت .

ودخلت عليها وهي جالسة على قطعة بوري خلت ، فتكلم رجل عندها

بشيء ، فجملت أسمع دموعها على البورى مثل الوكف . ثم اضطربت وصاحت .
فقمنا وخرجنا .

أخبرنا محمد بن أبي منصور ، قال : أنبأنا الحسن بن أحمد الفقيه ، قال : أنبأنا
محمد بن أحمد ، قال : أنبأنا أحمد بن جعفر بن سلم ، قال : حدثنا أحمد بن عبد الخالق
قال : أنبأنا يعقوب بن يوسف ، عن اسحق بن ابراهيم ، قال حدثنا مسمع بن عاصم
ورباح القيسي قالا : شهدنا رابعة وقد أتتها رجل بأربعين ديناراً فقال لها : تستمينين
بها على بعض حوائجك ؛ فبكت ثم رفعت رأسها إلى السماء فقالت : هو يعلم أنى
أستحي منه أن أسأله الدنيا وهو يملكها ، فكيف أنا أريد أن آخذها ممن
لا يملكها !

أنبأنا عبد الوهاب الحافظ قال أنبأنا أبو الحسين عبد الجبار ، قال :
أنبأنا العتيق ، قال أنبأنا عثمان (ص : عثم) بن عمر بن النشاب . قال : أنبأنا ابن
محمد بن عبد الله بن سليمان النامي . قال ، حدثنا ابن حبيب البزاز ، قال : حدثنا
الفضل بن موسى البصرى ، قال : حدثنا ابراهيم بن بشار الرمادى ، قال حدثنا
محمد بن أبي حاتم [٥٧ ب] قال : حدثنا محمد بن عمرو قال :

دخلت على رابعة وكانت عجوزاً^(١) كبيرة بنت ثمانين سنة كأنها الشن تكاد
تسقط ، ورأيت في بيتها كراخة بوارى^(٢) ومشجب قصب فارسى طوله من الأرض
قدر ذراعين ، وستر البيت جلّة ووربما كان بورياً^(٣) وحبّ وكوز ، ولبد هو فراشها وهو
مصلاها ، وكان لها مشجب من قصب عليه أكتافها . وكانت إذا ذكرت الموت
انتفضت وأصابها رعدة . وإذا مرت بقوم ، عرفوا فيها العبادة . وقال لها رجل :
ادعى لى ! فالتصقت بالحائط وقالت : من أنا ، يرحمك الله ! أطع ربك وادعُ
فإنه يجيب المضطر .

(١) ص : عجوز . (٢) الكراخة : الشقة من البوارى . (٣) ص : بورى .

أخبرنا الحمدان ابن منصور وابن عبد الباقي قالا : أنبأنا جعفر بن أحمد السراج قال : أنبأنا أحمد بن علي التودى ، قال : أنبأنا محمد بن عبد الله الدقاق ، قال : أنبأنا الحسين بن صفوان ، قال : حدثنا عبد الله بن محمد القرشي ، قال ، قال محمد بن الحسين : حدثني سجع بن منظور قال :

دخلت على رابعة وهي ساحدة . فلما أحست بمسكاني رفعت رأسها . فإذا موضع سجودها كهيئة الماء المستنقع من دموعها . فسلمت ، فأقبمت علي فقالت : يا بني ! لك حاجة ؟ فقلت : جئتك لأسلم عليك . قال : فبكت وقالت : « سترك اللهم سترك ! » ودعت بدعوات ثم قامت إلى الصلاة وانصرفت .

قال القرشي : وحدثني محمد بن إدريس قال ، حدثنا أحمد أبي الحواري ، قال حدثنا العباس بن الوليد قال : قالت رابعة ^(١) : أستغفر الله من قلة صدقي في قولي : « استغفر الله ! » .

قال القرشي : وحدثني أزهر بن مروان ، قال دخل علي رابعة رباح القيسي وصالح بن عبد الجليل [١٥٨] وكلاب ، فتذاكروا الدنيا فأقبلوا يذمونها فقالت رابعة : إني لأرى الدنيا بترايعها في قلوبكم ، قالوا : ومن أين توهمت علينا ؟ قالت : إنكم نظرتم إلى أقرب الأشياء من قلوبكم فتكلمتم فيه . قال القرشي : وحدثني أبو جعفر المدني عن شيخ ^(٢) من قریش قال : قيل لرابعة : هل عملت عملا ترين أنه يقبل منك ؟ قالت : إن كان فخافني أن يرده علي .

أخبرنا محمد بن عبد الباقي قال : قال أنبأنا رزق الله بن عبد الوهاب بن وهب قال : حدثنا عبد الله بن أيوب المتزى (كذا) قال : حدثنا شيبان بن فروخ قال : حدثنا جعفر بن سليمان قال : أخذ بيدي سفيان الثوري وقال : مر إلى المؤدبة التي

(١) المقصود هنا رابعة بنت اسماعيل ، مادامت لرواية سند أحمد بن أبي الحواري زوجها .

(٢) يصح أن تكون : سائح .

لا أجد من أستريح إليه إذا فارقتها . فلما دخلنا عليها رفع سفيان يده وقال اللهم إني أسألك السلامة . فبكت رابعة . فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت : أنت عرّضتني للبكاء . فقال لها : وكيف ؟ قالت ! أما علمت أن السلامة ترك ما فيها ، فكيف وأنت متلطخ بها !

وقال الثوري بين يدي رابعة : واحزنانه ! فقالت : لا تكذب ! قل : واقلة حزنانه ! لو كنت محزوناً ما ههناك عيش .

أخبرنا محمد بن أبي منصور قال : أنبأنا محمد بن علي الكوفي ، قال : أنبأنا علي ابن الحسن التنوخي ، قال : حدثنا علي عمر الخليلي ^(١) ، قال : حدثنا محمد بن عبده ابن حرب القاضي ، قال : حدثنا شيبان بن فروخ . قال : سمعت جعفر بن سليم يقول : سمعت رابعة تقول لسفيان : إنما أنت أيام معدودة ؛ فإذا ذهب يومٌ ذهب بعضُك ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل وأنت تعلم ، فاعمل .

أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال : أنبأنا محمد بن هبة الله الطبري . قال : أنبأنا علي بن محمد بن الشران ، قال : حدثنا الحسين بن صفوان ، قال : حدثنا أبو بكر عبد الله بن محمد القرشي ، قال : حدثني (٥٨ ب) محمد بن الحسين ، قال : حدثني عن نيس ابن مرحوم العطار ، قال : حدثني عبدة بنت أبي شوال — وكانت من خيار إماء الله تعالى ، وكانت تخدم رابعة — قالت : كانت رابعة تصلي الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت في مصلاها هجمة خفيفة حتى يسفر الفجر ، فبكت أسمعتها تقول إذا وثبت من مرقدها ذلك وهي فزعة : يا نفس ! كم تنامين ! وإلى كم تقومين ! يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور .

قالت : فكان هذا دأبها دهرها حتى ماتت . فلما حضرتها الوفاة دعيت فقالت : يا عبدة ! لا تؤذني بموت أحدٍ أوفيني ^(٢) في جيتي هذه (جبة من شعر

(١) مشددة الياء في الأصل هكذا : الخيل . (٢) ص : لعسى .

كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون) ، قالت : فكفناها في تلك الجبة وخمار صوف كانت تلبسه . قالت عبدة : رأيته بعد ذلك بسنة أو نحوها في منامى . عليها حلة استبرق خضراء وخمار من سندس أخضر لم أر شيئاً أحسن منه . فقلت : يا رابعة ! ما فعلت بالجبة ^(١) التي كفناك فيها والخمار الصوف ؟ قالت : إنه والله نُزِعَ عني وأبدلت به هذا الذي ترىته على ، وطويت أكتفاني وختم عليها ورُفِعَت في عليين لتكمل لي بها ثوابها يوم القيامة . قالت : فقلت لها : لهذا كنت تعملين أيام الدنيا . فقالت : وما هذا عند ما رأيت من كرامة الله لأوليائه ! قالت : فقلت : فما فعلت عبدة بنت أبي كلاب ؟ فقالت : هيهات ! هيهات ! سبقتنا والله إلى الدرجات العلى . قالت : قلت وبم ؟ وقد كنت عند الناس ! — أى أكثر منها — قالت : إنها لم تكن تبالي على أى حال أصبحت من الدنيا وأمست . قال : فقلت : فما فعل أبو مالك ؟ — يعنى ضيفمأ ؟ قالت : يزور الله عز وجل متى شاء . قالت : قلت فما فعل بشر بن منصور ؟ قالت : يخرج بخ ! أعطى والله فوق ما كان يأمل ^(٢) . [١٥٩] قالت : قلت : فمريني بأمر أتقرب به إلى الله عز وجل ! قالت : عليك بكثرة ذكره . أو شك أن تغتبطى بذلك في قبرك . قلت : اقتصرت ها هنا على هذا القدر من أخبار رابعة لأنى قد أفردت لها كتاباً فيه كلامها وأخبارها .

« صفة الصفوة » لابن الجوزى ج ٤ ص ٢٠٢ برقم ٦٧ تاريخ بالظاهرية :

رابعة زوجة أحمد بن أبي الحواري :

كذا نسبها أبو بكر بن أبي الدنيا ؛ وقد ذكر أبو عبد الرحمن السلمي أن رابعة

العدوية تشارك هذه في اسمها واسم أبيها وعموم ما يأتي في الحديث عن زوجة أحمد أمهاريعة بالياء ؛ والعدوية بصرية ، وهذه شامية .

وقد أخبرنا أبو ناصر . قال : أنبأنا أبو الفنائم بن النمرسى قال : رابعة بالباء بنقطة في تحتها بصرية . ورابعة بائنتين من تحتها شامية .

قال : ثنا عبد الواحد بن بكر ، قال : ثنا اسحق بن أحمد بن علي ، قال : ثنا ابراهيم بن يوسف ، قال ثنا أحمد بن أبي الحواري قال : قلت لرابعة وهي امرأتى وقامت بليل : قد رأينا أبا سليمان وتبعنا معه . ما رأينا من يقوم من أول الليل ! فقالت : سبحان الله ! مثلك من يتكلم بهذا ! إنما أقوم إذا نوديت . قال : وجلست آكل وتذكرتني فقلت لها : دعينا يهيننا طعامنا . قالت : ليس أنا وأنت ممن يتنقص عليه الطعام عند ذكر الآخرة . أخبرنا محمد بن عبد الباقي : قال أنبأنا (٢٠٢ ب) الحسن بن عبد الملك بن يوسف ، قال : أنبأنا أبو محمد الحلال . قال : حدثني علي بن عمر بن علي النجار . قال : ثنا ابراهيم بن أحمد بن الحسن القرمسيني . قال : سمعت محمد ابن اسحق السراج ، يقول : سمعت علي بن موفق يقول . سمعت أحمد بن أبي الحواري يقول : قالت لي رابعة : أي أخي ! أعلمت أن العبد إذا عمل بطاعة الله أطلعه الجبار على مساويء عمله ، فتشاغل به دون خلقه !

أنبأنا محمد بن أبي منصور ، قال أنبأنا محمد بن أبي نصير الحميدى ، قال : أنبأنا أبو بكر محمد بن أحمد الأردستاني ، قال : ثنا أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمى ، قال سمعت أبا عمرو ومحمد بن محمد النجار الرازى يقول : سمعت محمد بن طيفور يقول : سمعت عمر بن محمد يقول عن أحمد بن أبي الحواري ، قال : كانت رابعة أحوال شتى فمرة يغلب عليها الحب . ومرة يغلب عليها الأنس . ومرة يغلب عليها الخوف . فسمعتها في حال الحب تقول :

حبيب ليس يَعِدْهُ حبيب ولا لسواه في قلبي نصيب
حبيب غاب عن بصرى وشخصى ولكن في فؤادى ما يغيب

وسمعتها في حال الأنس :

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثى وأبحت جسمى ^(١) من أراد جلوسى
فالجسم منى للجلوس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسى
وسمعتها في حال الخوف تقول :

وزادى قليل ما أراه مُبَغَى الزاد أبكى أم لطول ^(٢) مسافتي؟!
أتحرقنى بالنار يا غاية المنى فأين رجائى فيك! أين مخافتي!

أنبأنا الحمدان : ابن أبى منصور وابن عبد الباقي قالا : أنبأنا جعفر بن أحمد
قال : أنبأنا أحمد بن على التوزى قال : أنبأنا محمد بن عبد الله الدقاق، قال أنبأنا
الحسين بن صفوان، قال : حدثنا أبو بكر القرشى . قال : حدثنى محمد بن إدريس،
قال : حدثنا أحمد بن أبى الحوارى ، قال سمعت ربيعة تقول : إني لأضن بالقمة
الطيبة أن أطمعها نفسى ، وإني لأرى ذراعى قد سمن فأحزن . قال : وربما قلت لها:
أصأمة أنت اليوم؟ فتقول : وما مثلى يفطر فى الدنيا . قال : وربما نظرت إلى وجهها
ورقبها (١٢٠٣) فيتحرك قلبى على رؤيتها ما لا يتحرك مع مذاكرتى أصحابنا من
أثر العبادة . وقالت لى : لست أحبك حب الأزواج ؛ إنما أحبك حب الإخوان .
وإنما رغبت فيك رغبة فى خدمتك ، وإنما كنت أتمنى أن يأكل مالى مثلك ومثل
إخوانك . قال أحمد : وكانت لها سبعة آلاف درهم فأنفقتها على . وكانت إذا
طبخت قدرأ قالت : كلها يا سيدى فما نضجت إلا بالتسييح ! وقالت لى : لست
أستحل (أن) أمنعك نفسى وغيرى ؛ اذهب فتزوج . قال : فتزوجت ثلاثا . وكانت
تطمعنى اللحم وتقول : اذهب بقوتك إلى أهلك . وكنت إذا أردت جماعها نهارأ

(٢) تحتها : لبعده — وقد ضرب عليها .

(١) ص : جسمى

قالت : بالله لا تفطرنى اليوم . وإذا أردتها بالليل قالت : أسألك بالله لما وهبته
لله الليلة .

قال أبو بكر القرشي ، وحدثني عون بن إبراهيم ، قال : ثنا أحمد بن أبي الحواري ،
قال : سمعت ربيعة تقول ، ما سمعت الأذان إلا ذكرت منادى القيامة . ولا رأيت
الثلج إلا ذكرت تطاير الصحف ، ولا رأيت جراداً إلا ذكرت الحشر .

أخبرنا محمد بن عبد الباقي . قال أنبأنا رزق الله بن عبد الوهاب . قال : أنبأنا
أبو عبد الرحمن السلمى ، قال : ثنا أبو جعفر الرازى ، قال : ثنا العباس بن حمزة ،
قال ، ثنا أحمد بن أبي الحواري ، قال : قالت ربيعة : نحوا عنى ذلك الطست .
فإنما عليه مكتوب : مات أمير المؤمنين هارون الرشيد . قال أحمد : فنظروا فإذا
هو مات ذلك اليوم .

أنبأنا محمد بن عبد الباقي . قال ، أنبأنا رزق الله ، قال : أنبأنا السلمى . قال :
ثنا محمد بن أحمد بن سعيد ، قال : العباس بن حمزة ، قال : ثنا أحمد بن أبي الحواري ،
قال : سمعت ربيعة تقول : ربما رأيت الجن يذهبون ويحيئون ؛ وربما
رأيت الحور العين يستترن منى بأكامهن . وقالت بيدها على رأسها . قال أحمد .
ودعوت ربيعة فلم تجبني ؛ فلما كان بعد ساعة أجابتنى وقالت : إنما معنى أن
أجيبك أن قلبى قد كان امتلاً قرحاً فلم أقدر أن أجيبك .

ابن تيمية : « مجموعة الرسائل والمسائل » ١ ص ٧٠ - ٨١ ،

القاهرة سنة ١٣٤١ = سنة ١٩٢٢

... وأما ما ذكر عن ربيعة من قولها عن البيت إنه الصنم المعبود فى الأرض
فهو كذب على ربيعة . ولو قال هذا من قاله لكان كافراً يستتاب ، فإن تاب
وإلا قتل . وهو كذب ، فإن البيت لا يعبده المسلمون . ولكن يعبدون رب

البيت بالطواف به والصلاة إليه . وكذلك ما نقل من قولها : والله ما ولج الله
ولا خلا منه — كلام باطل عليها . وعلى مذهب الحلوية لا فرق بين ذاك البيت
وغيره في هذا المعنى ، فلا تسمى مزية يطاف به ويُصلى (٨١) إليه ويحج دون غيره
من البيوت ! وقول القائل : ما ولج الله فيه — كلام صحيح . وأما قوله « ما خلا
منه - فإن أراد أن ذاته حالة فيه أو ما يشبه هذا المعنى فهو باطل وهو مناقض
لقوله ما ولج فيه ؛ وإن أراد به أن الاتحاد ملازم له ، لم يتجدد له ولوج ولم يزل غير
حال فيه . فهذا « مع أنه كفر وباطل » يوجب ألا يكون للبيت مزية على غيره
من البيوت ، إذ الموجودات كلها عندهم كذلك .

الجزء الثالث من « عيون التواريخ » لصلاح الدين محمد بن شاكر
الكتبي ، برقم ٤٤ تاريخ بالظاهرية بدمشق ورقة ٧ ب ، عن سنة ١٣٥ :
بعد أن أورد ما أورده ابن خلكان إلى ما جاء في « عوارف المعارف » من الشعر :
« قال عبد الله بن عيسى : دخلت على رابعة العدوية وهي جالسة على قطعة
بارية ، فتكلم رجل عندها بشيء ، فجعلت أسمع وقع دموعها على البارية مثل
الوكف . ثم اضطربت وصاحت « فقمنا وخرجنا .
وقال محمد بن عمرو : دخلت على رابعة وكانت عجوزاً^(١) كبيرة بنت ثمانين
سنة كأنها الشن تكاد تسقط . فرأيت في بيتها كراخة بوارى ومشجب^(٢) قصب
فارسي ، طوله من الأرض قدر ذراعين ، عليها أكتافها « وستر البيت جلة^(٣) ،
وُحِب وكوز ولبد وهو فراشها وهو مصلاها . قال لها رجل : ادعى لي ! فالتصقت
بالخائط وقلت : من أنا يرحمك الله ! أطع ربك واعبده وادعوه ، فإنه يجيب
المضطرب إذا دعاه .

قال ابن الجوزى رحمه الله تعالى : كانت رابعة محققة فطنة . ومن كلامها
«الدال على قوة همتها قولها : أستغفر الله من قلة صدقي في قولى أستغفر الله .
وكان سفيان يقول : صهروا بنا إلى المؤدبة الذى لا أجد من أستريح إليه
إذا فارقتها .

وقد جمع ابن الجوزى أخبارها في كتاب .

وكانت وقاتها على قول ابن الجوزى (١٨) في هذه السنة . وقال غيره سنة
خمسة وثمانين ؛ وهى مدفونة بظاهر القدس على رأس جبل ؛ وقبرها يزار - رضى
الله عنها .

«مصارع المشاق» لأبى محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج القارى

طبع الجواذب سنة ١٣٠١ باستانبول

(١) ص ١٣٦ :

« أخبرنا القاضى أبو الحسين أحمد بن على ابن الحسين التوزى بقراءتى عليه ،
قال أخبرنا محمد بن عبد الله القطيبي ، قال حدثنا الحسين بن صفوان ، قال حدثنا
عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد القرشى ، قال حدثنا محمد بن الحسين ، قال
حدثنى عصام بن عثمان الحلبي ، قال حدثنى مسمع بن عاصم قال :

قالت لى رابعة العدوية : اعتلت علة قطمتنى من التهجد وقيام الليل ، فسكنت
أليماً أقرأ جزئى إذا ارتفع النهار ، لما يذكر فيه أنه يعدل بقيام الليل . قالت : ثم
رزقنى الله عز وجل العافية . فاعتادتنى فترة فى عقب العلة ، وكنت قد سكنت
إلى قراءة جزئى بالنهار ، فانقطع عنى قيام الليل . قلت : فبينما أنا ذات ليله أراقة
أريت فى منامى كأن رفعت إلى روضة خضراء ذلت قصور ونبت حسن . فبينما أنا

أجول فيها أتعجب من حسنها إذا أنا بطائر أخضر وجارية تطارده كأنها تريد
أخذه قالت : فشغلتني حسنهما عن حسنه . فقلت : ما تريدن منه ؟ دعيه ! فوالله
ما رأيت طائراً قط أحسن منه . قالت : بلى ! ثم أخذت يدي فأدارت بي في
تلك الروضة حتى انتهت بي إلى باب قصر فيها ، فاستفتحت ففتح لها ، ثم قالت :
افتحوا لي بيت^(١) المقة ؛ قالت ففتح لها باب شاع منه شعاع استنار من ضوء
نوره ما بين يدي وما خلفي . وقالت لي : ادخل ! فدخلت إلى بيت يحار فيه البصر
تلاً لؤاً وحسناً ، ما أعرف له في الدنيا شبيهاً أشبهه به . فينا نحن نجول فيه
إذ رفع لنا باب ينفذ منه إلى بستان ؛ فأهوت نحوه وأنا معها . فتلقانا فيه وُصفاء
كأن وجوههم اللؤلؤ ، بأيديهم الجواهر . فقالت لهم : أين تريدون ؟ قالوا : نريد
فلاناً ، قتل في البحر شهيداً . قالت : أفلا تجمروا^(٢) هذه المرأة ؟ قالوا : قد كان
لها في ذلك حظ فتركته . قالت : فأرسلت يدها من يدي ثم أقبلت عليّ فقالت :
صلاتك نورٌ والعبادُ رقودٌ ونومك ضدٌّ للصلاة عنيدٌ
وعمرُك غنمٌ ان عقلت وممهله يسيرٌ ويفنى دائماً ويبيد

ثم غابت من بين عيني ؛ واستيقظت من تبيد الفجر . فوالله ما ذكرتها
فتوهمتها إلا طاش عقلي وأنكرت نفسي . قال : ثم سقطت رابعة مغشياً عليها .

(ب) وفي ص ١٨٤ :

« أخبرنا القاضي أبو الحسين أحمد بن علي بن الحسين التوزي رحمه الله
بقراءتي عليه » أخبرنا محمد بن عبد الله ابن أخي ميمى ، حدثنا الحسين بن صفوان ،
حدثنا عبد الله بن محمد القرشي ، حدثني محمد بن الحسين ، حدثني أبو معمر
صاحب عيد الوارث قال :

(١) في المطبوع : بيت لمة أفالك .

(٢) أجمر التوب : بخره بالطيب .

نظرت رابعة إلى رباح القيسي وهو يقبل صبيًا من أهله ويضمه إليه فقالت :
ما كنت أحسب أن في قلبك موضعًا فارغًا لمحبة غيره ! قال : فصاح رباح
وسقط مفشيًا عليه ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه وهو يقول : رحمة منه
— تعالى ذكره — ألقاها في قلوب العباد للأطفال .

للشيخ عبد الرؤوف المناوي : « طبقات الأولياء »

رقم ٤١٦٤ خط بالظاهرية بدمشق .

(١١٠٤) رابعة العدوية :

القيسية ثم البصرية . رأس العابدات ورئيسة الناسكات القاتنات الخائفات
الوجلات . كانت في عصر الحسن البصري . وهي إحدى النساء اللاتي تقدمن
ومهرن في الفضل والصلاح كأم أيوب الأنصارية وأم الدرداء ومعادة العدوية .
وهي من بينهن المشهورة بعظيم النسك ومزيد العبادة وكمال النزاهة والزهادة .
كانت تصلي ألف ركعة في اليوم والليلة ، فقيل لها : ما تطلين بهذا ؟ قالت :
لا أريد به ثوابًا وإنما أفعله لكي يسر رسول الله يوم القيامة ، فيقول للأنبيا :
انظروا إلى امرأة من أمتي هذا عملها .

وكانت تصلي الليل كله ؛ فإذا طلع الفجر هجعت في مصلاها قليلا حتى يسفر
الفجر ثم تنب^(١) وهي فزعة وتقول : يانفس ! كم تنامين^(٢) ! وإلى كم تقومين !
يوشك أن تنامي نومة لاقومه لها إلا الصرخة يوم النشور .

وكتب محمد بن سليمان الهاشمي — وكانت غلة ملكه كل يوم ثمانين ألف
درهم — إلى كبراء أهل البصرة في امرأة يتزوجها فأجمعوا على رابعة ، فكتبت^(٣) إليه :

(١) من : ثبت . (٢) من . تنامي . (٣) من فكتب إليها — والسياق وصيح

الأفعال تقتضي ما أثبتناه .

« أما بعد ! فإن الزهد في الدنيا راحة البدن والرغبة فيها تورث الهم والحزن ؛
فهيء مراءدك ، وقدم لمعادك ، وكن وصى نفسك ، ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا
تركتك ، وسم الدهر واجعل فطرك للموت . وأما أنا ، فلو خولني الله (١٠٤ ب)
أمثال ما خولك وأضعافه ، لم يسرنى أن اشتغل عن الله طرفة عين والسلام . »
ومن كراماتها

أن لصاً دخل حجرتها وهي نائمة ، فحمل الثياب وطلب الباب فلم يجده
فوضعها فوجده ؛ فحملها ؛ فحنى عليه . فأعاد ذلك مراراً . فهتف به هاتف : دع
الثياب فإننا نحفظها ولا ندعها لك وإن كانت نائمة .
قال البوني : وهذا تحقيق التمكن بقوله تعالى : « له معقبات من بين يديه
ومن خلفه يحفظونه ^(١) » — الآية .

وخاطت بعض قيصها في ضوء مشعلة سلطانية ، ففقدت قلبها زماناً حتى
تذكرت ، فمزقت القميص ، فعاد قلبها .
وسئلت : متى يكون العبد راضياً ؟ فقالت : إذ أسرته المصيبة كآسرتة النعمة .
وكانت شديدة الخوف جداً ، فإذا سمعت ذكر النار أغمى عليها . وكانت تقول :
لو كانت الدنيا لرجل ما كان بها غنياً . قيل : كيف ؟ قالت : لأنها تفتى .
قالوا : مكثت أربعين سنة لا ترفع رأسها حياء من الله .
وكانت تقول : ما سمعت الأذان إلا ذكرت منادي يوم القيامة ؛ وما رأيت
الثلج إلا ذكرت تطاير الصحف ؛ وما رأيت الجراد إلا ذكرت الحشر .

وقالت : استغفرتنا يحتاج إلى استغفار لعدم الصدق فيه .
وذم بعضهم الدنيا فقالت : قال رسول الله : من أحب شيئاً أكثر من ذكره ؛
ذكركم لها دليل على بطالة قلوبكم ، إذ لو كنتم غرقى في غيرها ما ذكرتموها .

وأتاها رجل بأربعين ديناراً فقال : استعيني بها على بمض حوائجك ! فبكت
ثم رفعت رأسها إلى السماء ، ثم قالت : هو يعلم أنى أستحي (١٠٥) منه أن
أسأله الدنيا وهو يملكها ، فيكيف أخذها من لا يملكها؟!
وكانت إذا قال لها إنسان : ادعى^(١) لى ! لترمد وتقول : من أنا؟! أطلع
ربك وادعه فإنه يجيب المضطر .

وقيل لها : عملت عملاً ترين أن يقبل منك؟ قالت : إن كان ، نخوفى أن
يُردَّ على . وأخذ سفيان بعض إخوانه وقال : نذهب إلى المؤذبة التي لأحد أستريح
إليه إذا فارقتها . فلما دخل عليها رفع سفيان يده وقال : اللهم إنى أسألك السلامة!
فبكت ، فقال : ما يبكيك؟ فقالت : عرضتني للبكاء . أما علمت أن السلامة من
الدنيا ترك ما فيها ، فكيف وأنت ملطخ بها؟! وقالت : إنما أنت أيام معدودة ؛
فإذا ذهب يوم ذهب بعضك ، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل ؛
وأنت تعلم فاعمل . وقال لها : ما حقيقة إيمانك؟ قالت : ما عبدته خوفاً من ناره .
ولا حباً لجنته ، فأكون كالأجير السوء - عبدته حباً وشوقاً إليه .

وقال مالك بن دينار : أتيتها فإذا هى تقول : كم من شهوة ذهبت لذتها
وبقيت تبعثها ! يارب ! أما كان لك عقوبة ولا أدب غير النار؟!

ومن مناجاتها

إلهى : تحرق بالنار قلباً يبكيك؟ فقيل لها : لا تظنى بناظن السوء . وكانت تنشد:
إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى وأبحتُ جسدى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجلوس - مؤانس وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى
وكانت كل ليلة تتطيب وتأتى زوجها وتقول : ألك حاجة؟ فإن كان له
قضى وطره ، فتطهرت ونصبت أقدامها إلى الصباح .

وكان كنفها لم يزل عندها؛ ويحدون محل سجودها كالماء المتنعق من كثرة

(١٠٥ ب) البكاء . . .

وقال لها رجل: إني أكرت من المعاصي، فلوتبت هل يتوب عليّ! قالت:

لا بل لو تاب عليك لتبت: «ثم تاب عليهم ليتوبوا»^(١).

وسمعت سفيان الثوري يقول: واحزنه! فقالت: لا تكذب! قل: واقلة

حزنه! لو كنت حزينا ما هتأك عيش.

وقالت له مرة: نعم الرجل أنت لولا رغبتك في الدنيا! قال: فيماذا رغبتُ؟

قالت: في الحديث.

ومرضت فقال لها عوادها: ما سب علتك؟ قالت: نظرت بقلبي إلى الجنة

فأذاني. فبت أن لا أعود.

ومن كرامتها: أنها زرعت زرعاً فوق عليه الجراد فقالت: إلهي! رزق

تكفلت به، فإن شئت فأطعمه أعداءك وأولياءك. فطار الجراد كأنه لم يكن.

وحجت على بعير فمات قبل بلوغها لمنزلها. فسألت الله أن يحييه فركبت حتى

وصل إلى باب دراهم فخر ميتاً.

وقالت لسفيان الثوري: ما تعدون السخاء فيكم؟ قال أما عند أبناء الدنيا

فمن يوجد بماله، وعند أبناء الآخرة من يوجد بنفسه قالت: أخطئتم قال لها:

فما السخاء عندكن؟ قالت: أن تعيده حياً له لا طلب جزاء ولا مكافأة.

وضرب رأسها ركن جدار، فؤدماه، فلم تلتفت لذلك فقيل لها: ما تحسبن

بالأم؟ قالت شغلي بمواقفة مراده فيما جرى شغلي عن الإحساس بما ترون.

وسمعت قارئاً يقرأ: «إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فا كهون»^(٢) فقالت:

مساكين أهل الجنة في شغل هم وأزواجهم! وعاب عيها ابن عربي هذه المقالة

[١٠٦] وقال : إنها ما عرفت ، وإنها المسكينة : فإنما شغلهم إغما هو بالله . قال : وهذا من مكر الله الخفى بالعارفين فى تجريح الغير بىادى الرأى والتعريض فى حق نفوسهم ؛ إنهم منزهون عن ذلك . لكنه مع ذلك بالغ فى موضع آخر فى مدحها وقال : إنها فى رتبة الشيخ عبد القادر الجيلى ، فقال : السائرون إلى الله بعزائم الأمور المشروعة على قسمين : طائفة ربطت همها على أن الرسول إنما جاء منهاجاً ومعلماً بالطريق الموصلة إلى جناب الحق ، فإذا أعطى العلم بذلك زال من الطريق وخطى بينهم وبين الله ؛ فهؤلاء إذا سارعوا سابقوا إلى الخيرات ، لم يروا أمامهم قدم أحد من المخلوقين لأنهم قد أزالوه من نفوسهم وانفردوا إلى الحق . والطائفة الأخرى جعلوا فى نفوسهم أنهم لا سبيل لهم إليه تعالى إلا والرسول هو الحاجب ، فلا يشهدون أمراً إلا وأقدام الرسول بين أيديهم . هكذا قال ، ثم قال : والحالة الأولى هى حالة عبد القادر وأبى السعود بن شبل ورابعة العدوية ومن جرى مجراهم — انتهى .

قال بعضهم : كنت أدعو رابعة العدوية فرأيتها فى النوم تقول : هداياك تأتينا على أطباق من نور . مخمرة بمناديل من نور . ماتت سنة ثمانين ومائة . وقيل غير ذلك .

ورأتها خادمتها فقالت : مرينى بأمر أتقرب به إلى الله ! قالت : عليك بكثرة ذكره ، أو شك أن تغتبطى به فى قبرك . وقد أفرد ابن الجوزى لمناقبها وكلامها مؤلفاً حافلاً .

رابعة بنت إسماعيل العدوية

ورابعة هذه بمناء تحتية ، وهى شامية ؛ والى قبلها بموحدة [١٠٦ ب] تحتية وهى بصرية^(١) — فافترقا . كانت تقوم الليل كله وتقول : إذ عمل عبد

(١) ص : مصرية .

بطاعة الله أطلعه على مبادئ عمله فاشتغل بها دون الخلق . وقالت : ما سمعت
أذناناً قط إلا ذكرت منادى يوم القيامة ؛ ولا ذقت حراً إلا ذكرت حر الحشر .
وكانت ترى الجنَّ عياناً . وقالت : رأيت الحور العين فسترن منى بأكلمهن .
وراية هذه كانت زوجاً لابن أبي الحواري . قال : قلت لها وقد قامت بليل : قد
رأينا أبا سليمان^(١) وتعبنا معه ، فما رأينا من يقوم أول الليل . فقالت :
سبحان الله ! مثلك يتكلم بهذا ؟ إنما أقوم إذا نوديت .

قال : وجلست آكل ، وجلست تذكري . فقالت : دعينا يهيننا طعامنا .
قالت : ليس أنا وأنت ممن يتنقص عليه الطعام . وقالت لى : أى أخى ! أعلمت
أن العبد إذا عمل بطاعة الله أطلعه على مساوىء عمله ، فتشاغل به دون خلقه !
وكانت لها أحوال شتى ! فرمة يقلب عليها الحب ، وفرمة الأوس ، وفرمة الخوف ،
وكانت تقول : إني لأضن باللقمة الطيبة أن أطمعها نفسى ، وإني لأرى
ذراعى يقد سمن فأحزن !

وكان إذا أراد زوجها جامعها نهراً قالت : أسألك بالله لا تفطرنى اليوم .
وإذا أراد ليلا قالت : أسألك بالله إلا ما وهبتى لله الليلية .

ومن كراماتها

أنها قالت : نَحَوُوا^(٢) عنى الطست ، فأبما عليه مكتوب : مات هارون الرشيد .
فنظروا فإذا هو قد مات ذلك اليوم .

ودعاها زوجها يوماً فلم تجبه ؛ ثم بعد مدة أجابته وقالت : إنما معنى أن
أجيبك أن قلبى كان امتلاً فرحاً بالله ، فلم أقدر أن أجيبك .

ماتت سنة خمس وثلاثين ومائة . ودفنت برأس زيتنا بيت المقدس . وقيل
[١٠٧] المدفونة هناك إنما هى الأولى .

(١) يقصد أبا سليمان الداراني (٢) ص : نحو عنى .

رياح بن عمرو القيسي

(١٠١ ب) صاحب المجد والنصر؛ القانت لله في السر والجهر. كان للدينيا قالياً؛ ومنها هارياً؛ وفي الآخرة راغباً. ولها خاطباً؛ مطرحاً للكلف، راقياً بهمة إلى أعلى الغرف.

وكان إذا دخل المسجد بكى؛ وإذا دخل بيته بكى؛ وإذا دخل الجبانة بكى. فيقال له: أنت دهرك في ماتم؟ فيقول: يحق لأهل المصائب والذنوب أن يكونوا هكذا. واتخذ غلاماً من حديد، فإذا جنّه الليل وضعه في عنقه وتضرع وبكى حتى يصبح.

وقال الحارث بن سعيد: أخذ رياح بيدي وقال: هل نبكى على مرّ الساعات ونحن على هذه الحال؟ — فخرجننا إلى المقابر. فلما نظر صرخ، فأغشى عليه. فقعدت عند رأسه أبكى. فأفاق فقال: ما يبكيك؟ قلت: ما أرى بك. قال: لنفسك فابك. ثم قال: وانفساه! فغشى عليه وسقط.

ومن كلامه: شأن العاقل أن لا يجعل لبطنه على عقله سبيلاً. فإن الدنيا أيام قلائل. وقال: إياكم والإكثار من اللحم. فإنه يقسى القلب. وقال: تحويل جبل من مكانه أسهل من إزالة حب الرئاسة إذا استحكم. وقال: نحت الجبال بالأظفار أسهل من مخالفة الهوى إذا تمسكن. وقال: رحم الله إخواناً زاروا قبور إخوانهم بقلوبهم وهم في محاربيهم. [١٠٢] وقال: إذا قال رفيقك «قصعتي» فإيس برفيق حتى يقول: قصعتنا. وقال: كما لا ينظر بصر الخفاش نور الشمس، لا ينظر قلب محب الدنيا نور الحكمة.

وقال: عليك بمجالس الذكر وحسن الظن بمولائك. وكفى بهما خيراً.

وقال: مما أوصى به الخضر عليه السلام موسى: إياك أن تتعلم العلم لتغيرك

فلا تعمل به، فيكون لغيرك نوره و عليك وزره . وقال : لا يبلغ رجل منزلة الصديقين حتى يدع زوجته كأنها أرملة وأولاده كأنهم أيتام^(١) ويأوى مزابل الكلاب . وكان أدمه الملح والخبز ؛ ويقول لنفسه : أمامك طعام العز والبجاه والعرس في الآخرة :

العطار : « تذكرة الأولياء » ج ١ ص ٥٩ - ص ٧٣ نشرة نيكلسون

رابعة العدوية

إنها ذات الخدر الخالص ، المستور بستر الإخلاص ، المتقدة بنار العشق والاشتياق، المتحرقة إلى القرب والاحترام، الفانية في الوصال، المقبولة عند الرجال كأنها مريم ثانية، صافية صافية ، إنها رابعة العدوية — رحمة الله عليها .

فإن سألتني أحد : لم ذكرتها في صف الرجال ؟ قلت له : قد قال السادة الأنبياء عليهم السلام : إن الله لا ينظر إلى صوركم . . . الحديث . فالعبرة ليست بالصورة . بل بالنية كما قال عليه السلام : « يحشر الناس على نياتهم » . فإذا كنا نأخذ عن عائشة الصديقة — رضى الله عنها — ثلث الدين ، فمن الجائز أن تتلقى فائدة دينية من إحدى خدامها (أى رابعة) . إن المرأة التي تسلك الطريق إلى الله كما يفعل الرجال لا يمكن أن تسمى امرأة . ولقد قال عباسه الطوسي : إذا دعينا يوم القيامة : « يا رجال ! » فأول متقدم في صف الرجال (أى الداخلين إلى الفردوس) سيكون مريم عليها السلام . وكان الحسن إذا لم يرها في المجلس حاضرة ترك المجلس — ومعنى هذه الحقيقة (وهو مساواة النساء بالرجال في القداسة)

أنه حيث يوجد الصوفية فلا تفريق بينهم في وحدة الوجود (الإلهي) ، ففي التوحيد ماذا يبقى من وجود «أنا وأنت» ؟ وإذن كيف يكون ثمت امرأة ورجل ؟ كذلك قال أبو علي الفارمذي رضى الله عنه . إن النبوة عين العزة والرفعة ؛ فليس فيها سمو وأحطاط . ولا ريب في أن الولاية من هذا النوع .

لقد كانت رابعة فريدة في معاملتها (مع الله) وفي معرفتها ، وكانت معتبرة في جملة كبار عصرها ، وكانت حجة قاطعة عند معاصريها . وفي الليلة التي أتت فيها رابعة إلى الدنيا لم يكن في بيت أهلها شيء ، لأن أباهما كان فقيراً فلم يكن عنده قطرة من سمن حتى يدهنوا موضع خلاصها ، ولم يكن ثمة نور ولا خرق للف الوليد . وكان له ثلاث بنات فسميت «رابعة» لأنها رابعتهن . فقالت امرأته : اذهب للجيران وأت بقطرة من الزيت حتى يضيء القنديل . ولكنه كان قد عاهد نفسه على ألا يطالب من الناس شيئاً ، لأنه لو طلب شيئاً ما أعطوه . مع هذا ذهب إلى الجارة وطرق الباب ، ثم عاد إلى زوجته وقال إنه لم يفتح له . فبكت . وفي ذلك الوقت أطرق على ركبتيه ونام . فرأى النبي عليه السلام في منامه وقال له الرسول : لا عليك . لأن هذه البنت التي ولدت هي سيدة ؛ إن سبعين ألفاً من أمتى ليرجون شفاعتها . وقال له : اذهب غداً لعيسى زاذان أمير البصرة واكتب له ورقة وقل له : إنك تصلى مائة صلاة وفي ليلة الجمعة أربعاً ، ولكن في يوم الجمعة الأخير نسيته . فادفع كفارة أربعاً ديناراً حلال لهذا الشخص . فلما أفاق والد رابعة من نومه كتب الرسالة وأرسلها عن طريق الحاجب إلى الأمير . فلما قرأها الأمير قال : أعطوا ألفي ديناراً للدرراویش وأربعاً للشيخ وقولوا له أن يأتي إلى لأراه ؛ كلا بل لا أرى من الموافق أن يأتي إلى ، بل سأذهب إليه أنا ، وأخني لحيتي على أعتابه وأمسحها بها ، وأطلب من الله كل ما تريده . وأشتري من فاخر الثياب وكل شيء تريده (الفتاة) .

فلما كبرت وتوفيت أمها وأبوها حدث في البصرة فحط ، وتفرقت أخواتها .
فلما خرجت رابعة تهيم على وجهها رأها ظالم وباعها بستة دراهم ، ومن اشتراها
أثقل عليها العمل . وذات يوم جاء رجل غريب فهرت وسارت في طريقها ، ثم
ارتمت على التراب وقالت : ياربى ! أنا غريبة وقيمة وأسيرة وقد صرت عبدة ■
لكن غمى الكبير هو أن أعرف : أراض عنى أنت أم غير اراض ؟ فسمعت صوتاً
يقول لها : ■ لا تحزنى ، لأنه في يوم الحساب [٦١] للمقربون في السماء ينظرون
إليك ويمسحونك على ما أنت فيه ■ .

وبعد أن سمعت هذا الصوت ذهبت إلى بيت سيدها، وصارت تصوم وتخدم
كل يوم سيدها وتصلى لربها ■ ساهرة على قدميها . وذات ليلة استيقظ سيدها
من النوم ونظر من خوخة في الباب، فرأى رابعة ساجدة وهي تقول: «إلهى! أنت
تعرف أن قلبى يتمنى طاعتك ، ونور عينى فى خدمة عبتك . ولو كان الأمر بيدي
لما توقفت ساعة عن خدمتك، لكنك تركتني تحت رحمة هذا المخلوق .» وبينما كانت
لا تزال تصلى ■ شاهد قنديلا فوق رأسها، معلقاً ■ بدون سلسلة ، وكان النور يملأ
البيت كله . فلما رأى سيدها هذا النور العجيب فرغ ونهض ثم عاد إلى مكانه وظل
يفكر حتى طلع النهار . هنالك دعا رابعة وحدثها بلطف وأطلق سراحها قائلاً :

يا رابعة ! لقد أعتقتك حرة فإذا شئت بقيت هنا وسنكون جميعاً فى خدمتك؛
وإذا لم تشأى اذهبي أنى شئت . فودعته رابعة وارتحلت وانقطعت للتقوى والعبادة .
ويقال إن رابعة كانت تصلى كل يوم وليلة ألف ركعة ! وكانت تتردد على
الحسن البصرى . وفى رواية أخرى أنها كانت تضرب على الناي (وگروهى
گویند در مطربى أفتاد) مدة ما ، ثم تابت وابتنت لنفسها خلوة انقطعت
فيها للعبادة .

وذات يوم ارتحلت إلى الكعبة ، وكان لها حمار حملته متاعها . فنفق الحمار ،

فقال من بالقافلة : « سنحمل متاعك على دوابنا ». — فقالت رابعة : « ما كان اعتمادى عليكم حينما أتيت ، بل تقمى بالله تعالى . فارحلوا إذن » . فلما ارتحلت القافلة دعت رابعة الله قائلة : « إلهى ! أكذا يفعل الملوك بمبيدهم الضعفاء العاجزين ؟ لقد دعوتنى إلى زيارة بيتك ، وها أنت ذاتدع حمارى ينفق فى الصحراء وتتركنى فى الخلاء وحيدة ! » فما كادت تنطق بهذه الكلمات حتى نهض الحمار مليئاً بالحياة . فوضعت عليه متاعها واستمرت فى طريقها ولحقت بالقافلة .

ويقال إنها كانت فى طريقها إلى الكعبة ذات يوم . فبقيت وحدها فى الصحراء . وقالت : « إلهى ! إن قلبى مضطرب وسط هذه الدهشة . أنا لبنة والكعبة حجر . وما أريده هو أن أشاهد وجهك ! » فناداها حينئذ صوت من عند الله تعالى يقول : « يارابعة ، أتعلمين وحدك ما يقتضى دم الدنيا كلها ؟ لما أراد موسى أن يشاهد وجهنا ، لم نلق إلا ذرة من نورنا على جبل نجر صَعِقًا . »

ويروى مرة أخرى أنه لما كانت رابعة بسبيل الحج رأت الكعبة قادمة نحوها عبر الصحراء . فقالت رابعة : [٦٣] « لا أريد الكعبة . بل رب الكعبة ، أما الكعبة فماذا أفعل بها ؟ » ولم تشأ أن تنظر إليها .

وكان إبراهيم بن أدهم قد أمضى أربعين سنة ليبلغ الكعبة . لأنه كان فى كل خطوة يصلى ركعتين . وكان يقول : « غيرى يسلك هذه الطريق على قدميه ، أما أنا فأسلكها على رأسى » . وبعد أربعين سنة بلغها فلم يجدها فى مكانها . فقال نائمًا : « وأأسفاه ! أصرت أعمى حتى لا أرى الكعبة ؟ » فسمع صوتا يقول : « يا إبراهيم ! لست أعمى . لكن الكعبة قد ذهبت للقاء رابعة » . فتأثر إبراهيم ثم رأى الكعبة قد غادت إلى مكانها . وأبصر رابعة تتقدم مستندة إلى عصا : « أى رابعة ! هكذا قال لها ، ما أجل عمك ! وما الضجة التى تحدثينها فى الدنيا ! الكل يقولون : ذهبت الكعبة للقاء رابعة » . فأجابته رابعة :

يا إبراهيم ! وأية ضجة تحدثها أنت في الدنيا بأن أمصيت أربعين سنة حتى بلغت هذا المكان ؟ لأن الكل يقولون : إبراهيم يتوقف كل خطوة ليصلي ركعتين . فقال إبراهيم : نعم ! قد أمصيت أربعين سنة في اختراق هذه الصحراء . فأجابت رابعة : يا إبراهيم ! أنت جئت بالصلاة وأنا جئت بالفقر « ؛ وبكت طويلاً . وبعد أن زارت الكعبة عادت إلى البصرة . وفي وثبة من قلبها صاحت : « إلهي وعدت بجزاءين لشئئين : القيام بالحج ، والصبر على الشدائد . فإذا لم يكن حجي صحيحاً عندك ، فما أكبرها مصيبة عندي ! لكن ما جزاء هذه المصيبة ؟ »

وفي السنة التالية قالت : « إذا كانت الكعبة قد أقبلت إلي في العام الفائت فأنا التي سأقبل عليها هذا العام » . وروى الشيخ أبو علي الفارمذي أنه لما جاء موسم الحج ، توجهت رابعة ناحية الصحراء وتقلبت على أضالعها حتى بلغت الكعبة في سبعة أعوام . فلما بلغت سمعت صوتاً يقول لها : « ماذا تريدن يا رابعة ؟ إذا كنت تريدنني فسأجلب لك بكل جلالتي فتدوين تواء كما يذوب الماء . — فأجابت : إلهي ! ليس لي من الطاقة ما يبلغني هذه المرتبة . ولست أطلب إلا ذرة من الفقر الروحي » . فقال الصوت : « أي رابعة ! إن الفقر عاطفة خوف من غضبنا جعلناها في طريق الأولياء ، لكن إذا لم يبق عليهم ليلغوا إلينا إلا قيد الشعرة فقد يحدث أن يفسد أمرهم في الحال وينحسوا عن الغاية . أما أنت « فلا تزالين في داخل السبعين حجاباً أو مقاماً . فطالما لم تخرجي من تحتها وتضعي قدمك في طريقنا ، فإنك لن تقدرى على الحديث عن الفقر — فقال صوت : « يا رابعة ! انظري إلى الأعلى ! » فلما نظرت إلى الأعلى ، رأت بحراً من الدم معلقاً في الهواء وصاح لها صوت : « يا رابعة ! إن هذا البحر من دموع الدم الساقطة من عيون أولئك الذين أحبونا وسعوا إلينا . ومنذ المقام الأول قضى عليهم إلى حد أنه لم يبق من أشخاصهم أثر في هذا العالم أو في الآخرة . فقالت رابعة : إلهي ! دعني أرى مثلاً على درجة السعادة التي

يصل إليها هؤلاء العشاق . فما أتمت هذه العبارة حتى أتاها الحيز وضارت غير طاهرة . وفي نفس الوقت ناداها صوت يقول : « إن المرتبة الأولى التي ينلها العشاق يمثلها تماما إنسان تقلب على أضلاعه سبع سنوات كيما يزور جدار أمن اللبن ، ولما اقترب من هذا الجدار أغلق الطريق على نفسه نتيجة عائق نشأ عن شخصه » . فلما نيست رابعة قالت : « إلهي ! لا تدعني كي أبقى في بيتي ، ولا تريد أن تقبلني في بيتك ؛ فيما أن تدعني أقيم هادئة في بيتي بالبصرة ، أو اسمح لي أن أدخل الكعبة . وهي منزلك . لقد فتشت عنك قبل أن أحني رأسي أمام الكعبة ؛ دعني إذن أذهب . فلست جديرة بدخول بيتك » . ثم عادت إلى البصرة وأقامت في خلوتها وانقطعت بكامل نفسها للعبادة .

ويروى أن عالمين ذهبا لزيارة رابعة ؛ وكانا جائعين ، فقدمت همارغيفين كانا عندها . وفي تلك اللحظة جاء شيخ يسألها على الباب ، فقدمت إليه الرغيفين . فدهش العالمان وجلسا يتأملان ما جرى . فشاهدا خادمة تحمل مفرشا من الخبز وضعته أمام رابعة وقالت : « إن سيدتي في خدمتك » . فلما عدت رابعة الأرفة وجدت ثمانية عشر . فأعادتها إلى الخادمة مع المفرش وقالت : خذها واذهي ؛ لقد أخطأت العدد . — فقالت الخادمة : كلام لم أخطيء . — فقالت رابعة : كلا ، بل تمت خطأ . فأخذت الخادمة المفرش وذهبت إلى سيدتها ، وروت لها كل ما حدث . فوضعت السيدة رغيفين آخرين مع بقية الأرفة وأرسلتها . فأحصت رابعة عددها فوجدته عشرين ، وضعتها أمام ضيفيها من العلماء . فلما فرغا من الطعام سألاها السر فيما حدث . فأجابت رابعة : « لما وصلتما عرفت أنكما جائعان فقلت لنفسي : ليس عندي إلا القليل . وفي تلك اللحظة جاء السائل الذي أعطيته الرغيفين ثم دعوت هذه الدعوة . إلهي ! لقد قلت : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها (١) » ،

وأنا من أجلك أعطيت رغيين ، فأعطيني عشرة من كل واحد . فلما جاءت الخادمة
بالثمانية عشر رغيفا قلت لنفسى : إما أن يكون أحد الناس قد أخذ منها اثنين ،
وإما ألا تكون لنا . ورددتها . فلما أعادتها بزيادة رغيين ، فهمت أن هذه لنا .
وذات ليلة كانت رابعة تهجد . فدخلت قصبة في عينها دون أن تشعر . بهل
لأن عشقها لله كان متصلا في أعماق قلبها !

ويحكى كذلك أن لصا دخل بيت رابعة ، وسرق خاها ، ولكنه
لم يجد مخرجا ؛ غير أنه لم يكده يدع المخر في مكانه حتى وجد المخرج . فأخذ
المخر من جديد ، لكن السبيل أعلق عليه . وفعل هذا سبع مرات : يأخذ
المخر ولا يجد المخرج . إلا إذا أعاده إلى مكانه . هناك ناداه صوت يقول :
« يا لص ! لا جدوى في محاولتك » فنذ عهد طويل ورابعة قد وكلت إلينا السهر
عليها ولا نسمح بدخول إبليس في خلوتها . وأنت أيها اللص ! تريد أن تسرق
خاها ؟ ألا فلتعلم أيها الشقي أنه حينما يكون أحد أحبائنا غارقا في النوم . هناك
صديق يسهر على أمره .

كما يروى أن خادمة رابعة كانت تهيء طعاما بالزيت لسيدتها . فلم يكن
عندها بصل ، فقالت لها : « سأسأل جارتنا وأعود . — فقالت رابعة : منذ أربعين
سنة وقد عاهدت الله ألا أسأل أحدا شيئا غيره . فإذا لم يكن ثمت بصل ،
فلا خير » . وفي الحال تبدى طائر يحمل بصلا قشره وقطعه قطعاً وألقى به في المقلاة
فلم تأكل رابعة من هذا الطعام واكتفت بالخبز ، ثم قالت : « يجب على المرء
ألا يفتر بحيل الشيطان » .

ويروى أيضا أن رابعة صعدت جبلا فأقبلت حولها كل الغزلان الموجودة ،
وبقيت آمنة كل الأمان . ونجاة جاء الحسن البصرى فقرت كل الغزلان ، فقال
لها : « يا رابعة ! لماذا فرت كل الغزلان مني » ولم تفر منك أنت ؟ فسأله : ماذا

أكلت اليوم يا حسن؟ - أكلت طعاماً طهى بزيت - فقالت رابعة :
يا من تأكل من دهنها ، كيف تريد ألا تفر منك؟»

ويحكى أن الحسن البصرى رأى رابعة جالسة على شاطئ الفرات ، فألقى على
الماء سجاده ووقف عليها وقال : يا رابعة ! تعالى لنصلى ركعتين على الماء -
فقالت : سيدى ! أمى أمور هذه الدنيا ما تريد أن تظهره لأهل الآخرة ؟ أظهر لنا
شيئاً لا يستطيع جمهور الناس أن يفعله . قالت هذا وألقت سجادتها فى الهواء
وصعدت عليها وصاحت : « تعال يا حسن ! نحن هنا فى مكان آمن وأبعد عن
عيون الناس » . وقالت تعزية للحسن : « سيدى ! ما فعلت أنت تستطيع السمك
أن يفعله ، وما فعلت أنا يستطيع الذباب أن يفعله . المهم أن نبلغ درجة أعلى من
هاتين الدرجتين اللتين بلغناهما » .

ويروى أن الحسن البصرى قال : « بقيت ليلة ويوماً عند رابعة نتحدث
عن الطريق الروحى وأسرار الحق بحرارة بلغت حدّاً نسينا معه أنى رجل وأنا
امرأة . فلما انتهينا من هذه المناقشة شعرت بأننى لم أكن إلا فقيراً ، بينما هى
غنية بالإخلاص » .

ومرة أخرى ذهب الحسن البصرى وبعض أصحابه إلى رابعة . وكان الوقت
ليلاً ، فاحتجوا إلى مصباح فلم يجدوا . هنالك وضعت رابعة أطراف أصابعها فى
شم أخرجتها فظل يشع منها حتى مطلع الفجر نور كأنه نور مصباح . فإن سأل
أحد كيف حدثت هذه الكرامة فأخبره أن النور كان يشع من يد موسى .
فإذا قيل لك إن موسى - عليه السلام - كان نبياً وأن رابعة لم تكن نبية ، فأجب :
إن من ينفذ الأوامر التى آتى بها الأنبياء يشارك فى قدرتهم على الإتيان بالمعجزات ؛
فإذا كان للأنبياء معجزات ، فإت للآولياء كرامات . وهذه حقيقة يؤيدها
حديث الرسول عليه السلام حين قال : « من رد دانقاً - وهو سدس الدرهم -

من الحرام، فقد نال درجة النبوة^(١)» أو «الرؤيا الصادقة جزء من النبوة» [٦٦] -
ويحكى أن رابعة أرسلت إلى الحسن البصرى بثلاثة أشياء: قطعة شمع وإبرة
وشعرة وأمرت الرسول أن يقول له: «يا حسن! اشتعل كالشمع وأضىء للناس؛
وابدأ بأن تكون متجرداً ثم اعمل؛ فإن فعلت هذين، صرنحيملاً كالشعرة إذا
أردت ألا يذهب جهدك سدى» .

وسألها الحسن البصرى: هل تزوجين؟ فأجابته: «الزواج ضرورى
لمن له الخيار؛ أما أنا فلا خيار لى فى نفسى، إنى لربى وفى ظل أوامره،
ولا قيمة لشخصى» - فقال الحسن: فكيف بلغت هذه الدرجة؟ - بفنائى
بالكلية - فقال الحسن: أنت تعرفين لماذا؛ أما نحن فلا يوجد لنا هذا» . ثم
أضاف: «أى رابعة! أخبرينى بشيء مما ألهمته - فأجابت رابعة: ذهبت
اليوم إلى السوق ومعى جزمتان من الحبال بعتهما بمئقالين من الذهب حتى أحصل
على طعام - وأخذت إحدى القطعتين فى كلتا اليدين بخافة أنى لو أمسكت بهما
معاً لجمالانى أضل الطريق القويم» . وقال لها الحسن أيضاً: «لو كنت فى الجنة
بعيداً قدر نفس من وجه الله لبكيت إلى حد يثير شفقة الآخرين على - فقالت
رابعة! حسناً! لكن من يهمل فى هذه الدنيا أو يسبح بحمد الله لحظة وهو ينوح
ويبكي فإن هذا آية على أنه فى الآخرة سيكون على الحال التى وصفتها» .

وسئلت: «لماذا لا تزوجين؟ - فأجابت: هناك ثلاثة أشياء تسبب
الهم عندى» فإذا كان من يخاضنى منها تزوجت - وماهى؟ - فأجابت:
أولها: هل إذا أنا مت أستطيع أن أتقدم بإيمانى طاهراً؟ والثانى إذا ما كنت
سأعطى كتابى يمينى يوم القيامة - والثالث إذا جاء يوم البعث وأخذ أصحاب
اليمين إلى الجنة وأصحاب المشأمة إلى السعير» فمن أى الفريقين سأكون؟ -

فقالوا جميعاً: لسننا نعرف شيئاً عما سألته . — فقالت : إذا كان الأمر كذلك ،
وأنا في قلق من هذه الأمور ، فكيف أحتاج إلى الزوج وأتفرغ له ! »

وسئلت : « من أين أتيت ؟ — من العالم الآخر — وإلى أين تذهبين ؟ —
إلى العالم الآخر — وماذا تفعلين في هذه الدنيا ؟ — أعبت بها : — وكيف
تعبتين بها ؟ — آكل من خبزها وأعمل عمل الآخرة » . وسئلت أيضاً : « إنك
بارعة في الكلام ، أفلا تصلحين لحراسة رباط ؟ » فقالت : إني حارسة رباط
فعلاً ، لأنني لا أدع شيئاً يخرج مماني داخلي ، ولا أدع شيئاً يدخل مما هو خارج » .

وسئلت : « أي رابعة ! أتحبين الله تعالى ؟ — أوه ! نعم أحبه حقاً . — وهل
تكرهين الشيطان ؟ إن حبي لله قد منعه من الاشتغال بكرهية الشيطان » .

ويروى أن رابعة رأت الرسول — عليه السلام — في المنام ، وهو يسلم
عليها ويقول : « يا رابعة ! أتحبينني ؟ — فقالت : يا رسول الله ! وهل ثمت من
لا يحبك ؟ لكن حبي لله تعالى قد ملأ قلبي إلى حد لم يجعل ثمت مكاناً لمحبة
غيره أو كراهيته . »

وسئلت رابعة : « أترين من تعبدينه ؟ فأجابت : لو كنت لا أراه لما
عبدته » . ويروى أنها كانت دائماً البكاء ، فسئلت : لماذا كل هذا البكاء ؟
فأجابت : « أخشى أن ينادى صوت في اللحظة الأخيرة ويقول : إن رابعة
ليست جديرة بالثول في حضرتنا » . وألقيَ عليها هذا السؤال : « إذا تاب أحد
من عباد الله أتعقل توبته ؟ — إذا لم يتفضل عليه الله بالتوبة ، فكيف يتوب ؟
وإذا تاب عليه فلا شك في أنه سيتقبل توبته » . وقالت أيضاً : « ليس من
المستطاع أن تميز بالنظر المقامات المختلفة في الطريق إلى الله ، ولا أن تصل إليه
باللسان فلتجعل قلبك مستيقظاً . فإذا استيقظ ، رأيت بعيونه الطريق وكان في
وسعك بلوغ المقام » . وقالت أيضاً : « إن ثمرة العلم الروحي هي أن تصرف وجهك

عن مخلوق كما توجهه إلى الله الخالق وحده ، لأن المعرفة هي معرفة الله .

ويحكى أن رابعة رأت رجلا عصب رأسه فسألته : « لماذا عصبت رأسك ؟ فأجاب ! لأنه يؤلمني — فقالت رابعة : ما عمرك ؟ — ثلاثون عاماً . — وخلال هذه الأعوام الثلاثين هل كنت في غالب أحوالك سليماً أو مريضاً ؟ — كنت في الغالب سليماً . — ولما كنت سليماً هل عصبت رأسك يوماً علامة نعمة ؟ حتى تشكو الله تعالى الآن بسبب ألم يوم وتعصب رأسك هكذا ؟ ! »

ويحكى أن رابعة كانت تعتكف إبان الصيف في بيت منعزل لا تفارقه . فقالت لها خادمتها : « سيدتى ! غادرى هذا البيت وتعالى تأمل آثار قدرة الله تعالى . — فأجابتها : بل ادخلي أنت وتعالى تأمل القدرة في نفسها » — وأضافت : « إن مهمتى أنا هي أن أتأمل القدرة » .

ويحكى أن رابعة صامت سبع ليال وسبعة أيام متوالية دون أن تتناول شيئاً ، ولا تنام الليل ، منقطعة إلى الصلاة . وفي الليلة الثامنة قالت لها نفسها (الأمرارة بالسوء) وهي تنوح : « يارابعة ! إلى متى تعذبننى هكذا دون ما هوادة ؟ » — وخلال هذا الحديث النفسى سمع صوت قرع على الباب . ففتحت رابعة ففكان رجل أحضر لها طعاماً في كأس . فأخذته رابعة ووضعت في البيت ؛ فلما تركته لإشعال المصباح أتى قط وأكل كل مافي الكأس . فلما عادت رابعة ورأت ما حدث قالت : « سأبحث عن ماء أفطر به » . فلما ذهبت للحصول على ماء انطلق المصباح . فعادت ورفعت الجرة للشرب ، ولكنها سقطت من يديها وانكسرت . فزفرت رابعة زفرة كاد البيت يحترق منها وصرخت : « إلهى ! ماذا أردت بهذه المسكينة ! » فسمعت صوتاً يقول : « يارابعة ! إذا شئت أعطيناك الدنيا بأسرها ؛ ولكن يجب من أجل هذا أن نزرع الحب الذى فى قلبك لنا ، لأن حبنا وحب الدنيا لا يجتمعان معاً . فقالت رابعة : لما سمعتُ أنى أخاطب على هذا النحو ، نزعت من قلبى كل

تعلق بأمور الدنيا وصرفتُ نظري عن كل الدنياويات. وها أنذا قد أمضيت ثلاثين عاماً لم أصلَ فيها دون أن أقول هذه الصلاة لعلها تكون آخر صلواتي . ولم أمل من تكرار هذا القول : إلهي ! أغرقني في حبك حتى لا يشغلني شيء عنك ! ■
ويحكى أن رابعة كانت تنوح باستمرار . فسئلت : لماذا تنوحين وما من ألم تشكين منه ؟ فأجبت : « وأسفاه ! إن العلة التي أشكومنها من نوع لا يستطيع طيبب أن يشفيه ■ ودواؤها الوحيد هو رؤية الله . وما يعينني على احتمال هذه العلة هو رجائي في أن أبلغ رغباتي في العالم الآخر . »

ويحكى أنه أتى إلى رابعة كثير من الصالحين، فسألت أحدهم: « وأنت ■ لماذا تعبد الله تعالى ؟ - فأجاب : لأنى أخاف النار - وقال آخر : وأنا أعبده خوفاً من النار وطمعاً في الجنة - فقالت رابعة : ما أسوء العبد الذى يعبد الله تعالى رجاء دخول الجنة أو مخافة النار ، وأضاف : فإذا لم يكن ثمة جنة ولا نار ، أفلا تعبد الله تعالى ؟ » - فسألوها : « وأنت ، لماذا تعبدن الله ؟ - فأجبت : أعبده لذاته . أفلا يكفيني نعمة منه أنه يأمرني بعبادته ؟ »

ويروى كذلك أن جماعة من الصالحين ذهبوا لزيارة لرابعة ؛ فلما رأوها وعليها أسمال ممزقة ، قالوا : « أى رابعة ! كثير من الناس سيساعدونك إن طلبت منهم المساعدة - فأجبت : إني أخجل من أن أسأل الناس شيئاً من متاع هذه الدنيا لأن شئون الدنيا ليست ملك أحد، وما هى إلا عارية في يد من هى في يده - فقالوا : هذه امرأة نبيلة العواطف . ثم سألوها : « إن الله تعالى قد توج رؤوس أوليائه بنعمة الكرامات ومنطقهم بها ؛ ولكن هذه المقامات لم تظفر بها امرأة . فكيف بلغت هذه المرتبة ؟ - فأجبت : ما قلتهموه صحيح ، لكن الكبرياء والغرور وادعاء الألوهية لم تصدر مطلقاً عن امرأة . ولم تصر امرأة فاسقة لامرأة أخرى . »
ويروى أن رابعة مرضت . فلما سئلت ماذا أصابها أجابت : ■ في هذه الليلة

عند الفجر اشتاق قلبي إلى الجنة ، فأصابني الله به - هذه المحنة حتى يرغني على الاحترام . . وروى الحسن البصرى « قال : « ذهبت يوماً إلى رابعة أسأل عن أخبار مرضها ، فرأيت تاجراً يبكي . فسألته : يا ميكيك؟ فأجاب : أتيت إلى رابعة بهذا السكيس من الذهب ، وأخشى ألا تقبله . فاذهب أنت واطلب منها أن تقبله لعلها تفعل . - فدخلت على رابعة ، هكذا قال الحسن ، ولم أكد أخبرها بهذا الذي قاله التاجر حتى نظرت إلى بمؤخر عينها وقالت : إنك أيها الحسن تعرف تماماً أن الله تعالى يعطى الطعام لمن لا يركعون له ، فكيف لا يعطيه من يغفل قلبه حباً لجلاله (هو يرزق من يسبه « أفلا يرزق من يحبه »^(١)) وأنا منذ عرفت الله صرفت وجهي عن كل مخلوق . والآن ! فكيف أقبل للمال من إنسان ونحن لا نعلم أهو حلال أو حرام؟! ثم قالت : ذات يوم وضع في المصباح زيت من بيت السلطان . ورفوت ثوبي الممزق على ضوء هذا المصباح ، فظل قلبي طوال أيام مغموراً بالظلمة ولم يضيء إلا حينما شققت الثوب الذي رفوته ، فاعتذر لهذا التاجر ودعه يذهب . » .

وذات مرة جاء تاجر غني لزيارة رابعة فرأى بيتها هو يتداعى ، فأعطاه ألف درهم من الذهب وأهداها بيتاً جيداً . فذهبت رابعة إلى البيت ، ولم تكذب تستقر فيه حتى استفرقت في تأمل الصور التي فيه ؛ فقالت في الحال وهي تعيد إلى التاجر الألف درهم من الذهب : « أخشى أن يتعلق قلبي بهذا البيت فلا يعود في استطاعتي أن أشغل نفسي بعمل الآخرة . إن كل رغبتى في أن أفرغ لعبادة الله تعالى . » .

ويحكى أن عبد الواحد بن زيد وسفيان الثوري ذهبا يوماً لزيارة رابعة . فلما أبصرها أخذها الاجلال لها فأرتج عليهما ، وأخيراً قال سفيان : « أي رابعة ! ادعى الله حتى يخفف الآلام . - فسألته : ياسفيان الثوري ! من بهت إلى بهذه الآلام ؟ - فأجاب : إنه الله تعالى . - فقالت : إذا كانت مشيئة الله أن يتمخني

(١) في الأصل بالعربية .

بهذه الحجة: فكيف أتوجه إليه متجاهلة إرادته؟» وقال لها سفيان أيضاً: «أى رابعة! ماذا يود قلبك؟ - فأجابت: ياسفيان! وأنت الرجل العليم، كيف تنطق بهذه العبارات؟ إن الله تعالى يعلم أن قلبي يريد منذ اثنتي عشرة سنة بلحاً ناضجاً، وهو ليس ينادر في البصرة، ومع هذا فقد بقيت حتى اليوم لا آكل منه. لست إلا عبدة. وليس لي أن أتصرف وفق أهواء قلبي، لأني إذا أردت ولم يرد هو (= الله) لكان هذا مني جحوداً - فقال سفيان: ليكن! لست بقادر على أن أحدثك في شئونك؛ لكن حدثيني أنت عن شئوني - فقالت رابعة: لولا ميلك إلى هذه الدنيا لكنت رجلاً لا غبار عليك. قال سفيان: فصرخت باكياً: إلهي! ليتك ترضى عني! فقالت رابعة: ألا تحجل من أن تقول لله: ليتك ترضى عني - دون أن تفعل شيئاً لرضاه؟»

ويروى أن مالك بن دينار قال: ذهبت إلى رابعة فوجدتها تشرب من جرة مكسورة. وقد فرشت على الأرض حصيرة عتيقة ومجدهتها من اللبن. فقلت وقلبي يغلي: يا رابعة! لي أصدقاء أغنياء، فإن سمحت لي سألتهم أن يعطوني شيئاً من أجلك - فأجابت: «لقد أسأت القول يا مالك؛ إن الله تعالى هو الذي يرزقني ويرزقهم. أفمن يرزق الأغنياء لا يرزق الفقراء؟ فإذا كانت هذه مشيئته، فنحن من جانبنا نرضى عنها كل الرضا».

ويحكى أن مالك بن دينار والحسن البصري وشقيق البلخي ذهبوا لزيارة رابعة فتحدثوا عن الإخلاص. فقال الحسن: «ليس بصادق في دعواه من لم يصبر على ضرب مولاه» - فقالت رابعة: هذا غرور. وقال شقيق البلخي: «ليس بصادق في دعواه من لم يشكر على ضرب مولاه». فقالت رابعة: هناك ما هو خير من هذا. فقال مالك بن دينار: «ليس بصادق في دعواه من لا يتلذذ بضر مولاه» - فصاحت رابعة: هنالك أفضل من هذا. فقالوا لها: تكلمي أنت إذن! فقالت رابعة: «ليس

ببصا دق فف دعواه من لم ينس الضرب فف مشاهدة مولاه ، مثل نسوة مصر اللآئف
نفسفن آلام أفدبهن لما رأفن فف فوسف .

وكان أأء علماء البصرة ففوزر رابعة فأنشأ ففبأء عن شرور هءة الءنفا
فقالت رابعة : « آه ! لا بء أنك فبب هءة الءنفا . ففن من أأب شفنفاً أ أكثر
مءكره . فمن ففرفء أن ففشرى ففبافا ، ففبأء عنها كففرا . فلو أنك فببءء ففمافا
عن هءة الءنفا ، ففاذا ففبمك من ففرفافها أو شرورها ؟ »

وفروى أن الءسن البصرى قال : عنء صلاة الظهر ذهبت إلى رابعة ؛
وكانت قء وضعت قءراففه لءم ، فلما بءأنا الءفء فف المعرفة (= معرفة الله)
فقلت : لا آءفء ففر من هءا ؛ والأفصل أن اسفمر ففه على أن أطهو اللحم ؛
فولم ففنفخ فف النار ففب القءر . فلما فرغنا من صلاة العشاء ، أأضرت رابعة ماء
موفزراً فافا . فم أفرغت ما فف القءر ، فوفء أن اللحم الءف كان ففه قء طهف
فبقءرة الله . فأكلنا من هءا ، وكان له طعم لم ففءوق ففله قء .

وقال سففان الفورى : كنت عنء رابعة ذات لفلة . فصلت فف فشرق
الفجر . وصلت أنا كذلك . وفف الصباف قالت : « ففبب أن نصوم الفوم شكراً
على هءة الصلوات الفف أفناها هءة الففة . » وفروى أنها كانت فقول وهف لففة
القاب : « إلهف ! فف بعث فف فوم البعث إلى النار لأذعت سراً ففبعء النار فف
فبألف سنة . - وكانت فقول : إلهف ! كل ما قءرته لى من ففر فف هءة الءنفا
فأعطه لأعءائفك ؛ وكل ما قءرته لى فف الففة ففمنحه لأصءائفك » لأنف لا أسعى
فإلا ففلك أنت وءءك . وكانت فقول : « إلهف ! فاذا كنت أعبءك فوف النار
فأأفرقنى بنارها ، أو طمعا فف الففة ففرمها على . فاذا كنت لا أعبءك إلا من
أجلك » فلا ففرمنى من مشاهءء ففبك .

وفروى أن رابعة قالت : إلهف ! فاذا بعث فف إلى النار فوم البعث فسأصرخ

نأخذه! « ربى! يا من أحبه كل هذا الحب! أهكذا تعامل من يحبونك؟ » فسمعت صوتاً يقول: « يا رابعة! لا تظنى بنا ظن السوء، لأننا سنعطيك مقاماً بين المؤمنين حتى تدة طبعى أن تحدثينا عن أبرارنا ».

ويروى أن رابعة قالت ذات ليلة: « إلهى! حينما أصلى، اصرف عن قلبى كل وساوس الشيطان، وبمنك وكرمك تقبل الصلوات التى تخالطها تلك الوساوس »:

وحينما حضرتها الوفاة جلس حولها نفر كبير من الصالحين، فقالت لهم: انهضوا واخرجوا! ودعوا الطريق مفتوحة لرسول الله تعالى. فنهضوا جميعاً وخرجوا. فلما أغلقوا الباب سمعوا صوت رابعة وهى تقول الشهادة. فلما تلفظت النفس الأخير، تجمع أولئك الصالحون وغسلوها وصلوا عليها صلاة الموتى ودفنوها فى مقرها الأخير.

ورويت رابعة فى المنام فسئلت: بماذا أجابت منكر ونكير؟ فقالت: « أتانى منكر ونكير فسألانى: من ربك؟ فأجبت: أيها الملكان! اذها وقولا لحضرة الله تعالى: أنت تأمر بسؤالى، أنا المرأة العجوز، بين هذا العدد من عبيدك، أنا التى لم أعرف غيرك! أفسيئت مرة حتى تبعث إلى بمنكر ونكير يسألاننى؟ » وقد زار محمد بن أسلم^(١) الطوسى ونعمى الطرطوسى قبر رابعة فقالا: « يا رابعة! لقد افتخرت بأنك لم تحن رأسك أمام هذه الدنيا ولا الآخرة، فأين أنت الآن! » فصاح صوت من قبرها يقول: « حبذا ما حدث لى! ما فعلت هو ما كان على أن أفعله! والطريق الذى اكتشفته هو السبيل السوى » والله وحده أعلم.

(١) راجع عنه حلية الأولياء ج ٧ ص ٢٣٨ — ص ٢٥٣.

الترجمة عن الفارسية وعن الترجمة الفرنسية لياقيه دى كورتى:

فريد الدين العطار : « إلهي نامه » بتصحيح هـ . ريتز .
استانبول سنة ١٩٤٠ ، النشريات الإسلامية ، رقم ٤٢ :

(١)

ص ٢٢٠ = ص ٢٢١ .

حكاية الحسن البصرى مع رابعة وقطيع من الحيوان

خرج الحسن ذات يوم من البصرة ، وأقبل على رابعة في الفلاة ، وكان قد اصطف من حولها سرب من الحيوان : غزلان وغير غزلان ، ما كادت تبصر الحسن قادمًا من بعيد يسلك الدرب حتى فرت جميعًا من أمام رابعة . شهد هذا الحسنُ فاستوقد لهم صدره ، ودبت له في النفس عقارب الغيرة . هنالك التفت إلى رابعة وسألها أن تنبيء بصدق : لماذا فرت هذه الطباء السائرة على الطريق هنالك لما أبصرتنى ، ولم تفرّ منك ؟ أنترأها لا ترانى أهلا لها مثلك ؟ فأجابته رابعة سائلة إياه سرًا : أى شيء أكلت ؟ فقال : « أكلت جذور بصل . لقد كان عندى ، أيها الطيبة الخاطر ، بصل وقليل من الشحم ، فأرسلت في دم القلب بضعة شحم منصر ، هى تلك التى أكلتها فى تلك الساعة التى خرجت فيها .»

سمعت رابعة منه هذا السر ، فصاحت عجبًا بنبرة خشنة فيها صوت الرجولة :
« لقد أكلت من شحم هذا القطيع المسكين ، فكيف لا تريد منها أن تفرّ منك ؟ !
آه ! لو كنت رجلاً أزومًا خفيف الزاد مثل النملة لما يسّرت لديدان قبرك أن يكظها الطعام . لو كنت لا تأكل فى اليوم إلا تمرّة واحدة . لسلم تابوتك فى القبر من الديدان ، فهل تريد أن تكون أسير الديدان ؟ إن تمرّة واحدة لهى خيرٌ لك من تسمين الدود ، وإلا صرّت للدود ظهيرًا ومعينًا فى طعامها وشرابها ، وما أتملأ

معدتك إلا من أجل هذا ، لأنك صاحب مطبخ ومبرز ، فإن لم تخصص قلبك من هذين الجحيمين ، ذهبت من جحيم إلى جحيم آخر ، بذهابك من المطبخ إلى المبرز . لقد خيل إليك أنك ، وأنت لا تصير على الطعام لحظة ، قد نلت ربحاً كثيراً . لقد قيل لك : طهر روحك ! لكنك دائب على تعيير جسدك . ألا فلتكن لباطنك عليك حرمة أبداً . إنما أنت تتعبد في الظاهر فحسب .

لقد قال رجل أشعل الروح في نفسه : إذا أكلت لقمة فاجلس واضرب جسدك .

(ب)

ص ١٥٩ — ص ١٦٠ :

حكاية رابعة رحمها الله

كانت رابعة (العدوية) صاحبة مقام ، ومع هذا فلم تكن تأكل طوال الأسبوع . بل كانت خلاله لا تجلس ، إنما كانت في شغل دائم بالصوم والصلاة . فإذا خفعت من الجوع وانهارت ساقاها وسرى التكسر في أعضائها ، تناولت مع طعامها كأساً حلوة مستورة الوجود .

وهكذا بقيت رابعة في الألم والحسرة ، حتى اشتعل السراج في المكان فجاءت قطة فجأة ، وكانت رابعة قد ألقت الكأس في الطريق مقلوبة ، ومضت لإحضار الكوز ، حتى يفتح ذلك القلب الذي تكنت يومه الأحران . هنالك وقع الكوز من يدها فكسر ، وبقي الكبد ظمآن .

فاشتعل ذلك الكبد من تأوه القلب

حتى قالت : صار العالم مشبوباً بالنار

هنالك صاحت ، وفي رأسها ألف دوار : إلهي !

ماذا تريد من هذه الحائرة المسكينة ؟ !

تقد أوقمتنى فى التباث مريج

ولكم تلقى بى فى حماة الدم النجيم

فأناها الخطاب : إن رُمت الآن أن أرزقك من شهر إلى شهر قوتاً معلوماً،
(فعلتُ) . بيد أن هذا يخرج من قلبك حزن هذه السنوات الطوال . ففكرى ا
فالولّه من أجلى

والدنيا المحتالة الفرارة لا يجتمعان فى قلب واحد . ولا فى مائة سنة

فإن شئت أن تكونى دائماً مولعة بى

فعليك أن تتخذى من ترك الدنيا صناعتك الدائمة

ولن تنالى الوله حتى يكون لك هذا الأمر (أى ترك الدنيا)

فالولّه من أجل الله ليس مجاناً .

(ج)

ص ٣٦١ ، تحت عنوان

حكاية أبى يزيد :

ولكن كله ■ مادام ..

إذا أضاءت على امرأة عجوز حيناً ما ، ردتها مثل رابعة شابة الدنيا .

كتاب « الروض الفاضل فى المواعظ والرقائق » للشيوخ الحريفيش

(المتوفى سنة ١٨٠١ هـ / ١٣٩٨ م)

طبع المطبعة اليمينية بمصر سنة ١٣٠٤ هـ = سنة ١٨٨٦ م :

فى : « المجلس السابع والعشرون فيما يجلو القلوب من القسوة » بذكر أخبار النسوة :»

[ص ١١٧] ... قال الله تعالى — وهو أصدق القائلين — : « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات ^(١) » وقال تعالى : « إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصَّامِينَ والصَّامَاتِ ، والحافظين فروجهم والحافظات » والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيماً ^(٢) .

فَقَرَنَ اللهُ — سبحانه وتعالى — ذكر النساء الصالحات بالرجال الصالحين . وللنساء أحوال وزهد وخير وصلاح كما في الرجال . وفي النساء من لهن الأوراد والسياحات والكشف ، وغير ذلك من الخصوصيات التي خصَّهن الله تعالى بها كمن مَضَيْنَ منهن في الصدر الأول مثل رابعة العدوية وشعوانة وريحانة وأم الخير وغيرهن من النساء المشهورات وغير المشهورات ، كما حكى عن رابعة العدوية — رحمها الله تعالى — أنها كانت إذا صلت العشاء قامت على سَطْحِهَا وشدت عليها دِرْعَهَا وِرْخَارَهَا ثم قالت : « إلهي ! نارَتِ النجومُ ، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبه ، وهذا مقامى بين يديك ! » ثم تُقبل على صلاتها ، فإذا كان وقت السحر وطلع الفجر قالت : « إلهي ! هذا الليل قد أدبر ، وهذا النهار قد أسفر ، فليت شعري ! أقبلتَ مني ليلتي فأهناً ، أم رددتها عليّ فأعزى ؟ فوعزتك هذا دأبي ما أحيتني وأعنتني . وعزتك لو طردتني عن بابك ما برحتُ عنه ، لما وقع في قلبي من محبتك . ثم أنشدت :

يا سروري ومنيتي وعمادي وأنيسى وعُدَّتِي ومرادى
أنت روح الفؤاد أنت رجائي أنت لي مؤنسٌ وشوقك زادى
أنت لولاك يا حياتي وأنسى ، ماشئتُ في فسيح البلاد

(١) سورة الفتح : ٢٥ .

(٢) سورة الأحزاب : ٣٥ .

كَمْ بَدَتْ مِنَّةٌ وَكَمْ لَكَ عِنْدِي مِنْ عَطَاءٍ وَنِعْمَةٍ وَأَيَادِي
حُبِّكَ الْآنَ بُنِيَّتِي وَنِعْمِي وَجَلِيلًا لَعِينِ قَلْبِي الصَّادِي :
لَيْسَ لِي عِنْدَكَ - مَا حِيدْتُ - بَرَّاحٌ أَنْتَ مَنِي مُمَكِّنٌ فِي السَّوَادِ
إِنْ تَكُنْ رَاضِيًا هَلُمَّ فَإِنِّي يَا مَتَى الْقَابِ ! قَدْ بَدَأَ إِسْعَادِي

وقال سعد بن عثمان : كنت مع ذى النون المصرى رحمه الله فى تيه
بنى إسرائيل ، وإذا بشخص قد أقبل ، فقلت : يا أستاذ ! شخصٌ قد آتى . فقال
لى : انظر من هو ، فإنه لا يضع أحدٌ قدمه فى هذا المكان إلا صدِّيق . فنظرت
فإذا هى امرأة . فقلت : إنها امرأة . صدِّيقة ورب الكعبة : فابتدر إليها وسلم
عليها فقالت : ما للرجال ومخاطبة النساء ! فقال : أنا أخوك ذو النون ولست من
أهل التهم . فقال : مرحباً ! حياك الله بالسلام ! فقال لها : ما حملك على الدخول
فى هذا الموضوع ؟ فقالت : آية من كتاب الله عز وجل - قوله تعالى : « ألم تكن
أرض الله واسعة فهاجروا فيها » (١) ؟ ! - فقال لها : صفى لى الحبة . فقالت :
سبحان الله . أنت عارفٌ بها وتتكلم بلسان المعرفة وتسالنى عنها ؟ ! فقال لها :
للسائل حق الجواب . فأنشدت تقول :

أحبك حين : حب الهوى
وحيباً لأنك أهلٌ لذا
فأما الذى هو حب الهوى
فذكرٌ شغلت به عن سواكا
وأما الذى أنت أهل له
فكشفتك لى الحجب حتى أراكا
فما الحمد فى ذا ، ولا ذاك لى
ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

(آخر) :

يا حبيب القلب مالى سواكا
يا رجائى وراحتى وسرورى
فارحم ، اليوم ، مُدْنَبًا قد أتاكَا
قد أبى القلب أن يحيب سواكا

(وقيل) إنه لملامت زوج رابعة العدوية استاذن الحسن البصرى فى الدخول

عليها هو وأصحابه . فأذنت لهم وأرخت ستراً وجلست وراءه . فقال لها أصحابه :
 إنه قد مات بملك ولا بد لك من زوج وقد انقضت عدتكم ، فأخترى من هؤلاء
 الزهاد من شئت منهم . فقالت : نعم ! حباً وكرامة ! من هو أعلمكم حتى أزوجه
 نفسى ؟ قالوا : الحسن البصرى . فقالت له : إن أجبتى عن أربع مسائل فأنا لك
 أهل . فقال لها : سلى فأنا أجيبك إن وفقنى الله تعالى . قالت : ما يقول الفقيه
 العالم إذا أنامت : هل خرجت من الدنيا مسلمة أم كافرة ؟ فقال : هذا غيب ،
 والغيب لا يعلمه إلا الله (١١٨) تعالى . قالت : فما يقول إن وضعت في القبر
 وسألنى منكر ونكير ، أفأقدر على جوابهما ، أم لا ؟ قال : وهذا أيضاً غيب .
 قالت : فإذا حشر الناس في القيامة وتطابرت الكتب فيعطى بعضهم كتابه يمينه
 ويعطى بعضهم كتابه شماله — أفأعطى أنا كتابى يمينى أم شمالي ؟ قال :
 وهذا أيضاً غيب . قالت : فإذا نودى فى الخلائق : فريق فى الجنة وفريق
 فى السعير ، فمن أى الفريقين أكون ؟ قال لها : وهذا أيضاً غيب ولا يعلم الغيب
 إلا الله عز وجل . فقالت له : فإذا كان الأمر كذلك ، وأنا فى قلق وكرب من هذه
 الأربعة ، فكيف أحتاج إلى الزوج وأتفرغ له ! ثم أشدت :

راحتى ، يا أخواتى ، فى خلوتى	وحبيبي دائماً فى حضرتى
لم أجد لى عن هواه عوضاً	وهواه فى السرايا محنتى
حيثما كنتُ أشاهدُ حسنه	فَهوَ محرابى إليه قبلى
إن أمتُ وجداً وما ثم رضا	وأعنائى فى الورى ! وإشقتوى !
يا طيب القلب يا كلَّ المنى	جُذُ بوصل منك يشفى مهجتى
يا سرورى وحياتى دائماً	نشأتى منك وأيضاً نشوتى
قد هَجَرْتُ الخلقَ جمعاً أرتجى	منك وَصِلاً ، فَهوَ أَقْصَى مُتَيْتى

— ١٨ —

« النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى »، طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٩

ج ١ ص ٣٣٠ س ٩ — س ١٣ :

في كلامه عن سنة ١٣٥ : « . . . وفيها توفيت رابعة العدوية البصرية الزاهدة العابدة ، وكانت مولاة لآل عتيك . وكان سفيان الثوري وأقرانه يتأدبون معها ؛ وكانت رابعة تصلى الليل كله ، فإذا طلع الفجر جمعت في مُصَلَّأها هجمة خفيفة حتى يُسْفِرَ الفجر ثم تثب إلى الصلاة وتقول : يا نفس ! كم تنامين ! وإلى كم لاتقومين ! يوشك أن تنامين (كذا) نومة لاتقومين منها إلا بصرخة < يوم النشور > . »

ج ٢ ص ١٥ س ١٤ — س ١٥ :

في كلامه عن سنة ١٥٠ : « . . . وفيها توفي عبد العزيز بن سليمان أبو محمد الراسبي من الطبقة السادسة من تابعى أهل البصرة : كان عابداً زاهداً ، كانت رابعة تسميه سيد العابدين ؛ كان إذا ذكر القيامة والموت صرخ كما تصرخ الثكلى ويعصرخ الحاضرون من جوانب المسجد . وربما وقع الميت والميتان من جوانب المسجد ؛ قاله أبو المظفر^(١) في « مرآة الزمان » .

ج ٢ ص ١٠٠ س ١٣ — س ٢٤ :

في كلامه عن سنة ١٨٠ : « الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة » قال : وفيها توفي . . . ورابعة العدوية . . . قالت : وقد تقدمت وفاتها في قول غير الذهبي . »

— ١٩ —

« الكشكول » لمجد بهاء الدين العاملي طبع بولاق سنة ١٢٨٨ ص ١٣٤ :

« قيل لرابعة العدوية : متى يكون العبد راضياً عن الله تعالى ؟ قالت :

إذا كان سروره بالمصيبة كسروره بالنعمة .

(١) أي سبط ابن الجوزي .

«وقيل لها يوماً: كيف شوقك إلى الجنة؟ فقالت: الجار قبل الدار.
ومن كلامها: نفعنا الله بها: ما ظهر من عملى فلا أعده شيئاً^(١)» .

— ٢٠ —

أبو محمد عبد الله بن أسعد الليافى المتوفى سنة ٧٦٩ هـ = سنة ١٣٩٨ م

« روض الرياحين فى حكايات الصالحين »

القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ = سنة ١٩٠٦ م ، ص ١٠١ :

(١) « الحكاية السابعة والثمانون بعد المائة » عن خادمة رابعة العدوية

رضى الله عنها قالت :

كانت رابعة تصلى الليل كله . فإذا طلع الفجر هجعت هجعة فى مُصَلَّآهَا حتى يسفر الفجر ؛ فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها ذلك وهى فزاعة: يا نفس ! إلى كم تنامين؟ وإلى كم لاتقومين؟ يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا بصرخة يوم النشور .

قالت (أى خادمة رابعة) : وكان هذا دأبها إلى أن ماتت . فلما حضرتها الوفاة ، دعتنى وقالت : لاتؤذنى بموتى أحداً ، وكفنينى فى جُجَّتى هذه — وكانت جبة من شمر تقوم فيها إذا هدأت العيون . قالت : فكفناها بتلك الجبة وفى خمار صوف كانت تلبسه . فرأيتها فى المنام عليها حلة استبرق خضراء وخمار من سندس أخضر لم أر شيئاً قط أحسن منها . قلت : يارابعة ! ما فعلت بالجبة التى كفناك بها . والحمار الصوف ؟ قالت : إنه والله نزع عنى وأبدلت به هذا الذى ترينه ؛ وطويت أ كفانى وختمتُ ورُفعتُ فى عليين ليكون لى ثوابها يوم القيامة . فقلت لها :

(١) « قيل لرابعة العدوية : بم ترتجىن أ أكثر ما ترتجىن ؟ فقالت : يأسى من جل عملى » .

« الكشكول » لمحمد بن الدين العاملى « طبع فى القاهرة سنة ١٣٠٢ هـ ، ص ٢٦٣ س ٢٠ .

لهذا كنت تعملين أيام الدنيا؟ فقالت: وما هذا عند ما رأيت مما أعدَّ الله من كرامات،
الله عز وجل لأوليائه! قلت مُريني بأمرٍ أتقرب به إلى الله تعالى! فقالت: عليك،
بكثرة ذكره، يوشك أن تغتبطى بذلك في قبرك.

(ب) « الحكاية الثامنة والثمانون بعد المائة » -

روى عن أحمد بن أبي الحواري — رضى الله تعالى عنه — قال: كان لرابعة
أحوال شتى — يعنى زوجته رابعة الشامية — قال: فررة يغلب عليها الحب،
ومرة يغلب عليها الأُنس « ومرة [١٠٢] يغلب عليها الخوف، فسمعتها في حال
الخوف تقول:

حبيب ليس يعدله حبيبُ	وما لسواه في قلبي نصيبُ
حبيبٌ غاب عن بصرى وشخصى	ولكن عن فؤادى لا يغيبُ
وسمعتها في حال الأُنس تقول:	
ولقد جعلتك في الفؤاد محدثى	وأبحتُ جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس	وحبيبُ قلبي في الفؤاد أنيسى
وسمعتها في حال الخوف تقول:	
وزادى قليلٌ ما أراه مُبأنى	ألزاد أبكى، أم لطول مسافتى
أحرقنى بالنار بإغاية الننى؟!!	فأين رجائى فيك أين مخافتى؟!!

قال (أى أحمد بن أبي الحواري): وقلتُ لها وقد قلت لبيل: ما رأينا من
يقوم الليل كله غيرك! فقالت: سبحان الله! مثلك يتكلم بهذا؟! إنما أقوم إذا
نوديت. قال: جلستُ آكل في وقت قيامها، فجعلت تذكّرنى. فقلت لها: دعينا
نتمنَّ بطماننا. فقالت: ليس أنا ولا أنت ممن ينتهض عليه الطعام عند ذكر الآخرة.

وقالت: لست أحبك حبّ الأزواج، وإنما أحبك حبّ الإخوان.
وكانت إذا طبخت قدرًا قالت: كلها ياسيدى! فما تضجت الا بالتسبيح.

قال : وقالت لى اذهب فتزوج ، فتزوجت ثلاثاً . وكانت تطعمنى اللحم
وتقول : اذهب بقوتك إلى أهلك .

وقالت : ربما رأيت الجن يذهبون ويحيثون ، وربما رأيت الحور العين .
رضى الله عنها ونفعنا بها .

قلتُ : الظاهرُ — والله أعلم — أن هذه الرؤية المذكورة كانت فى اليقظة ،
فأما رؤية المنام فلغير الأولياء .

وهذه رابعة الشامية : زوجة ابن أبى الحوارى كما ذكرناه . وليست رابعة
العدوية البصرية التى تقدمت . وبعض أهل العلم يقول : هذه الشامية رابعة بالياء
المثناة المنقوطة بنقطتين من تحت ؛ وبعضهم يقول بنقطة واحدة كرابعة البصرية —
رضى الله عنها ونفع بهما أجمعين .

حكايات عن رابعة العدوية

(١) المخطوط رقم ١٢٤٢ عربى بالقائىكان ، ورقة ١٨٣ :

قيل : دخل لص على رابعة العدوية رحمها الله تعالى ليلاً ، فنظر فى البيت
يميناً وشمالاً فلم يجد غير إبريق . فلما هم بالخروج قالت له رابعة : يا هذا ! إن كنت
من الشطار فلا تخرج بغير شىء . فقال : إني لم أجد شيئاً . فقالت : يا مسكين !
توضاً بهذا الإبريق وادخل فى هذا الخدع ، وصل ركعتين ، فإنك ما تخرج
إلا بشىء . ففعل ما أمرته . فلما قام يصلى رفعت رابعة طرفها إلى السماء وقالت :
سيدى ومولاي ! هذا قد أتى بابى ولم يجد شيئاً عندى ، وقد أوقفته ببابك
فلا تحرمه من فضلك وثوابك !

فلما فرغ من صلاة الركعتين ، لذت له العبادة ، فمابرح يصلى إلى آخر

الليل ، فلما كان وقت السحر دخلت إليه رابعة فوجدته ساجداً وهو يقول
في سجوده معاتباً نفسه - شعراً - :

إذا ما قال لي ربي أما استحييت تعصيني
وتخني الذنب من خلق وبالعصيان تأتيني
فما قولي له لما يعاتبني ويقصيني !؟

فقلت له : حبيبي ! كيف كانت ليلتك ؟ فقال : بخير ، وقتُ بين يدي
مولاي بذُلي وافتقاري ، فقبلَ عذري وجبرَ كسري ، وغفر لي الذنوب ،
وبلغني المطلوب .

ثم خرج هائماً على وجهه . فرفعت رابعة كفيها إلى السماء وقالت : سيدي
ومولاي ! هذا وقف ببابك ساعةً قبلته ؛ وأنا منذ عرفتك بين يديك أُنْترَك
قبلتني ؟ فنوديت في سرها : يارابعة ! من أجلك قبلناه ، وبسببك قربناه .

(ب) المخطوط رقم ٢٩٦ فاتيكان ص ٧٧ ب ، ضمن رسالة تسمى « كتاب
الصلاة » مجهولة المؤلف :

« وذكر أن رابعة العدوية كانت في الصلاة ، فسجدت على البواري
فدخلت قطعة قصب في عينها فلم تشعر بها حتى إذا انصرفت من الصلاة . . . »
(أى إلى أن انصرفت من الصلاة) .

ذُكرها العطار في « تذكرة الأولياء » : (راجعه قبلُ ص ١٤٨)

عبد الرحمن الجامي (المتوفى سنة ٨٩٨ هـ = ١٤٩٢ م) : « نفحات الأنس
من حضرات القدس » ، مخطوط رقم ١٢٤ بالمكتبة الشرقية بجامعة القديس

يوسف ببيروت (راجع فهرست شيخو لها ، ص ٢٨٤ — ص ٢٨٥ ،
تحت رقم ١٢٤ : (١)

(٤٠٤) في ذكر النساء العارفات (٤٠٥) الواصلات إلى مراتب الرجال ...
رابعة العدوية رحمها الله تعالى :

كانت من أهل البصرة . وكان يزورها سفيان الثوري رضى الله عنه ويسألها
بعض المسائل ، وكان من المولعين بوعظها ودعائها . أتانا يوماً ورفع يده وقال :
« اللهم إني أسألك السلامة ! » فبكت رابعة . فسألها سفيان : ما يبكيك ؟
فقالت : أنت الذى عرضتنى للبكاء . فسألها : وكيف ذلك ؟ فقالت : ألم تعلم
أن سلامة الدنيا هي فى تركها ؟ وأنت غارق فيها ! ومن كلامها : لكل شيء
ثمرة . وثمره العلم والمعرفة هى التقرب إلى الله . ومن قولها كذلك : أستغفر الله
من قلة صدق فى قولى أستغفر الله .

سألها سفيان يوماً : ما خير ما يتقرب به العبد إلى الله ؟ فأجابت : ألا يملك
فى الدنيا والآخرة شيئاً سواه .

وقال سفيان يوماً فى حضرتها : « واحزنناه ! » (٤٠٦) فقالت : « إنك
لتكذب ! إن كنت محزوناً ما هناك عيش . »

فى « كنوز الأولياء ورموز الأصفياء » لأبى الليث محرم بن أبى البركات
محمد الزبلى . المخطوط بالظاهرية بدمشق برقم ٣٩٧٢ عام ، ترجمة صغيرة لرابعة
العدوية تقع من ١٤١ ب إلى ١٤٢ ب . أورد فيها عبارة العطار عن سبب ذكره

(١) سنقتصر هنا على ذكر الترجمة لهذا النص الفارسى الذى نشره من قبل ليس — نساو
Less-Nassau ص ٧١٦ ؛ وإن كنا لم نتمد عليه . بل على المخطوطة المذكورة .

لها في صف الرجال^(١)، ثم نقل عن « رسالة القشيري » ثم عن ابن الجوزي ؛
وليس فيها شيء لم يرد في المصادر الأخرى .

ابن العماد الحنبلي ، « شذرات الذهب » ، طبعة القدسي ، القاهرة سنة
١٣٥٠ هـ = ١٩٣١ م ، ج ١ ص ١٩٣ ، أخبار سنة ١٣٥٠ هـ :
« وفيها رابعة بنت اسماعيل البصرية العدوية ، شهيرة الفضل . وقيل توفيت
سنة خمس وثمانين ومائة . ولا يصح اجتماع السري (= السري السقطي) بها ،
فإنه عاش حتى نيف الخمسين ومائتين . وروى أن سفيان الثوري قال بحضرتها :
واحزنناه ! فقالت : لا تكذب ! وقل : واقلة حزناه ! وسمعته يقول : اللهم إني
أسألك رضاك . فقالت : تسأل رضا من لست عنه براص ! وراها بعض إخوانها
في المنام فقالت : « هداياك تأتينا على أطباق من نور » محبرة بمناديل من نور .
وقبرها على رأس جبل يسمى الطور . بظاهر بيت المقدس ؛ وقيل : ذلك
قبر رابعة أخرى غير العدوية . وقيل لها في منام : ما فعلت عبيدة بنت أبي كلاب ؟
قالت : سبقتنا إلى الدرجات العلا . قيل : ولم ذلك ؟ قالت : لم تكن تبالي
على أي حال أصبحت من الدنيا وأمست .

كتاب « التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع »

تأليف أبي الحسين محمد بن أحمد اللطفي

في الحديث عن مذاهب الزنادقة :

ومنهم الروحانية ، وهم أصناف . وإنما سموا الروحانية لأنهم زعموا أن أرواحهم

تنظر إلى ملكوت السموات؛ وبها يعاينون الجنان ويجامعون الحور العين؛ وتسرح في الجنة. وسموا أيضاً الفكرية لأنهم يتفكرون في هذا حتى يصيرون إليه؛ فعملوا الفكر بهذا غاية عبادتهم ومنتهى إرادتهم؛ ينظرون بأرواحهم في تلك الفكرة إلى هذه الغاية فيتلذذون بمخاطبة الإلهية لهم ومصاحفهم إياهم ونظرهم إليه زعموا؛ ويتمتعون بجامعة الحور العين ومفاتيح الأبيكار على الأرائك متكئين، ويسعى عليهم الولدان الخلدون بأصناف الطعام وألوان الشراب وطرائف الثمار. ولو كانت الفكرة في ذنوبهم الندم عليها والتوبة منها والاستغفار، لكان مستقيماً. وأما هذه الفكرة في تجربتها لهم الشيطان، لأنه لا يتلذذ بلذات الجنة إلا من صار إليها يوم القيامة — وهكذا وعد الله عباده المؤمنين والمؤمنات.

ومنهم صنف من الروحانية زعموا أن حب الله يغلب على قلوبهم وأهوائهم وإرادتهم حتى يكون حبه أغلب الأشياء عليهم. فإذا كان كذلك عندهم وكانوا عنده بهذه المنزلة وقعت عليهم الخلة من الله فجعل لهم السرقة والزنا وشرب الخمر والفواحش كلها على وجه الخلة التي بينهم وبين الله، لا على وجه الحلال، ولكن على وجه الخلة كما يحل للخليل الأخذ من مال خليله بغير إذنه [٩١] — منهم رباح وكليب، كانا يقولان بهذه المقالة ويدعون إليها كذبوا! أعداء الله! وكيف يكون ذلك وإبراهيم الخليل — خليل الرحمن عليه السلام — يسأل يوم القيامة أن يشفع للناس إلى ربهم ليحكم بينهم فيقول: لست هناك، ويذكر ثلاث كذبات — كذا روى عن النبي عليه السلام أنه قال.

ومنهم صنف من الروحانية زعموا أنه ينبغي للعباد أن يدخلوا في مضمار الميدان حتى يبلغوا إلى غاية السبقة من تضيير أنفسهم وحملها على المسكروه. فإذا بلغت تلك الغاية أعطى نفسه كل ما يشتهي وتمنى، وأن أكل الطيبات كأكل الأرزلة من الأطعمة، وكان الصبر والخبيص عنده بمنزلة، وكان العسل والحل عنده بمنزلة.

فإذا كان كذلك فقد بلغ غاية السبقة وسقط عنه تضمير الميدان وأتبع نفسه ما اشتبهت.
منهم ابن حيان، كان يقول هذه المقالة.

ومنهم صنف يقولون إن ترك الدنيا اشتغال للقلوب وتعظيم (ص : تعظيماً)
للدنيا ومحبة لها : لما عظمت عندهم تركوا طيب طعامها ولذيد شرابها ولين لباسها
وطيب رائحتها . فأشفوا قلوبهم بالتعلق بتركها ؛ وكان من إهانتها مؤاتاة الشهوات
عند اعتراضها حتى لا يشتغل القلب بذكرها ويعظم عنده ما ترك منها > ورباح
وكليب < كانا يقولان هذه المقالة .

ومنهم صنف زعموا أن الزهد في الدنيا هو الزهد في الحرام . فأما الحلال
فباح لهذه الأمة من أطيب [٩٢] الطعام وغرائب الألوان وكفاية الخدم ولين
الرياش وسعة المنازل ووطاء المهاد وتشديد القصور وكفاية الحاجات وتركية
الطلبات وقضاء الأوطار . وأن الأغنياء أفضل منزلة عند الله من الفقراء لما
أعطوا من فضل أموالهم وقضوا من نوائب حقوقهم وأدركوا من منتهى
رغبتهم هم . — لقد قالوا خلاف ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — رواه
أبو هريرة عنه عليه السلام أنه قال : يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم
— خمسمائة عام . وروى عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول : إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة بأربعين خريفاً .
[مخطوط بالظاهرية بدمشق برقم ٥٩ توحيد ص ٩٠ — ٩٢]

من كتاب « شرح حال الأولياء » تصنيف الشيخ عز الدين بن عبد السلام
ابن غانم المقدسي ، مخطوط رقم ١٦٤١ عربي بالمكتبة الأهلية بباريس :
(١٢٥٣) شرح حال رابعة رضى الله عنها

كيف رأيت ^(١) الحجة ؟ قالت : ليس للمحب وحييه بين ، وإنما هو نطق

عن شوق • ووصف عن ذوق . فمن ذاق عرف ، ومن وصف فما اتصف . وكيف .
تصف شيئاً أنت في حضرته غائب ، وبوجوده دائب ، وبشهوده ذاهب ،
وبصحوك منه سكران ، وبفراغك ^(١) له ملآن ، وبسرورك له ولهان ! فالهيبة
تخرس اللسان عن الإخبار ، والحيرة توقف الجبان عن الإظهار ، والغيرة تحجب
الأبصار عن الأغيار ، والدهشة تعقل العقول عن الإقرار . فائتمم إلا دهشة دائمة ،
وحيرة لازمة • وقلوب هائمة • وأسرار كاتمة ، وأجساد [٢٥٣ ب] من النقم غير
سائلة • والحبة • بدولتها الصارمة • في القلوب حاكمة — (شعر):

وارحمتا للعاشقين ! قلوبهم في تيه ميدان المحبة هائمة
قامت قيامة عشقهم فنفسهم أبدأ على قدم التدلّل قائمه
إمّا إلى جنات وصل دائم أو نار صيد للقلوب مُلازمه

يا رابعة ! فأنت ^(٢) في ميدان المحبة رائعة • فكيف كانت صورة الواقعة ،
حتى سميت رابعة ؟ والمحلة واحدة • فمن أين هذه الشركة والمجامة ؟ فقالت :
يا قوم ! الموافقة شرط في الصحبة . أما نظرت إلى بنى الرغبة والرغبة • إلى أن
شرب ببحر المحبة في شربه ، فرأيته يقول لصاحبه في الغار • لا تحزن إن الله
معنا • ما ظنك باثنين إن الله ثالثهما ؟ فتقدمت إلى خلوة الغار بأقدام المبايعة ،
فصاحت الغيرة من داخل الغار • ما هذه الواهية الجازعة ، التي كشفت القناع
ولم ^(٣) تكن بدوننا قانعة ؟ (شعر) :

كأسى وخمري والنديم : ثلاثة وأنا المشوقة في المحبة • رابعة
كأس السرّة والنعم يديرها ساقى المدام على المدى متتابعه
فإذا نظرت فلا أرى إلا له وإذا حضرت فلا أرى إلا معه
يا عاذلى إني أحب جماله تا الله ما أذنى لمسندك سامعه

(١) م : كم ..

(٢) م : فأنتي .

(٣) م : بفرك .

كم بت من حرقى وفرط تعلقى^(١) أجرى هيونان من عيونى^(٢) الدامعة
لا عبرتى ترقا، ولا وصلى له يبقى ولا عيني القرحة هاجمه

« كتاب سير السالكات المؤمنات الخيرات » لأبى بكر الحصى ، مخطوط
رقم ٢٠٤٢ بالمكتبة الأهلية بباريس ، ورقة ١٢٦ :

... ومنهن رابعة العدوية

وكانت عجوزاً كبيرة بنت ثمانين سنة ، كأنها الشن تكاد تسقط وتحتمها بارية .
وكانت^(٣) إذا ذكرت الموت انتفضت وأصابها رعدة . قال مسمع ورباح : أتأها
رجل بأربعين ديناراً ؟ فقال : استعيني بهذه الدنانير على بعض حوائجك ! فبكت
ثم قالت : هو يعلم أنى أستحي منه أن أسأله الدنيا وهو يملكها ! فكيف أريد
أن آخذها من لا يملكها ؟! قال عبد الله بن عيسى : دخلت على رابعة فرأيت
على وجهها النور وكانت كثيرة البكاء . فقرأ رجل آية فيها ذكر النار ؛ فسقطت ،
وسمعت وقع دموعها على البارية مثل الوكف وصاحت . فقمنا وخرجنا .

وكانت - رضى الله عنها - إذا مرت بقوم عرفوا فيها العبادة ، فقال لها
رجل : ادعى لى ! تلتصق بالحائط وتقول : من أنا يرحمك الله عز وجل ؟
أطع ربك وادءه فإنه يجيب المضطر .

قال ابن منظور : دخلت على رابعة وهى ساجدة . فلما أختت بمكانى رفعت
رأسها فإذا موضع وجودها كهيئة الماء المستنقع من دموعها . فسلمت ثم أقبلت على
وقالت : يابنى ! ألك حاجة ؟ فقلت : جئتك لأسلم عليك . قال فبكت وقالت
[٢٦هـ ب] سترك اللهم سترك اودعت بدعوات ثم قامت إلى الصلاة وانصرفت

وقالت : استغفر الله - عز وجل - من قلة صدقي في قولي : أستغفر عز وجل .

لله درؤها من امرأة !

ما أنور قلبها !

قال أزهر بن هارون : دخل على رابعة رباح القيسي وصالح بن عبد الجليل وكلاب ، فتذاكروا الدنيا فأقبلوا يذمونها . فقالت رابعة : إني لأرى الدنيا يبرا بيعها في قلوبكم . فقالوا : ومن أين توهمت علينا ذلك ؟ فقالت : إنكم نظرتم إلي أقرب الأشياء من قلوبكم فتكلمتم فيه .

قال لها شيخ من قريش : هل عملت عملا ترين أنه يُقبل منك ؟ فقالت : إن كان ؛ فمخافتي أن يُرد علي .

قال جعفر بن سليمان : أخذ يدي سفيان الثوري وقال : مُر بنا إلى المؤدّبة التي لا أجد من أستريح إليه إذا فارقتها . فلما دخلنا عليها رفع سفيان يديه وقال : اللهم إني أسألك السلامة ! فبَكَت رابعة فقال لها : ما يبكيك ؟ فقالت : أنت عرّضتني للبكاء . فقال لها : وكيف ؟ فقالت : أما علمت أن السلامة من الدنيا ترك ما فيها ؟ فكيف وأنت متلطح بها ! فقال سفيان : واحزنه ! فقالت : لا تكذب ، قل : واقلة حزنه ! لو كنت محزوناً ما هناك العيش . قالت : ياسفيان ! إنما أنت أيام معدودة ، فإذا ذهب يومٌ ذهب بعضك ، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل : وأنت تعلم ، فاعمل .

كانت عبدة تخدم رابعة ؛ وكانت تقول عن رابعة : إني أتصلي الليل كله فإذا طلع الفجر [ف] كنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدتها وهي فرعة : يا نفس ! كم تنامين ! وإلى كم تقومين . يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا بصرخة يوم النشور . قالت عبدة : وكان هذا دأب رابعة ، دهرها ، حتى ماتت . فلما حضرته الوفاة قالت : يا عبدة ! لا تؤذني بوفاتي أحداً وكثرتني في حُبّتي هذه - وكانت من

شعر ، تقوم فيها إذا هدأت العيون [٢٧] - قالت : فكفناها في تلك الجبة وخار صوف كانت تلبسه .

قالت عبدة : فرأيتها بعد سنة أو نحوها في منامى وعليها حلة استبرق خضراء وخار من سندس أخضر لم أر شيئاً مثله . فقالت : يارابعة! ما فعلت [ب] الجبة التي كفناك بها والخار الصوف ؟ فقالت رابعة : والله نزع منى فأبدلت به هذا الذي ترينه على ؛ وطُـوِيت أ كفاني وُخِمَ عليها؛ ورُفِعَت في عليين ليكون لي ثوبها يوم القيامة . فقلت لها : لهذا كنت تعملين في الدنيا ؟ فقالت : وما هذا عندما رأيت من كرامة الله عز وجل لأوليائه ! فقلت : فما فعلت بنت أبي كلاب ؟ فقالت : هيهات هيهات ! والله ! سبقتنا والله إلى الدرجات العلى . فقلت : وبم وقد كنت عند الناس أكثر منها ؟ فقالت : لم تكن تبالي على أى حالة أصبحت من الدنيا وأمست . فقلت : ما فعل بشر بن منصور ؟ فقالت : بَخِ بَخِ ! أعطى والله فوق ما كان يأمل . فقلت : فمريني بأمر أتقرب به إلى الله عز وجل . فقالت : عليك بكثرة ذكره ، فيوشك أن تغتبطى بذلك في قبرك . والله أعلم .



[٣٨ ب] (رابعة زوجة أحمد بن أبي الحواري) .

... ومنهن رابعة بنت اسماعيل ، زوجة أحمد بن أبي الحواري خادم أبي سليمان^(١) رضی الله عنهم .

وهذه رابعة شامية ؛ ورابعة المدوية بصرية . قال أحمد بن أبي الحواري : قلت لزوجتي رابعة وقد كانت تصلى بليل : قد رأينا أبا سليمان وتعبداً معه ، فما رأينا من يقوم من أول الليل ! فقالت : سبحان الله ! مثلك يتكلم بهذا ! إنما أقوم إذا نوديت .

(١) أبو سليمان الداراني ، الصوفي الشافعي المشهور المتوفى سنة ٢٠٥ هـ .

قال (أى ابن أبى الحوارى) : وجلست آكل فجعلتُ تذكرنى . فقلت : دعينا [١٣٩] يهنا^(١) طعامنا بطعامنا فقالت : ليس أنا وأنت ممن يتنصص عليه الطعام عند ذكر الآخرة .

قال أحمد : قالت لى : أعلمت أن العبد إذا عمل بطاعة الله عز وجل أطلعه الجبارُ على مساوىء عمله فنشغل به دون خلقه ؟

وقال : قالت لى : إنى لأضن^(٢) باللقمة الطيبة أن أطمعها نفسى ، وإنى لأرى ذراعى قد سمن فأحزن — ومعنى أضن أبخل أن آكلها ، نظراً منها إلى قوله عز وجل : « لن تنالوا البرَّ حتى تنفقوا مما تحبون » . وأما خوف السمِّ من ذراعها فلاجل أكل الدود له وخوفاً من وقوف يوم الحساب لأجل كثرة الأكل ، رضى الله عنها .

قال : وكنتُ إذا نظرتُ إلى وجهها ورقبتها فأحزن لذلك .

قال : وكانت تقول : لست أحبك حب الأزواج ، إنما أحبك حب الإخوان ؛ وإما رغبتُ فيك رغبة فى خدمتك ؛ وإما أحبُّ وأتمنى أن يأكل مالى مثلك ومثل إخوانك .

وكانت إذا طبخت قدرًا قالت : كله يا سيدى فما نضجت إلا بالتسبيح .

وقالت : لست أستحلُّ أن أمنعك نفسى وغيرى ، اذهب فتزوج ! فتزوجت ثلاثاً فكانت تطعمنى اللحم وتقول : اذهب بقوتك إلى أهلك . وكنتُ إذا أردت قربها نهاراً تقول : أسألك بالله تعالى لا تفطرنى اليوم ، وإذا أردتها بالليل تقول : أسألك بالله لما وهبتنى لله عز وجل هذه الليلة .

وكان معها سبعة آلاف درهم أنفقتها على .

وكانت تقول لى : ما سمعت الأذان إلا ذكرت منادى يوم القيامة ؛ ولا رأيت

(٢) فى الصلب : لأظن ؛ والتصحيح بالهامش .

(١) س : يهنى

الثاج إلا ذكرت تطاير الصحف ؛ ولا رأيت الجراد إلا ذكرت الحشر .
قال : وكانت تقول : ربما رأيت الجن يذهبون ويحيثون ؛ وربما رأيت
الخور العين يستترن مني بأكامهن ؛ وقالت بيدها على رأسها .
ودعوتها يوماً فلم تجبني . فلما كانت بعد ساعة أجابتنى وقالت : إنما منعي .
أن أحبيك أن قلبي قد كان امتلاً فرحاً بالله عز وجل (٣٩ ب) فلم أقدر
أن أحبيك .

قال أحمد : كان لرابعة زوجتي أحوال شتى : مرة يغلب عليها الخوف ومرة
يغلب عليها الأُنس ، ومرة يغلب عليها الحب . سمعتها في حال الحب تقول :
حبيبٌ ليس يعُدلهُ حبيبٌ ولا لسواه في قلبي نصيب
حبيب غاب^(١) عن بصرى وشخصي ولكن عن فؤادي لا يغيب .
وسمعتها في حال الأُنس تقول :
ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحت جسمي من أراد جلوسي .
فالجسم مني للجلوس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي .
وسمعتها في حال الخوف تقول :
وزادى قليلٌ ما أراه مبلغي أَلزاد أبكي أم لطول مسافتي ؟
أتحرقني بالنار يا غاية المنى ؟ فأين رجائي فيك ! أين مخافتي ؟
والله أعلم .

« مرآة الزمان » لأبي المظفر يوسف المعروف بسبط ابن الجوزي .
المتوفى سنة ٦٥٤ هـ (= ١٢٥٧ م) ، مخطوط رقم ١٥٠٥ بالمكتبة الأهلية .

(١) حبيب عيني غاب ..

بيارسيس* ورقة ١٦١ ب (أخبار سنة ٢٤٦ هـ بعد الكلام عن زوجها أحمد ابن أبي حوارى).

ذكر زوجة أحمد بن أبي الحوارى

عامّة الرواة على أن اسمها رابعة، وكانت فى العبادة والزهد مثل رابعة بالبصرة، لا بل أبلغ.

وروى عن أحمد بن أبي الحوارى أنه قال: كانت إذا طبخت قدرًا تقول لى: كلها! فوالله ما أنضجتها إلا بالتسبيح.

وروى أبو عبد الرحمن السلمى (١١٦٢) أنها قالت لزوجها أحمد: «ربما رأيت الحور العين يذهبن فى دارى ويحئن ويستترن بأكماهن منى».

وروى ابن باكوويه عن أحمد بن الحوارى قال: قات لرابعة — وكانت تقوم الليل — قدر أينما أباسليمان وتعبدنا معه؛ ما رأينا من يقوم الليل^(١) إلا أنت^(٢) — قالت: سبحان الله! مثلك يتكلم بهذا الكلام! إنما أقوم^(٣) إذا نوديت.

وحكى أبو نعيم عن سرى السقطى قال: قدمت الشام فدخلت على أحمد بن أبي الحوارى المسجد فسلمت عليه وقالت: عظى وأوجز! فقال: ما أحسن؛ ولكن سر^(٤) إل المنزل فيه من يحسن. قال: فخرجت أطلب منزله؛ وإذا براهب كبير خلفه صغير. فقلت للصغير: لم تتبع هذا؟ فقال: لأنه طيبى يسقيني الدواء. قال: فورد على قلبى من كلامه شيء لأعقله؛ فجئت إلى أحمد فطرقت الباب؛ فكلمتنى امرأة من وراء حجاب، فذكرت لها قول الراهب. قال: فقالت: «ياليت شعرى أى داء يسقيه: دواء الإفاقة أم دواء الراحة!» فقلت: بينى ما تقولين.

* للمخطوط ترقيان لصفحاته أحدهما بالعربية والآخر بالفرنسية ويختلفان بقدر ورقة، وقد اخترنا الثانى.

(١) وردت مكررة فى الأصل. (٢) ص: أننى (٣) ص: تقوم. (٤) ص: صير

فقلت : « أما دواء الإفاقة فالكف عن محارم الله تعالى ؛ وأما دواء الراحة فالرضا عن الله تعالى ». قال سرى : فوالله ما خرج كلامها من قلبي أبداً .

وقال أحمد : سمعت رابعة تقول : ما رأيت ثلجاً إلا تذكرت به تطاير الصحف، ولا جراداً إلا ذكرت به الحشر، ولا سمعت أذاناً إلا تذكرت به منادى يوم القيامة .

قال : ودفعت إلى يوماً خمسة دراهم وقالت : تزوج بهذه أو تسر^(١) . فإني أستنفر عنك .

قال : وكانت تطبخ الطيخ وتقول : كل اللحم فإنك قريب عهد بغرس وتحتاج إليه .

وكان لأحمد أربع نسوة .

قال : وكان لها أحوال في المحبة ، فتارة تقول :

حبيب ليس يعدله حبيب ولا لسواه^(٢) في قلبي نصيب
حبيب غاب عن بصرى وسمعى ولكن عن فؤادى ما يغيب
وتارة يغلب عليها الأنا فتقول :

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثى وأبحت سرى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليلس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسى
وتارة يغلب عليها الخوف فتقول :

وزادى قليل ما^(٣) أراه ميلنى اللزاد أبكى ؟ أما لطول مسافنى ؟
أتحرقنى بالنار يا غاية المنى ؟ فأين رجائى فيك ! أين مخافتى ؟ !

توفيت رابعة من قبل أحمد في سنة تسع وعشرين ومائتين رحمة الله عليها .

■ ■ نفعات الأنس من حضرة القدس ■ العبد الرحمن الجامي
تعريب تاج الدين زكريا العماني ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس
برقم ١٣٧٠ عربي ■ ورقة ٢٣٦ : ١

رابعة العدوية رضی الله عنها

كانت من البصرة ■ ويسأل منها سيفان الثوري مسائل ويذهب عندها
ويرغب إلى موعظتها ودعائها . فيوماً دخل عليها سيفان الثوري وقال : اللهم إني
أسألك السلامة . فبكت رابعة . فسألها : ما يبكيك . قالت : أنت أبكيتني
قال سيفان : بم ؟ قالت : أما علمت أن السلامة في ترك الدنيا وأنت مشتغل بها ؟!
قالت : رابعة : لكل شيء ثمرة ؛ وثمره المعرفة تولّى الوجه إلى الله ^(١) تعالى .
وأيضاً عنها قالت : أستغفر الله من قلة صدق في قولي أستغفر الله .

سألها سيفان (٢٣٦ ب) : أي شيء أفضل أن يقرب به العبد إلى الله ؟
قالت : ألا تطلب من الدنيا أو الآخرة غيره .

ويوماً قال سيفان عندها : واحزنناه ! قالت : لا تقل الكذب ! إن كنت
أنت محزوناً لا تكن مسروراً في الحياة الدنيا .
وأيضاً عنها قالت : لا يكون حزني أن أكون محزونة ، بل حزني أني
ما كنت محزونة .

* * *

(٢٣٧ ب) رابعة الشامية رحمها الله تعالى .

هي زوجة أحمد بن أبي الحواري ، قال أحمد بن أبي الحواري : كانت

(١) كلمة ■ الله ■ غير واضحة في المخطوط وهذا الموضع والصفحات التالية عليه آثار سوداء
شوهته . فلا يقرأ إلا بعناء شديد .
■ المخطوط يقع في ٢٤٥ ورقم حجم ٢١٥ X ٥٥ مسطرتة ٢٥ ؛ تاريخ نسخه ■ ١١٠ هـ

مختلفة الأحوال . يفلب عليها العشق والمحبة ، مرةً أنس ، ومرة خوف ، وفي حال غلبة المحبة تقول (شعراً) :

حبيب ليس يعدله حبيب وما لسواه في قلبي نصيب
حبيب غاب عن بصرى وشخصى ولكن عن فؤادى لا يفيب
وتقول في حالة الأنس (شعراً) :

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثى وأبحتُ جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجلوس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسى
وسمعتها تقول في حالة الخوف (شعراً) :

وزادى قليل ما أراه مُبَانِي أَللّزاد أبكى ، أم لطول مسافتي ؟!
أتحرقني بالنار يا غاية المنى فأين رجأى منك ، أين مخافتي ؟!

وتقول لأحمد بن أبي الحوارى : لست أحبّك حبّ الأزواج ، إنما أحبّك حب الإخوان . وكانت لما تطبخ الطعام تقول : كل ياسيدى فما طبخت هذا الطعام إلا بالتسبيح .

قال أحمد بن أبي الحوارى يوماً : كان عندها طشت . قالت : ارفع هذا الطشت لأنى أرى الأمير هارون مات . فبعد تفحص تحقق [أن] مات هارون بالرشيذ ذلك النهار .

سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨
مخطوط مصور بدار الكتب المصرية برقم ٩٥ (١٢١) م
٢٠٨ / ٦ / ٣ لوحة

رابعة العدوية

البصرية الزاهدة العابدة الخاشعة ، أم عمرو ، رابعة بنت إسماعيل . ولاؤها
للمعتكبين . ولها سيرة في جزء لابن الجوزي . قال خالد بن خدّاش : سمعت رابعة
صالحاً المرى يذكر الدنيا في قصصه ، فنادثه : « يا صالح ! من أحب شيئاً أكثر
من ذكره ! » . وقال محمد بن الحسن [٣٠٨ ب] البرجلاني ، حدثنا بشر بن
صالح العتكي قال : استأذن ناس على رابعة ومعهم سفيان الثوري . فبتدأ كروا
عندها ساعة . وذكروا شيئاً من الدنيا : فلما قاموا قالت لخادماتها : « إذا جاء
هذا الشيخ وأصحابه فلا تأذني لهم ، فإنّي رأيتهم يحبون الدنيا » ... وعن أبي يسار
مسمع قال : أتيت رابعة فقالت : « جئني وأنا أطبخ أرزاً » . فأثرت حديثك على
طبخ الأرز . « فرجعت إلى القدر وقد طبخت .

ابن أبي الدنيا : حدثنا محمد بن الحسين . حدثني عيسى بن ميمون العطار .
حدثتني عبدة بنت أبي شوال وكانت تخدم رابعة للعدوية . قالت : كانت رابعة
تصلي الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت هجعة حتى يسفر الفجر ، فكنت أسممها
تقول : « يانفس ! كم تنامين ! وإلى كم تقومين ! يوشك أن تنامى نومة لا
تقومين منها إلا ليوم النشور » .

قال جعفر بن سليمان : دخلت مع الثوري على رابعة ، فقال سفيان : « واحزنناه ! »
فقالت : « لا تكذب ! قل : واقلة حزنناه ! »

وعن حماد قال : دخلت أنا وسلام بن أبي مطيع على رابعة . فأخذ سلام في
ذكر الدنيا ، فقالت : « إنما يذكر شيء هو شيء . أما شيء ليس بشيء - فلا » .

شيبان بن فروخ ، حدثنا زيار القيسي قال : كنت أختلف الى سميث [بن عجلان]^(١) أنا ورابعة فقالت مرة : تعال يا غلام وأخذت بيدي ودعت الله . فإذا جرة خضراء مملوءة عسلا أبيض : فقالت : « كل ! فهذا والله لم تحوم بطون النحل » . ففزعت من ذلك فقمنا وتركناه .

قال أبو سعيد بن الأعرابي : أما رابعة فقل حمل الناس عنها حكمة كثيرة ! وحكى عنها سفيان وشعبه وغيرهما ما يدل على بطلان ما قيل عنها ! وقد تمثلت بهذا [البيت]^(٢) :

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فانسبها بعضهم الى الحلول بنصف البيت ، و الى الاباحة — بتمامه : قلت : فهذا غلو
وجهل : ولعل نسبها الى ذلك مباحي حلولي ، ليحتج بها على كفره ، كاحتجاجهم^(٣)
بغير : « كنت سمعه الذي يسمع به . . »

قيل : عاشت ثمانين سنة ؛ توفيت سنة ثمانين ومائة :

أما رابعة الشامية العابدة فأخرى مشهورة [١٢٠٩] أصغر من العدوية :

وقد تدخل حكايات هذه في حكايات هذه ، والثانية هي القائلة : ماردي
أحمد بن أبي الحواري عن العباس بن الوليد أمهر قالت : استغفر الله من قلة صدقي ،
في قولي « استغفر الله » :

(١) الزيادة عن « تاريخ الاسلام » للذهبي ورقة ١٦ ، مخطوط بدار الكتب المصرية .
برقم ٤٢ تاريخ .

(٢) عن « تاريخ الاسلام » (٣) في « تاريخ الاسلام » : « ولأحسب ينسبها الى الحلول .
مباحي لينفق بها زندقته ، كما احتجوا بالخبر النبوي : فأذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به . . الحديث .
قيل توفيت سنة ثمانين ومائة عن نحو من ثمانين سنة »

[لوحه ١٩١] رباح بن عمرو القيسى

العابد أبو المهاصر . بصرى زاهد متأله ، كبير القدر . سمع مالك بن دينار
وحسان بن أبي سنان وطائفة . وهو قليل الحديث ، كثير الخشية والمراقبة . روى
عنه سيار بن حاتم . وعلى بن الحسن ابن أبي مریم . وغيرهما . قال أبو بكر بن
أبي الدینار ، حدثنا على بن أبي مریم قال : قال رباح القيسى : لى نيف وأربعون
ذنباً قد استغفرت لكل ذنب مائة ألف مرة .

قال أبو معمر المقعد : نظرت رابعة إلى رباح يضم شيئاً من أهله ويقبله .
فقلت : « أتجبه ؟ » قال : نعم ! قالت : « ما كنت أحسب أن فى قلبك موضعاً
فارغاً لحبة غيره تبارك اسمه ! » . فغشى عليه ، ثم أفاق وقال : « رحمة منه تعالى
ألقاها فى قلوب العباد للاطفال » .

سيار ، حدثنا رباح بن عمرو : سمعت مالكا بن دينار يقول : « لا يبلغ العبد
منزلة الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة ، ويأوى إلى مزابل الكلاب » .
قيل إن رباحاً روى عن الحسن البصرى ، وذلك فى « حلية الأولياء » .

من تاريخ الإسلام للذهبي . مخطوط بدار الكتب المصرية

برقم ٤٢ تاريخ ج ٩ [ورقة ١١٧]

رباح بن عمرو القيسى البصرى الزاهد أبو المهاصر . كان خاشعاً خائفاً بكماء .
روى عن مالك بن دينار ، وواصل بن السائب . وقيل إنه لقي الحسن البصرى .
روى عنه سيار بن حاتم ، وموسى بن داود ، ويزيد بن هارون وعمرو بن عون
وروح بن عبد المؤمن وطائفة : وقال أبو زرعة : صدوق : وذكره أبو داود .
السجستاني فوهاه . وقال : رجل سوء : قال على بن الحسن بن أبي مریم . قال

«رياح القيسى : لى نيف وأربعون ذنباً قد استغفرت الله لكل ذنب مائة ألف مرة . وقال سيار : حدثنا رباح قال : قال لى عتبة الغلام : من لم يكن معنا فهو علينا .

وكان رباح يصرخ عند الموعظة ويفشى عليه .

من « شفاء السائل تمهيد المسائل » لولى الدين عبد الرحمن بن

خلدون ، المتوفى سنة ٨٠٨ هـ

مصور مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٤٢٩٩ ب

[ورقة ٣٤ ب]

وإن صدر عن أحد منهم [أى الصوفية أهل المكاشفة] كلمة من ذلك [أى من الكلمات الكشفية] على سبيل الندور سموه شطحا ، بمعنى أن حال الغيبة والسكر استولت عليه حتى تكلم بما ليس له فيه الكلام ، كما نقل عن أبى يزيد فى قوله : « سبحانى ما أعظم شأنى ! » ، وقوله : « جرت مجراً وقف الأنبياء بساحله » . وقول رابعة : « لو وضعت خمارى ما بقى بها أحد » .

« إحياء علوم الدين » لأبى حامد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ

[ح ٤ ص ٢٧ ، القاهرة سنة ١٢٨٢ هـ]

ولا يطلبون (فى الجنة) إلا لذة النظر إلى وجه الله تعالى الكريم . فهى فى غاية السعادات ونهاية اللذات .

ولذلك قيل لرابعة العدوية - رحمة الله عليها ! - : كيف رغبتك فى الجنة؟

فقلت : « الجار ، ثم الدار » . فهؤلاء قوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزينتها ، بل عن كل شيء سواه حتى عن أنفسهم ، ومثالهم مثال العاشق المستهتر بمشوقه المستوفي همه بالنظر إلى وجهه والفكر ، فإنه في حال الاستغراق غافل عن نفسه لا يحس بما يصيبه في بدنه ، ويمبر عن هذه الحالة بأنه فنى عن نفسه ، ومعناه أنه صار مستغرقاً بغيره وصارت همومه هما واحداً وهو محبوبه ، ولم يبق فيه متسع لغير محبوبه حتى يلتفت إليه لا لنفسه ولا غير نفسه ، وهذه الحالة هي التي توصل في الآخرة إلى قرة عين لا يتصور أن تخطر في هذا العالم على قلب بشر .

The first part of the document discusses the importance of maintaining accurate records of all transactions. It emphasizes that every entry should be supported by a valid receipt or invoice. This ensures transparency and allows for easy verification of the data. The second part of the document provides a detailed breakdown of the financial data for the quarter. It includes a table showing the revenue generated from various sources, as well as the associated costs and expenses. The final part of the document summarizes the overall financial performance and provides recommendations for future actions. It suggests that the company should focus on increasing its marketing efforts and improving its operational efficiency to achieve its goals for the next quarter.

فهرس الكتب

التبیه والرذطل أهل الالهواء والبذع:

١٧٠، ١١١، ٦٢.

(ج)

جامع الأصول فی الأولیاء وأنواعهم :

١٩، ٤١، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٩.

حلیة الأولیاء: ٦٧، ١٠١، ١١٠،

١٥٧

حیة القلوب: ١٨، ١٠٧.

الحوان: ١٠٨.

(د)

دائرة المعارف الإسلامیة: ٣

(هـ)

رابعة وزمیلاتها للتصوفات فی الإسلام:

٤٣٤.

الرذطل الحریریة: ٣٩، ١١٢

الرسالة القشیریة: ٢٨، ٢١، ١٢٤.

روض الرباحین فی مناقب الصالحین :

٤٩، ١٦٥.

الروض الفائق فی المواعظ والرقائق ا

٢٣، ٢٤، ٤٨، ٥٢، ٧١، ٧٤،

١٦١.

(ز)

الزمان الوجودی: ٢٨.

(س)

سیر السالكات المؤمنات الخیرات :

١٧٤.

(١)

تحاف الاخصاء فی فضائل المسجـد

الاقصى: ٩٧.

تحاف السادة الثقلین: ١١، ٥١، ٦٣،

٦٤، ٧٠، ٧٢، ١٠٢ — ٩.

١١٨

احیاء علوم الدین: ٧٠، ١٢٨، ١٨٥،

أخبار الحلاج: ٢٧.

الاستقامة: ١١١.

أسرار التوحید: ١٠٩.

الاحاد فی الإسلام: ٨١، ٨٥.

المهی نامه: ١٥٨.

الانساب: ٩.

الأنس الجلیل: ٩٧.

الإنسانیة والوجودیة فی الفكر

العربی: ٧١.

(ب)

بحث فی نشأة المصطلح الفنئ للتصوف

الإسلامی: ٢٨، ٢٣، ٦٠، ٧٠،

١٠٣، ١٠٤.

بلاد الخلافة الشرقیة: ٣.

البیان والتبیین: ٩، ١٠٨.

(ج)

تذكرة الأولیاء: ٧، ١٦، ٢٢، ٣١،

٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٧٦،

٧٨، ٨٧، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٢،

٩٥، ١٠١، ١٤٢، ١٦٨.

لتعرف لمذهب أهل التصوف: ٢١،

٦٩، ٧٧، ٧٨، ٨٨، ١٠٩.

(ق)

قوت القلوب : ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٣ ، ٦٥ ،
٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٠ ، ١٠٧ ، ١١٠ ،
١١٣ ، ١١٩ ، ١٢١ .

(ك)

كشف المحجوب : ١٠٩ ، ٨٩ .
الكشكول : ١٦٤ ، ١٦٥ .
كنوز الأولياء ورموز الأصفياء : ١٦٩ .

(ل)

لسان العرب : ٥٩ .
اللمع : ٨٨ ، ١٠٨ .

(م)

مثير الغرام : ٩٧ .
مجموع نصوص غير منشورة خاصة
بالتصوف الإسلامي : ٣٩ ، ٥١ .
مجموعة رسائل وتعليقات وتقييدات :
٩٣ .

مجموعة الرسائل والمسائل : ٨٠ ،
٨٢ ، ١١٢ ، ١٣١ .
مرآة الزمان : ٣٤ ، ١٣٤ ، ١٧٨ .
مصارع المشاق : ٣٠ ، ٧٢ ، ١٢٢ ،
١٣٣ .

معجم البلدان : ٣ ، ٥ ، ٨٩ ، ٩٩ .
مناقب الأبرار وشعار الأخيار : ٤٥ .
مناقب العارفين : ٩ ، ١١٢ .
المنحى الشخصى لحياة الحلّاج : ٣٩ .

(ن)

النجوم الزاهرة : ٩ ، ٣٠ ، ٣٤ ،
١٠٢ ، ١٦٤ .
نفحات الأنس من حضرة القدس :
٥٠ ، ١٦٨ ، ١٨١ .

(و)

وفيات الأعيان : ٣٠ ، ٩٧ ، ١٠٢ ،
١٠٣ .

(ش)

شخصيات قلقة في الإسلام : ١٣ ،
٣٦ ، ٣٩ .
شذرات الذهب : ٩٨ ، ١٠٢ ، ١١٢ ،
١٧٠ .

شرح حال الأولياء : ١٧٢ .
شطحات الصوفية : ٩٢ .
شكوى : ٥١ ، ١١١ .

(ص)

صعود الكرمل : ٧٧ .
صفة الصفوة : ٦ ، ٢١ ، ٢٩ ، ٣٠ ،
٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ،
١٠٢ ، ١٢٤ ، ١٢٨ .
صورة الأرض : ٣ ، ٥٠ .

(ط)

طبقات الأولياء : ٥ ، ١١ ، ٢٣ ، ٥١ ،
٨٤ ، ٩٨ ، ١٣٥ .
طبقات الشعرائى : ٥٣ ، ١٠١ ، ١٠٧ .
طبقات الصوفية : ٢١ ، ٣٣ ، ٣٥ ،
٧٩ ، ١٠٢ .
الطبقات الكبرى : ١١ .

(ع)

عذاب الحلّاج : ٧٠ .
عقلاء المجانين : ٢٦ ، ٣٢ .
عوارف للمارف : ٣١ ، ٥٣ ، ٥٤ ،
٥٥ ، ٥٦ .
عيون التواريخ : ٦ ، ١١ ، ٢١ ، ٩٧ ،
١٠٢ ، ١٢٣ .

(ف)

فاوست الثانى : ٧٤ .

فهرس الأعلام

- (١)
- ابراهيم بن أحمد القرمسيفي : ١٢٦٩ .
ابراهيم بن آدم : ١٩ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٥١ ، ٥٣ ، ١١٣ ، ١١٧ ، ١٤٥ ، ١٤٦ .
ابراهيم بن بشار الرمادي : ١٢٤ .
ابراهيم بن محمد الزكي : ١٢٤ .
ابراهيم بن يوسف : ١٢٦ .
ابراهيم الخليل (عليه السلام) : ٦٣ ، ١٧١ .
ابراهيم الثرباصي : ١٠١ .
بازن بن أبي عياش : ٥٩ .
ابن أبي الدنيا : ١٢٣ ، ١٨٢ .
ابن أبي عينة : ٥ .
ابن تفرى بردى : ٩ ، ٣٠ ، ٣٤ ، ١٠٢ ، ١٦٤ .
ابن تيمية : ٣٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ١١٣ ، ١٣١ .
ابن الجوزي : ٦ ، ٢١ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٤ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٩٧ .
١٠٢ - ٢٤ ، ٢٨ ، ٣٩ ، ٦٤ ، ٧٨ .
ابن حبيب البراز : ١٢٥ .
ابن حوقل : ٥ .
ابن خلكان : ٩ ، ١١ ، ٣٠ ، ١٠٢ - ٣ ، ٧ ، ٣٢ .
ابن الراوندي : ٨١ ، ٨٢ .
ابن شاكر الكوفي : ٦ ، ١١ ، ٢١ ، ٩٧ ، ١٠٢ - ٣ ، ٢٢ .
ابن عربي : ٨٦ ، ١٣٨ .
ابن العباد الحنبلي : ١٠٣ - ١٢ ، ٧٠ .
- ابن القيسراني : ٩٨ .
ابن محمد النامي : ١٢٥ .
ابن المقفع : ٨٥ ، ٨٦ .
ابن منظور : ١٢٦ ، ١٧٤ .
ابن يحيى : ١٢٢ .
أبو أسماء بن منيب العسكي : ٩ .
أبو بكر البرقاني : ١٢٤ .
أبو بكر الحنفي : ١٧٤ .
أبو بكر القرشي : (انظر القرشي) .
أبو بكر الكلاباذي : (انظر الكلاباذي) .
أبو بكر محمد الأردستاني : ١٢٩ .
أبو جعفر الرازي : ١٣١ .
أبو جعفر للمدني : ١٢٦ .
أبو الحسين بن عبد الجبار : ٢٢٥ .
أبو اسين اللطفي : ٦١ ، ٦٢ ، ١١٢ ، ١٧٠ .
أبو الحلال : ٩ .
أبو حنيفة : ٣١ .
أبو الخير الأقطع : ٨٨ ، ٨٩ .
أبو السعود بن شبل : ١٣٩ .
أبو سعيد بن أبي الخير : ١٠٩ .
أبو سعيد الخراز : ١٢٢ .
أبو سليمان الداراني : ٢٨ ، ٣١ ، ٤٥ .
٥٨ ، ١١٣ ، ٢٩ ، ٤٠ ، ٧٦ .
أبو طالب المساري : ١٣٤ .
أبو طالب للمكي : ٥٤ ، ٦٣ ، ٦٥ .
٦٦ ، ٧٠ ، ١٠٧ - ١٠ ، ١٣ .
أبو عبد الله الجهمي : ٤٥ .
أبو عبد الله البناجي : ٤٥ .
أبو عبد الرحمن الطلي : ٤٤ ، ١٢٨ -

الأسود بن كلثوم ١٠٨١ .

الأفلاكي : ٩ ، ٩١ ، ١١٢ .

الوسى : ١١٢ .

أم الخير : ١٦١ .

أم الدرداء : ١٠٨ .

أوستيا : ١٤ .

أوغسطين : ١٤ ، ١٧ ، ٧٦ .

أيوب السجستاني : ١٠٨ .

(ب)

بأفيه دي كورتى : ٧ ، ١٥٧ .

بجالة بن عبدة العنبري : ١٠٨ .

بشر بن الحارث الحافي : ٥٧ .

بشر بن السرى : ٤٥ .

بشر بن منصور : ١٢٨ ، ٧٦ .

بلال بن رباح : ١٤ ، ١٣ .

بهاء الدين العاملى : ١٦٤ ، ٦٥ .

بولس : ١٤ ، ١٧ .

(ت)

تاج الدين زكريا العثماني : ١٨١ .

تريزا الأبلية : ٧ ، ١٦ ، ١٨ .

٢٧ .

التوزى : ١٢٢ ، ٣٢ ، ٣٤ .

التويرجى القمشيندى : ٧٢ .

(ج)

الجاحظ : ٩ ، ١٠٨ .

چامى : ٥٠ ، ١٨٦ .

جبرين (عليه السلام) : ٢٨ .

جرتشن : ٧٤ .

جمنر بن أحمد السراج : ١٢٦ ، ٣٠ .

جمنر بن جرقاس : ١٠٨ .

جمنر بن زيد العبدى : ١٠٨ .

جمنر بن سليم : ١٢٧ .

جمنر بن سليمان الضبيعى : ٦٥ .

١١٨ ، ٣٦ ، ٧٥ .

٢٩ ، ٣١ ، ٧٩ .

أبو على الفارمذى : ٣٩ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٦ .

أبو على الفقيه : ١١٠ .

أبو الفناهم بن النمرسى : ٤٥ ، ١٢٩ .

أبو القاسم الحريرى : ١٢٤ .

أبو القاسم الحسن بن محمد النيسابورى :

٢٦ ، ٣٢ ، ١١٣ .

أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب : ١١٣ .

أبو القاسم الزيدى : ٨٧ .

أبو اللبث العنكى : ٩ .

أبو الليث محرم الزبلى : ١٦٩ .

أبو محمد الحلال : ١٢٩ .

أبو معمر : ١٢٢ ، ١٣٤ .

أبو معمر عبد الله بن عمرو : ١١٠ .

أبو ناصر : ٤٥ ، ١٢٩ .

أبو نصره : ٩ .

أبو نعيم : ٥٣ ، ٦٧ ، ١٠١ ، ١٠٠ .

١٣ ، ٧٩ .

أبو هريرة : ١٧٢ .

أبو يزيد البسطامى : ٩٢ ، ١٦٠ .

أحمد بن أبى الخوارى : ١١ ، ٢٨ .

٤٢ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ .

٥٣ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١١٣ ، ٢٦ ، ٢٨ .

٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٤٠ ، ٦٧ .

٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ .

٨٢ .

أحمد بن جعفر بن سلم : ١٢٥ .

أحمد بن عبد الخالق : ١٢٥ .

أحمد بن على التودى : ١٢٦ ، ١٣٠ .

أحمد سامح الخالدى : ٩٧ .

أزبرى : ٢١ ، ٧٨ ، ٨٨ ، ١٠٩ .

أزهر بن مروان : ١٢٦ .

أزهر بن هرون : ١٧٥ .

أبيحة بن أحمد بن على : ١٢٩ .

(ومن هنا برد ذكر اسمها إلى
آخر الكتاب) ..

راشد بن علقمة الأهوازي : ١١٥ .
راعبة الشامية : ١١ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ،
٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٩٨ ،
٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٦ ، ٣٩ ، ٣٩ ، ٦٦ ،
٦٧ ، ٧٦ ، ٨١ .

رزق الله بن عبد الوهاب بن وهب :
١٢٦ ، ٣١ .

رياح بن عمرو القيسي : ١٨٠ ، ١٩٠ ،
٣٤ ، ٥٣ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ،
١٠٣ ، ١٠٠ ، ١١٠ ، ١١٣ ، ٢٢ ، ٢٥ ،
٣٥ ، ٤١ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ١٨٤ ،
ريحانة : ١١٣ ، ١٦ ، ١٧ ، ٦١ .

(ز)

الزبيدي : ١١ ، ٥١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٠ ،
٧٢ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ٩٠ ، ٨٠ ، ٢٢ ، ٢٢ ، ٢٢ .

(س)

السراج القاري : ٣٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ،
٨٨ ، ١٠٨ ، ٢٢ ، ٢٣ .

السري السقطي : ٣٢ ، ٨٨ ، ١٧٠ ،
٧٩ ، ٨٠ .

سعد بن عثمان : ٧٠ ، ١٦٣ ،
سعيد بن المسيب : ٣١ .

سفيان بن عيينة : ٤٥ ،
سفيان الثوري : ٩ ، ٣١ ، ٦٥ ، ٩٠ ،

١٠٣ ، ٨٠ ، ٩٠ ، ١٨ ، ٢٣ ، ٢٧ ،
٣٧ ، ٣٨ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٤ ،
٦٩ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ٨١ .

سقراط : ١٤ ،
سلام الأسود : ١٥ ، ١٦ ، ١٦ ، ١٦ ،

سلمان الفارسي : ١٢ ، ١٣ ، ١٣ ،
سلمونة : ١٨٧ .

جعفر الصادق : ٥٩ .
جيته : ٨٢ .

(ح)

حاتم بن الليث الجوهري : ١٢٤ .
الحارث بن سعيد : ١١٤ .

حبيب بن أبي ثابت : ١٠٨ .
حرب بن جرفاس : ١٠٨ .

الحريفيش : ٢٣ ، ٢٤ ، ٨٤ ، ٥٢ ،
٧٠ ، ٧١ ، ١٦٠ .

الحسن البصري : ١٨٠ ، ٥٠ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٤٨ ،
٤٩ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٨٨ ،

٩٤ ، ٩٦ ، ٩٦ ، ١٠٣ ، ٤٢ ، ٤٨ ، ٤٩ ،
٥٠ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٦٣ ، ٦٣ ،

الحسن بن أحمد الفقيه : ١٢٥ .
الحسن بن عبد الملك بن يوسف : ١٢٩ .
الحسين بن صفوان : ١٢٢ ، ١٦٠ ، ٢٧ ،

٣٣ ، ٣٤ .
الحلاج : ٢٧ ، ٣٩ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٨٩ ،

حماد بن زيد : ٦٥ ، ١١٨ ،
حماد بن سلمة : ٩ .
حيونة : ٢٩ ، ١١٥ ، ١١٦ .

(خ)

الحضر (عليه السلام) : ١٤١ .
ابن خلدون : ١٨٥ .

(د)

دلف : ١٤ .
الداراني : (انظر : أباسلميان الدراني) .

(ذ)

الذهبي : ١٦٤ ، ١٨٣ ،
ذو النون المصري : ٥٩ ، ٧١ ، ٧٢ ،
٧٣ ، ١٢٣ ، ٦٢ .

ذيوجانس : ٩١ .
(ر)

رابعة العدوية : ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ...

- عبد العزيز الراسبي : ٣٤ ، ١٦٤ .
 عبد القادر الجيلاني : ٥٧ ، ٥٨ ، ١٣٩ .
 عبد الوارث : ١٢٢ ، ٢٤ .
 عبد الواحد بن بكر : ١٢٩ .
 عبد الواحد بن زيد : ٢٢ ، ٥٠ ، ٥١ ،
 ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٥ ، ١٠٤ ، ٨٠ ،
 ١١ ، ١٦ ، ١٨ ، ٥٤ .
 عبدة بنت أبي شوال : ١٢٧ .
 عبدة بنت أبي كلاب : ١٧٠ ، ٧٥ ، ٧٦ .
 عتبة بن غزوان : ٣ .
 العتيق : ١٢٥ .
 عتيق بن النصر : ٩ .
 عثمان بن آدم : ١٠٨ .
 عثمان بن عمر بن للشاب : ١٢٥ .
 عصام بن عثمان الحلبي : ١٤٣ .
 العطار : ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ،
 ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٣١ ،
 ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٣ ،
 ٥٠ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٨ ، ٨٩ ،
 ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ،
 ١٠١ ، ٣ ، ٤٢ ، ٥٨ ، ٦٨ ، ٦٩ .
 علي بن عمر بن علي النجار : ١٢٩ .
 علي بن الحسن التنوخي : ٢٢ ، ١٢٧ .
 علي بن محمد بن الشران : ١٢٧ .
 علي بن موفق : ١٢٩ .
 علي الحريري : ٣٨ ، ١١٢ .
 علي عمر الحلي : ١٢٧ .
 عمر بن الخطاب : ٣ ، ٥٤ .
 عمر بن محمد : ١٢٦ .
 عيسى بن مرجم العطار : ١٢٧ .
 عون بن ابراهيم : ١٣١ .
 عيسى زادن : ٨ ، ٣٢ ، ١٤٣ .
 عين القضاة الهذاني : ٥١ ، ١١١ .

- السندوني : ١٠٨ .
 السهروردي : ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ،
 ٥٧ .
 سهل بن سعد : ١١٧ .
 سيف بن سبيمة : ٩ .
 (ش)
 الشجاع الخارجية : ١٠٨ .
 الشمراني : ١١ ، ٥٣ ، ١٠٧ .
 شموانه : ١٦١ .
 شقيق البلخي : ١٥٥ ، ٨٨ .
 شمس الدين السيوطي : ٩٧ .
 شيبان بن فروخ : ١٢٦ ، ٢٧ .
 شيخو : ١٦٩ .
 (ص)
 صالح بن عبد الجليل : ١٢٦ ، ٧٥ .
 صلة بن أشيم : ١٠٨ .
 صهيب الرومي : ١٢ .
 (ض)
 ضياء الدين الكشخاني : ١٩ ، ٤١ ،
 ٦٠ .
 (ع)
 عامر بن عبد قيس : ١٠٨ .
 العباس بن حمزة : ١٣١ .
 العباس بن الوليد : ١٢٦ .
 عباسه الطوسي : ١٤٢ .
 عبد اسحق بن ابراهيم : ١٢٥ .
 عبد الله بن أيوب : ١٢٩ .
 عبد الله بن عمر : ٩ ، ١٧٢ .
 عبد الله بن عيسى : ١٣٤ ، ٣٢ ، ٧٤ .
 عبد الله بن اللولي بن أبي الحواري : ٤٥ .
 عبد الرحمن بن عبد الله القرشي :
 ١٣٣ .
 عبد الرحمن الجامي : ١٦٨ ، ١١٨ .

- محمد (صلى الله عليه وسلم) : ١٤ ، ٥٤ ،
١٢٢ ، ٨٥ ، ٧٢ ، ٥٧ ، ٥٦ ، ٥٥
٠ ٧٢ ، ٧١ ، ٥١ ، ٤٩ ، ٤٣ ، ٤٢
محمد بن أبي حاتم : ١٢٥ .
محمد بن أبي منصور : ١٢٥ ، ٢٦ ،
٠ ٣٠ ، ٢٩ ، ١٧
محمد بن أبي نصير الحميدي : ١٢٩ .
محمد بن أحمد بن سعيد : ١٢٥ ، ١٣١ .
محمد بن ادريس : ١٢٦ ، ١٣٠ .
محمد بن اسحق السراج : ١٢٤ ، ١٢٩ .
محمد بن أسلم الطوسي : ١٠١ ، ١٥٧ .
محمد بن الحسين : ١٢٦ ، ٢٧ ، ٣٣ ، ٣٤ .
محمد بن سليمان الهاشمي : ٥٠ ، ٥١ ،
٠ ٢٥ ، ١٨ ، ١٣ ، ٥٩ ، ٥٨
محمد بن طيفور : ١٢٩ .
محمد بن عبد الله الدقاق : ١٢٦ ،
٠ ١٣٠ .
محمد بن عبد الله القطيبي : ١٣٣ ،
٠ ١٣٤ .
محمد بن عبد الباقي : ١٢٦ ، ١٢٩ ،
٠ ٣٩ ، ٣٠ .
محمد بن عبده بن حرب القاضي :
٠ ١٢٧ .
محمد بن علي الإسنوي : ١٠٧ .
محمد بن علي الكوفي : ١٢٧ .
محمد بن عمرو : ١٢٥ ، ١٣٢ .
محمد بن محمد النجار الرازي : ١٢٩ .
محمد بن هبة الله الطبري : ١١٧ .
محمد بن واسع : ١٠٨ .
مذعور بن الطفيل : ١٠٨ .
المرتضى الزبيدي : (أنظر الزبيدي)
مروان بن معاوية الفزاري : ٤٥ .
مريم (عليها السلام) : ١٤٢ .

(ع)

الفزالي : ٣٦ ، ٧٠ ، ١١٨ ، ١٨٥

(ف)

- فرنشسكو الأسيزي : ٩٣ ، ٩٤ .
فريد الدين العطار : (أنظر العطار) .
فستنفلد : ٣ ، ٥ ، ٩٩ .
الفضل بن موسى البصري : ١١٥ .
الفضيل بن عياض : ٣١ .
فيلين : ٢٨ .

(ق)

- فتادة : ٩ .
القرشي : ١٢٦ ، ١٢٧ ، ٣٠ ، ٣١ ،
٠ ٣٤ .
القشيري : ٢٨ ، ٣٦ ، ١٢٢ .

(ك)

- كرامرز : ٣ ، ٥٠ .
كراوس : ٢٧ .
كلاب : ٧٥ ، ١٢٦ .
الكلاباذي : ٢١ ، ٦٩ ، ٨٨ ، ١٠٩ .
كليب : ١٢٦ ، ١٥٧ .

(ل)

- لوسترايخ : ٣ .
ليس : ٥٠ ، ١٦٩ .
ليفي لافيدا : ٧٢ .
(م)
مارجرت اسمث : ٤٣ .
ماسينيون : ١٣ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٣ ،
٠ ٣٨ ، ٥١ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٧٠ ، ١٠٣ .
٠ ١١ ، ١٠ ، ٤ .
مالك بن دينار : ٥٣ ، ٥٩ ، ٧٩ ، ٧٨ ،
٠ ٣٧ ، ١١١ .
الحاجي : ٦٠ ، ٦٧ .

(هـ)

- الهادي : ٨٥ .
- المجوري : ٨٨ ، ٨٩ ، ١٠٩ -
- هرون الرشيد : ١٨٢ ، ١٤٥ -
- هـ . ريتز : ١٥٨ .
- هـ . هورناتير : ٧٧ .

(و)

- وحية الكيلاني : ٢٦ .
- وهيب بن الورد : ٣١ .

(ى)

- اليافعي : ٢٩ ، ١٦٥ .
- ياقوت : ٣ ، ٥ .
- يزيد بن الهلب : ٩ .
- يزيد الرقاشي : ٥٩ .
- يمقوب بن يوسف : ١٢٥ .
- يوحنا الصليبي : ٧١ ، ٧٧ .
- يوسف (عليه السلام) : ٨٨ .
- يوسف بن عبد المتكى : ٩ .

- مسمع بن عاصم . ١٢٥ ، ٣٣ ، ٧٤ .
- مضر القاري : ٥٩ ، ٦٧ .
- معاذ المدوية : ١٠٨ .
- معروف الكرخي : ٦٠ .
- القدسسي : ٩٧ ، ١٧٢ .

الناوي : ٥ ، ١١ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٣٣ ،

٣٤ ، ٣٥ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٧٨ ،

٧٩ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٣٥ .

المهدي : ٨٥ .

موسى (عليه السلام) : ٣٨ ، ٩٤ ،

١٤١ ، ٤٥ ، ٤٩ .

المولى بن أبي الخواري : ٤٥ .

ميمونة السوداء : ١٧ .

(ن)

نساو : ٥٠ ، ١٦٩ .

نعمة الطرطوسي : ١٠١ ، ١٥٧ .

نيكلسون : ٧ ، ١٦ ، ٢٢ ، ٣١ ، ٣٦ ،

٤٥ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٥ ،

١٠١ ، ٨ ، ٩ ، ٤٢ .